طبعة جديدة

رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الإبريز في تلخيص باريز





01 10 57/07

الايداع القانوني : 2007 - 1485

ردمك : 5 - 567 - 62 - 9961 - 978

تخليص الإبريز في تلخيص باريز
أو
الديوان النفيس بإيوان باريس

الأنيس
سلسلة العلوم الإنسانية
تحت إشراف علي الكنز

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الإبريز في تلخيص باريز

أو

الديوان النفيس بإيوان باريس

بحث

تقديم الصغير بن عمار



من مؤلفات الطهطاوي

في السيرة النبوية

في تاريخ مصر

المرشد الأمين في تربية البنات والبنين

تعريب القانون المدني الفرنساوي

تاريخ قدماء المصريين

المعادن النافعة (ترجمة)

قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر (ترجمة)

تقديم

إن من يريد أن يؤرخ للنهضة العربية ، يجد أمامه علما من أعلام هذه النهضة ألا وهو الشيخ رفاعة بدوي الطهطاوي (1801 – 1873) الذي يعتبر بحق أبا للنهضة العربية ، أو على أقل تقدير من المساهمين الكبار الذين أعطوا دفعا قويا في بلورة معالمها .

إنه من بين العلماء الأوائل في القرن التاسع عشر الذين تيقنوا بأن الخروج من عصر الانحطاط المتراكم على الأمة العربية الاسلامية سبيله العلم والمعرفة الحقة .

كان الشيخ رفاعة الطهطاوي يعيش قبل البعثة إلى فرنسا في فترة تحولات سياسية عميقة في مصر وخاصة بمجيء محمد علي حاكما عليها . كان يرافق الدفعة الأولى من الطلبة المصريين الذين ارسلوا إلى باريس لطلب العلم ، وخاصة العلوم الحديثة التي لم تصل بعد إلى الديار العربية . رافقهم وهو شيخ من شيوخ الازهر ليوجههم التوجيه الديني ولكي يقوم مع مجموعة من رفاقه بالواجبات الدينية والمحافظة عليها في ديار الغربة . إن الفترة التي سبقت هذه الرحلة الاولى التي يقوم بها الشيخ الطهطاوي خارج وطنه حافلة بالتحولات السياسية في بلاده .

ولد الشيخ الطهطاوي عام 1801م ، وهي السنة التي رحلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر وفي سنة 1817 توفي والده ، فهاجر من طهطا

إلى القاهرة . وذلك قصد مزاولة الدراسة في جامعة الازهر . ورشحه استاذه الشيخ حسن العطار في يوليو 1826 م كإمام ديني ومرشد لأول بعثة دراسية مكونة من أربع واربعين طالبا أوفدها محمد علي إلى فرنسا متأثراً بمستشاره الفرنسي السيد «جومار» الذي لم يرحل مع الحملة الفرنسية . وعاد إلى وطنه سنة 1831 م وكان قد عايش مرحلة من أهم المراحل التي عرفتها فرانسا وهي مرحلة التحولات العميقة التي تولدت عن الثورة الفرنسية (1789) وكانت فرنسا أثناء بعثته بها زاخرة بالأحداث الجسام . فالثورة الفرنسية ماثلة بمثلها واحداثها ونتائجها ، كما قام بترجمة الميثاق الدستوري الفرنسي لسنة 1831 والتعليق عليه . كما وصف احداث ثورة 1830 . وقد كان مقيما بباريس وهو يشاهد التيارات السياسية المتناحرة في قلب العاصمة الفرنسية . إن ترجمة الدستور المعدل وطرد الملك شارل العاشر كان حدثا عظيما بالنسبة للشيخ رفاعة . والحديث عن هذه الاحداث تعتبر دعوة صريحة لمواطنيه ليقتدوا بما يحدث في فرنسا فهو يقول في كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» إذا تأملت رأيت أغلب ما في هذه الشرطة (الميثاق ، الدستور) نفيسا ... فسائر الفرنسوية مستوون قدام الشريعة فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا إلى إجراء الاحكام ... وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية .. إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف وأن سياسة الفرنساوية هي قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ...»

ويعود إلى بعض التنظيمات الاجتماعية التي شاهدها في باريس ، بأن الحاكم أو الملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه بموجب القوانين ومعنى ذلك

أن هناك سلطة أخرى تعلو على سلطة الملك هي سلطة القانون . إننا نجده هنا متأثرا بموقف منتسكيو القانوني المقيد في روح القوانين «وهو القائل»

«لقد قرأت في الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برلماني وترجمته وفهمته فهما جيدا وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين . يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت مع «مسيو شواليه» جزأين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبني على التحسين والتقبيح العقليين ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي كما أن ابن خلدون يقال له عندهم منتسكيو الشرق أي منتسكيو الاسلام . وقرأت أيضا في هذا المعنى ما يسمى «عقد التأسس والاجتماع الانساني مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم في معناه ، وقرأت أيضا في كازيطات ﴿صحف ومجلات ودوريات﴾ العلوم اليومية والشهرية التي تذكر كل يوم ما يصل خبره من الاخبار الداخلية والخارجية المسماة البولتيقة وكنت مولعا بها غاية التولع ..»

إن الشيخ رفاعة يقدم في هذا الكتاب تحليله لمبادىء الدستور الفرنسي والتعديلات التي جرت عليه وهو بذلك يقدم للقارىء العربي نظام الحكم الفرنسي واسباب ثورة 1830 ويبدو في ذلك شديد الحماس لهذه التغيرات وللحياة السياسية والثقافية التي عمت باريس وانتشرت اصداؤها على القارة الأوربية ، وقد أراد بذلك كشف الغطاء عن المبادىء الأساسية التي تحرك هذه الحياة وله غاية في ذلك إذ يقول «لكي نكشف الغطاء عن تدبير الفرانسوية ونستوفي غالب أحكامهم وليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ..»

ـ إن من يتتبع كتابات الطهطاوي يقر بأنه أمام ظاهرة هامة في

القرن التاسع عشر ولعل أبرز قيمة نستخلصها من نشاطه الدؤوب هي الأثار العميقة التي أحدثها في المجتمع المصري وقد ركز في ذلك على محاور رئيسية و على مبادىء آمن بها واعتمد عليها وهي :

1) تنبيه المواطن العربي للتحولات التي تحدث في المجتمعات الأخرى وذلك من خلال الافكار السياسية التي تناقش مختلف أوجه الحياة السياسية من السلطة إلى العلاقات الموجودة بين الحاكم والمحكوم - كما أن الحياة السياسية ليست وقفا على طبقة ولكن تهم أفراد المجتمع . إن الديمقراطية كنظام سياسي له دور كبير . ويرى الدكتور لويس عوض في هذا الصدد : أن الطهطاوي قد بث في مصر أقوى لغم من ألغام الديمقراطية الليبرالية ونجح في ذلك عندما قدم نظريتها في شرط قيام المجتمع المدنى أو الدولة كما نسميها . إن الدول تأسست لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية في الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض . بموجب أحكام شرعية وأصول مظبوطه مرعية وهنا نجد أن الطهطاوي تأثر كثيراً بأفكار مفكري الثورة الفرنسية ، وخاصة فكرة حقوق الانسان - إن هذا التنبيه هو في نفس الوقت حثٌ على المطالبة بهذه الحقوق لإرساء قواعد مجتمع عادل ونظام سياسي يضمن هذه الحقوق ويزدهر بفضل وجودها .

2) ترجمة الأفكار السياسية الجديدة التي تناقش حياة المجتمعات البشرية والتعرف على النظم السياسية وعلى العلاقات التي توجد بين الحاكم والمحكوم - مفهوم السلطة في مختلف أوجهها . وقد نقل إلى العربية كتاب فنيلون «مواقع الافلاك في وقائع تلماك» كما ترجم الميثاق والدستور الفرنسي المعدل (1831) مع تعليق واف وشرح لاسباب هذه التعديلات . كما أنه من المؤسسين لمدرسة الألسن . كما ترجم عشرات الدراسات في مختلف الميادين إلى اللغة العربية كرسالة الهندسة التي كانت تدرس

بالمدرسة الحربية في سان سير بفرنسا وكتب في الجغرافية و دراسات أدبيـة وعلمية كما قدم ترجمة لكتب ومقالات سياسية قانونية وعسكرية .

3) فتح المدارس أمام أفراد الشعب وفتح مختلف الفروع والتخصصـات وذلك كما سجله في كتابه «مناهج الالباب» يحث فيه على التثقيف السياسي والعلمي والديني للمواطنين لأن هـذا التثقيف في صـالح المجتمع ومن حقوق وواجبات كل مواطن وعلى الدولة أن تضمن ذلك مقابل ما تقدمه الرعيـة من الأموال والرجال للحكومـة كما يرى بـأن كل جهود الـدولـة لا بـد أن تنصب على فتح المـدارس والمعـاهـد لأنهـا السبيل إلى تكـوين طليعـة من المثقفين المتسلحين بـالعلم وبـاللغـات الأجنبيـة تمكنهم من الاطـلاع على مختلف الثقافات وهضمها ومناقشتها . كما تسعى إلى إنجـاز مشروعـه الكبير الذي يتمثل في المـدرسـة العليـا للّغـات الاجنبيـة التي فتحت أبوابهـا عـام 1836 وتـولى إدارتهـا في السنـة الثـانيـة - كما سـاهم في تسيير المـدرسـة التجهيزية ومدرسة المحاسبة ومدرسـة الإدارة الافرنجيـة . ويمكن القول مع الـدكتـور لـويس عـوض بـأن هـذا المشروع الـذي سـاهم الشيـخ رفـاعـة الطهطاوي في إنجازه يعتبر بدايـة جـامعـة عصريـة مصريـة تفتح ابوابهـا للثقافات الاجنبية المتطورة .

وقد قدم رفاعة في مساهمته تلك ، ولأول مرة في تاريخ مصر الحـديث ، مفهوم الحرية بمعناها السياسي الحديث . كما قـدم مفهوم الـدولـة العصريـة التي تختلف عن الـدولـة الثيوقراطيـة وأعطى قـدم مفهومـا جـديـدا لمعنى الوطن والوطنية -

ونجـده متيقن بـأنـه لا يـوجـد اختـلافـا كبيرا بين مبـادىء الشرع الاسلامي والمبـادىء الخـاصـة بـالقـانون الطبيعي التي أقيمت على مقتضـاه دساتير اوربا الحـديثـة ، الأمر الـذي أدى بـالشيخ الطهطـاوي إلى إعـادة تفسير الشرع الاسلامي في اتجـاه التطـابق مع المتطلبـات الحـديثـة . وهو

عمل ممكن ومشروع بل واجب في نظر الشيخ الطهطاوي . ويعتبر من هذه الناحية أول من فتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام الاكتشافات العلمية الحديثة كما أحدث انقلابا في مفهوم العَالِم في المجتمع الإسلامي على أساس أنه ليس مجرد حارس لهذا التراث الثابت ومحدد الاطار وإنما عليه أن يفسر الشريعة الاسلامية في ضوء الاختراعات العلمية الحديثة .

وفي الأخير نقول بأن اشكالية الحداثة في المجتمعات العربية وصراعاتها مع الاصالة والعصرنة حاليا نجد لها بذور في فكر الشيخ رفاعة إذ حاول أن يأخذ بأسباب الحضارة ووسائلها في مختلف انشطته كما حاول التوفيق بين الأصالة والحداثة في المجتمع العربي .

الصغير بن عمار

الخطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من سير أقدام الأنام الى ما مضى في سابق علمه ، ويسر للانسان الاقدام على محتم قضائه وحكمه ، فلا محيص لقوى وضعيف ، ووضيع وشريف ، عما جرى في ام الكتاب ، ولا مفر لغني وفقير ، وخطير وحقير ، عن الاقتراب الى مطوى ذلك الحجاب . احمده سبحانه وتعالى حمد من ابتلاه فصبر ، واغناه فشكر ، وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير الى مرضاته ، فتنزه في رياض القبول وجناته ، واصلي واسلم على من سارت ركائب شوقه الى مدبرة ، واشارت مواكب حسن خلقه الى طيب عنصره ، سيدنا محمد الذي سافر الى الشام وهاجر الى المدينة وسار من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وكان جبريل امينه ، وعلى آله واصحابه وعترته واحبابه ، واتوسل الى الحضرة العلية ، بالحضرة المحمدية ، في نشر الوية العز والعدل ، وكمال الجنة والفضل ، على سائر الاقطار المصرية ، وجميع الاقاليم الحجازية والسودانية والشامية ،[1] باشراق طالع التدبير العجيب ، والتشييد الغريب ، الوزير الاعظم ، والدستور المكرم المفخم .

نادرة وزراء الزمان ، وشاردة امراء الأوان ، من احيي العلوم باجتهاده ، ونصب رسوم الاسلام بغزوه وجهاده ، صاحب العلم المنيف ، وفاتح الحرم الشريف ، حضرة افندينا ولي النعم ، عظيم الشيم ، الحاج محمد على باشا ، بلغه الله تعالى ما يشاء ، وما شاء آمين .

ابقـــــــاه ربي بخير وعـــــزة وسعـــــــاده
بجـــــاه خير البرايــــــا والآل اهـــل السيـــــادة

أما بعد ، يقول العبد الفقير الى امداد سيده ومولاه ، السائر حيث وجهه وولاه ، المعتمد على الكريم النافع ، رفاعة ابن المرحوم السيد بدوي رافع ، الطهطاوي بلدا ، الحسيني القاسمي نسبا ، الشافعي مذهبا : لما من الله سبحانه وتعالى علي بطلب العلم بالجامع الازهر ، والمحل الانور ، الذي هو جنة علم دانية الثمار ، وروضة فهم يانعة الازهار ، كما قال استاذنا العلامة العطار[2] :

لازم اذا رمت الفضائل مسجدا بشموس انواع العلوم تنورا
فيه رياض العلم اينع زهرها فلـــذلك المعنى تسمى الأزهرا

وقال بعضهم ، واحسن ، بيتين ، معرضا بعلماء الحرمين :

ومن يغترب عن ازهر العلم فلينح على بعـــد دار العلم والعلمـــاء
ففيــه بحور طــاميــات وغيره بحــور عروض لا تجــود بمـــاء

وحصلت ما يسر به على الفتاح مما يخرج به الانسان من

الظلام ، ويمتاز به عن مرتبة العوام ، وكنت من معشر جارت عليهم الايام بعد ان اجرت غيثها في ديارهم ، واشارت الى نصبهم الاعوام بعد ان نصبت اعلام راحتها في مزارهم ، ومن المركوز في الاسماع في القديم والحديث ، وعليه الاجماع بعد الكتاب والحديث : ان خير الامور العلم ، وانه اهم كل مهم ، وان ثمرته في الدنيا والآخرة على صاحبه تعود ، وان فضله في كل زمان ومكان مشهود ، سهل لي الدخول في خدمة صاحب السعادة اولا في وظيفة واعظ في العساكر الجهادية ، ثم منها الى رتبة مبعوث في باريس ، صحبة الافندية المبعوثين لتعلم العلوم الفنون الموجودة بهذه المدينة البهية ، فلما رسم اسمي في جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه ، اشار علي بعض الاقارب والمحبين ، لا سيا شيخنا العطار ، فانه مولع بسماع عجائب الاخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ، ان انبه على ما يقع في هذه السفرة ، وعلى ما اراه وما اصادفه من الامور الغريبة ، والاشياء العجيبة ، وان اقيده ، ليكون نافعا في كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التي يقال فيها عرائس الاقطار ، وليبقى دليلا يهتدي به الى السفر اليها طلاب الاسفار ، خصوصا وانه من اول الزمن الى الآن ، لم يظهر باللغة العربية ، على حسب ظني ، شيء في تاريخ مدينة باريس ، كرسي مملكة الفرنسيس ، ولا في تعريف احوالها واحوال اهلها . فالحمد لله الذي جعل ذلك بأنفاس ولي النعمة ، وفي عهده ، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم

والفنـون ، فمـا قصرت في ان قيـدت في سفري رحلـة صغيرة ، نزهتها عن خلل التساهل والتحـامل ، وبرأتهـا عن زلل التكاسل والتفاضل ، ورشحتها ببعض استطرادات نـافعـة ، واستظهـارات سـاطعـة ، وانطقتهـا بحث ديـار الاسلام على البحث عن العلوم البرانيـة ، والفنون والصنـائع ، فـان كمال ذلـك ببلاد الافرنج امر ثابت شائع ، والحق احق ان يتبع . ولعمر الله انني مـدة اقـامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه ، واياك ان تجد ما اذكره لك خارقا عن عـادتـك ، فيعسر عليـك تصديقه ، فتظنـه من باب الهذر والخرافات ، او من حيز الافراط والمبالغات ، وبـالجملـة ، فبعض الظن اثم ، والشـاهـد يرى مـا لا يراه الغائب .

واذا كنت بـالمـدارك غرا ثم ابصرت مـدركا لاتمـار
واذا لم تر الهـلال فسلم لأنـاس رأوه بـالأبصـار

وقد اشهدت الله سبحانه وتعالى على ان لا احيد في جميع مـا اقوله عن طريق الحق ، وان افشي ما سمح به خـاطري من الحكم على استحسان بعض امور هذه البلاد وعوائدهـا ، على حسب مـا يقتضيه الحال ، ومن المعلوم اني لأستحسن الا مـا لم يخالف نص الشريعة المحمدية ، على صاحبها افضل الصلاة وأشرف التحية .

وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه فقـط ، بـل هي مشتملـة ايضـا على ثمرتـه وغرضـه ، وفيهـا ايجـاز العلـوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها على طريق تدوين الافرنج لها

واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها ، ولذلك نسبت في غالب الاوقات الاشياء التي هي محل للنظر او للاختلاف ، مشيراً الى ان قصدي مجرد حكايتها .

وقد سميت هذه الرحلة (تخليص الابريز في تلخيص باريز) ، او (الديوان النفيس ، بايوان باريس) ، وقد رتبتها على (مقدمة) وفيها عدة أبواب ، وعلى (مقصد) وفيه عدة(مقالات) ، وكل مقالة فيها عدة (فصول) ، او (كتب) مشتملة على (فصول) ، وعلى (خاتمة)[3] وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز ، وارتكاب السهولة في التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد ، وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد . ﴿شعر) :

فاذا بدا لا تستقلوا حجمه   وحياتكم فيه الكثير الطيب

واسأل الله ، سبحانه وتعالى ، ان يجعل هذا الكتاب مقبولا لدى صاحب السعادة ، ولي النعم ، معدن الفضل والكرم ، وان يوقظ به من نوم الغفلة سائر امم الاسلام ، من عرب وعجم ، انه سميع مجيب ، وقاصد لا يخيب .

(1) كتب الطهطاوي هذه المقدمة – الخطبة – ومصر تكون مع هذه الاقاليم دولة واحدة .. ففيما بين سنة 1811 وسنة 1816 م امتدت حدود الدولة لتشمل الحجاز ،

بعد الحملة ضد الحركة الوهابية ، وفيما بين سنة 1820 وسنة 1822 م دخل السودان في اطارها بعد فتح الجيش المصري له ، وفي 29 اكتوبر سنة 1921 م بدأت الحملة المصرية ضد القوات العثمانية في الشام ، وهي الحملة التي وحدت الشام مع مصر من سنة 1821 حتى 1841 م . انظر كتابنا ﴿العروبة في العصر الحديث﴾ ص 160 وما بعدها .

(2) حسن العطار (1766 – 1835 م) احد شيوخ الازهر ، واستاذ الطهطاوي ، وهو من أوائل علماء الازهر الذين ادركوا – بعد حملة بونابرت على مصر – اهمية الانفتاح على الحضارة الاوروبية .

(3) «راجع الفهرست في أول الكتاب» . ذكر الطهطاوي هذه العبارة ، كجملة معترضة في متن الخطبة ، أما نحن فقد جعلنا الفهرس في نهاية هذا الجزء ، وذلك علاوة على الفهارس العامة لمجموع اعماله الكاملة التي ستأتي في الجزء الاخير من هذه أعمال .

المقدمة

1 - في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد ، التي هي ديار كفر وعناد ، وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد !!

أقول : ان هذا يحتاج الى تمهيد ، وهو أن الأصل في الانسان الساذجية ، والخاوص عن الزينة ، والوجود على اصل الفطرة ، لا يعرف الا الامور الوجدانية ، ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها ، وانما كشفت له بالصدفة والاتفاق ، او بالالهام والايحاء ، وحكم الشرع او العقل بنفعها فاتبعت وابقيت ، مثلا : كان في اوائل الزمن يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران ، لجهل النار بالكلية عندهم ، ويقتصرون على الغذاء بالفواكه او بالاشياء المنضجة بالشمس ، او اكل الاشياء النيئة ، كما هو في بعض البلاد الى الآن ، ثم انه حصل ، اتفاقا ، ان بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان بمصادمة حديدة او نحوها ، ففعل مثل ذلك ، وقدم واخرج النار وعرف خاصيتها . وكان في الناس من يجهل الصبغ والتلوين للثياب

باللون الارجواني مثلا ، فرأى بعضهم كلبا اخذ محارة من البحر وفتحها واكل ما فيها فأحمر حنكه وتلون بما فيها ، فأخذوها وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون ، كما يحكى عن اهالي صور ببر الشام ، وكانت الناس في أول الامر تجهل ركوب البحر ، ثم بالهام الهي ، او باتفاق بشري عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء ، فصنعوا السفينة ، ثم تبحروا في السفن ، وعمروها ونوعوها أنواعا ، فكانت أولا صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها حتى صلحت للجهاد والحرابات ، وقس على ذلك ما أشبه من المحاربة بالسهام والرماح اولا ، ثم بعد ذلك بالسلاح ، ثم بالمدافع والاهوان .

وقد كانت الناس في اول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم ، وغير ذلك ، ثم بالهام الله تعالى ، وبارساله الرسل ، صاروا يعبدون الها واحدا ، فكلما تقادم الزمن في الصعود رأيت الناس في الصنائع البشرية والعلوم المدنية ، وكلما نزلت ونظرت الى الزمن في الهبوط رأيت في الغالب ترقيهم وتقدمهم في ذلك ، وبهذا الترقي وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالة الاصلية والقرب منها ، انقسم سائر الخلق الى عدة مراتب :

المرتبة الاولى : مرتبة الهمل المتوحشين .

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين .

المرتبة الثالثة : مرتبة اهل الادب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين .

مثال المرتبة الأولى ، همل بلاد السودان ، الذين هم دائما كالبهائم السارحة لا يعرفون الحلال من الحرام ، ولا يقرؤن ولا يكتبون ، ولا يعرفون شيئا من الامور المسهلة للمعاش ولا للمعاد ، وانما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم ، فيزرعون بعض شيء او يصيدونه لتحصيل قوتهم ، ويخصصون بعض اخصاص او خيام للتوقي من حر الشمس ونحوه . ومثال المرتبة الثانية ، عرب البادية ، فان عندهم نوعا من الاجتماع الانساني والاستئناس والائتلاف ، لمعرفتهم الحلال من الحرام ، والقراءة والكتابة ، وغيرها ، وأمور الدين ، ونحو ذلك ، غير أنهم ايضا لم تكمل عندهم درجة الترقي في امور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية والنقلية ، وان عرفوا البناء والفلاحة وتربية البهائم ، ونحو ذلك ومثال المرتبة الثالثة ، بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والافرنج والمغرب وسنار وبلاد امريكة ، على اكثرها ، وكثير من جزائر البحر المحيط ، فان جميع هؤلاء الأمم ارباب عمران وسياسات ، وعلوم وصناعات ، وشرائع وتجارات ، ولهم معارف كاملة في آلات الصنائع والحيل على حمل الاشياء الثقيلة باخف الطرق ، ولهم علم بالسفر في البحور ، إلى غير ذلك .

وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت في علومها وفنونها ، وحسن حالها ، وتقليد شريعة من الشريعة ، وتقدمها في النجامة ،[1] مثلا : البلاد الافرنجية قد بلغت اقصى مراتب البراعة في العلوم

الرياضية ، والطبيعية ، وما وراء الطبيعة ، اصولها وفرعها ، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية ، وتوصلوا الى دقائقها واسرارها ، كما سنذكره ، غير انهم لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ، ولم يسلكوا سبيل النجاة ابدا . وكما ان البلاد الاسلامية قد برعت في العلوم الشرعية ، والعمل بها ، وفي العلوم العقلية ، واهملت العلوم الحكمية بجملتها ، فلذلك احتاجت الى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه ، ولهذا حكم الافرنج بان علماء الاسلام انما يعرفون شريعتهم ولسانهم ، يعني ما يتعلق اللغة العربية ، ولكن يعترفون لنا بأننا كنا اساتيذهم في سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم ، ومن المقرر في الاذهان ، وفي خارج الاعيان ، ان الفضل للمتقدم ، او ليس ان المتأخر يغترف من فضالته ، ويهتدي بدلالته ؟ وما احسن قول الشاعر :

ومما شجاني أنني كنت نائما اعلل من فرط الكرى بالتنسم
الى ان بكت ورقاء في غصن ايكة تردد مبكاها بحسن الترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدي شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ويعجبني ايضا قولهم في هذا المعنى عند المكافأة :

انا الشجاع الذي قد كنت في ظمأ وسط الهجير على الرمضاء في الوادي
فجدت بالماء فضلا منك مبتدا بغير قل فاشفي غلة الصادي
هذا جزاؤك منا لا نمن به فضلا بفضل وكان الفضل للبادي

فاننا كنا في زمن الخلفاء اكمل سائر البلاد ، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وارباب الفنون وغيرهم ، على ان منهم من كان يشتغل بها بنفسه ، فانظر الى المأمون بن هارون الرشيد فانه زيادة عن أعانة «ميقاتية»[2] دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك ، كيف وهو الذي قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده بالامتحان ثلاثة وعشرين درجة وخمسة وثلاثين دقيقة ، وغير ذلك ، وكما فعل جعفر المتوكل من العباسية ، فإنه اعان اصطفان[3] على ترجمه الكتب اليونانية ككتاب ذيستوريدس في الادوية ، وكما قد طلب الملك عبد الرحمن الناصر ، صاحب الاندلس ، من ملك قسطنطينية المسمى ارمانيوس ان يبعث اليه رجلا يتكلم باللسان اليوناني واللاطيني ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده ، فبعث له راهبا يسمى «نقولا» الى غير ذلك . فمن هنا نفهم ان العلوم لا تنشر في عصر الا باعانة صاحب الدولة لاهله ، وفي الامثال الحكمية : الناس على دين ملوكهم .

وقد تشتت عز الخلفاء ، وانهدم ملكهم ، فانظر الى الاندلس فانها الآن بأيدي النصارى الاسبانيول من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قويت شوكة الأفرنج ببراعتهم وتدبيرهم ، ومعرفتهم في الحرابات ، وتنوعهم واختراعهم فيها ، ولولا ان الاسلام منصور بقدرة الله ، سبحانه وتعالى ، لكان كل شيء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم ، وغير ذلك ، ومن المثل

المشهور : ان عقل الملوك ابصرهم بعواقب الامور ، ولهذا تنبه ولي النعمة ، حفظه الله تعالى ، حيث ولاه الله سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة ان يرجع اليها شبابها القديم ، ويحيي رونقها الرميم ، فمن مبدأ توليه ، حفظه الله سبحانه وتعالى ، وهو يعالج في مداواة دائها ، الذي لولاه كان عضالا ، ويصلح فسادها ، الذي قد كاد ان يكون زواله محالا ، ويلجتي اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة ، من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى أن العامة بمصر ، بل وبغيرها ، من جهلهم يلومونه غاية اللوم بسبب قبول الافرنج وترحيبه بهم وانعامه عليهم ، جهلا منهم بأنه حفظه الله انما يفعل ذلك لانسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى ، فالحاجة دعت اليه ولله در من قال :

ان المعلم والطبيب كلاهما لم يبذلا نصحا اذا لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يتأتي لانسان ان ينكر ان الفنون والصنائع بمصر قد برعت الآن ، بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ، فما انفقه صاحب السعادة على ذلك كان في محله اتفاقا . فانظر الى الورش والمعامل والمدارس ونحوها ، وانظر الى ترتيب امر العساكر الجهادية ، فانه ، من احسن ما صنعه صاحب السعادة واحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ، ولا يمكن ادراك ضرورية هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج او شاهد الوقائع . وبالجملة والتفصيل ، فولى النعمة

آماله دائما متعلقة بالعمارات ، ومن الحكم المعروفة : العمارة كالحياة ، والخراب كالموت ، وبناء كل ملك على قدر همته ، وقد سارع ولي النعمة ، حفظه الله تعالى ، في تحسين بلاده ، فأحضر فيها ما أمكنه احضاره من علماء الافرنج ، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر الى تلك البلاد ، فان علماءها اعظم من غيرهم في العلوم الحكمية ، وفي الحديث : «الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك» . قال بطليموس الثاني[4] : خذوا الدر من البحر ، والمسك من الفأرة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن قالها . وفي الحديث : «اطلب العلم ولو بالصين» . ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون ، وان كان المقصود من الحديث السفر الى طلب العلم . وبالجملة ، حيثما أمن الانسان على دينه فلا ضرر في السفر ، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة . ولعل هذا كله مطمح نظر صاحب السعادة في هذه الارسالية وغيرها من الارساليات المتتالية المتسلسلة ، فثمرة هذا السفر تحصل ، ان شاء الله تعالى ، بنشر هذه العلوم والفنون الآتية في الباب الثاني ، وبكثرة تداولها وترجمة كتبها وطبعها في مطابع ولى النعم ، فينبغي لأهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة ، وليس هذا الزمان قابلا لان يقال كما قال بهاء الدين ابو حسين العاملي ،[5] في صرف العمر في جمع كتب العلم وادخارها ومطالعتها ، في شعره :

على كتب العلوم صرفت مالك وفي تصحيحها اتبعت بالك

وانفقت البيـــاض مـع الســواد الى مـــا ليس ينفـع في المعـــاد
تظـل من المســاء الى الصبـــاح تطـــالعهـــاوقلبـــك غير صـــاح
وتصبح مـولعـا من غير طـائـل بتحرير المقـــاصـــد والـــدلائـل
وتـــوضيـح الخفـــا في كل بـــاب وتـــوجيـــه السؤال مـع الجـواب
لعمري قـد أضلتـــك الهـــدايـــة ضـلال مـا لـه ابـدا نهـايـة
وبـالمحصول حـاصلـك النـدامـة وحرمـــان الى يـوم القيـــامـــة
وتـــذكرة المــواقف والمراصـــد تسـد عليـك أبـواب المقـاصـد
فـلا ينجي النجـاة من الضـلالـة ولايشفى الشفـــاء من الجهـــالـة
وبـــالارشـــاد لم يحصـل رشـــاد وبـالتبيـان مـــا بـــان الســداد
وبـــالإيضـــاح اشكلت المـــدارك وبـالمصبـــاح أظلمت المســالــك
وبـالتلويـح مـا لاح الـدليـل وبـالتـوضيح مـا اتضـح السبيـل
صرفت خـلاصـة العمر العـزيـز على تنقيـح ابحـــاث الـوجيز
بهـــذا الامر صرف العمر جهـــل فقم واجهـد فمـا في الوقت مهـل
ودع عنـك الشروح مع الحـواشي فهن على البصـــائر كالغـــواشي

وقوله :

ايهـا القـوم الـذي في المـدرسـة كل مـــا حصلتمـوه وسـوســـه
فكركم ان كان في غير الحبيب مـا لـــه النشـــأه الاخرى نصيب
فـاغسلـوا بـالراح عن لـوح الفـؤاد كل علم ليس ينجي في المعـــــاد

لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيـا ، وانهمـك على الاخرى ، او من اشترى العلوم بأعلى ثمن ، فبخس صفقها حادث الزمن .

2 – يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة ، لتعرف اهميتها ولزومها في اي دولة من الدول . وهذه الفنون اما واهية في مصر او مفقودة بالكلية ، وهي قسمان : قسم عام للتلامذة ، وهو الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ والرسم ، وقسم خاص متوزع عليهم ، وهو عدة علوم : العلم الأول : علم تدبير الامور الملكية ، ويتشعب عنه عدة فروع : الحقوق الثلاثة التي يعتبرها الافرنج ، وهي الحقوق الطبيعية ، والحقوق البشرية ، والحقوق الوضعية .

وعلم احوال البلدان ومصالحها وما يليق بها ، وعلم الاقتصاد في المصاريف ، وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات والخازندارية وحفظ بيت المال .

العلم الثاني : علم تدبير العسكرية .

العلم الثالث : علم القبطانية والامور البحرية .

العلم الرابع : فن معرفة المشي في مصالح الدول ، يعني علم السفارة ، ومنه «الايلجية» ،[6] وهي رسالة البلدان ، وفروعه : معرفة الالسن ، والحقوق ، والاصطلاحات .

العلم الخامس : فن المياه ، وهو صناعة القناطر والجسور والارصفة والفساقي ، ونحو ذلك .

العلم السادس : الميكانيقا ، وهو آلات الهندسة وجر الاثقال .

العلم السابع : هندسة العساكر .

العلم الثامن: فن الرمي بالمدافع، وترتيبها، وهي فن الطبجية.

العلم التاسع : فن سبك المعادن لصناعة المدافع والاسلحة .

العلم العاشر: علم الكيمياء وصناعة الورق ، والمراد بالكيمياء معرفة تحليل الاجزاء وتركيبها ، ويدخل تحتها امور كثيرة ، كصناعة البارود ، والسكر . وليس المراد بالكيمياء حجر الفلاسفة ،(7) كما يظنه بعض الناس ، فان هذا لا تعرفه الافرنج ولا تعتقده أصلا .

العلم الحادي عشر: فن الطب ، وفروعه : فن التشريح ، والجراحة ، وتدبير الصحة ، وفن معرفة مزاج المريض ، وفن البيطرة أي معالجة الخيل ، وغيرها .

العلم الثاني عشر: علم الفلاحة ، وفروعها : معرفة انواع الزروع ، وتدبير الخلاء بالبناء اللائق به ، وغيرها ، ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبرة للمصارف .

العلم الثالث عشر: علم تاريخ الطبيعيات ، وفروعه : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن .

العلم الرابع عشر: صناعة النقاشة ، وفروعها : فن الطباعة ، وفن نقش الاحجار ، ونحوها .

العلم الخامس عشر: فن الترجمة ، يعني ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة ، خصوصاً ترجمة الكتب العلمية ، فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه واليه ، والفن المترجم فيه .

فاذا نظرت بعين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الأفرنج ناقصة او مجهولة بالكلية عندنا ، ومن جهل شيئا فهو دون من اتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الانسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته ! فالحمد لله الذي قيض ولي النعمة لانقاذنا من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا ، واظن ان من له ذوق سليم وطبع مستقيم يقول ، كما أقول . وسأذكر بعضها بالاختصار في آخر الكتاب ، ان شاء الله تعالى وهو المستعان .

3 – في ذكر وضع البلاد الافرنجية ونسبتها الى غيرها من البلاد ، ومزية الامة الفرنساوية على ماعداها من الافرنج ، وتبيين تخصيص صاحب السعادة لها بارسالنا فيها دون ما عداها من ممالك الافرنج .

فنقول : اعلم ان الجغرافيين ، من الافرنج ، قسموا الدنيا من الشمال الى الجنوب ، ومن المشرق الى المغرب ، خمسة أقسام ،[8] وهي : بلاد اوربا ،[9] وبلاد آسيا ،[10] وبلاد افريقية ، وبلاد الامريكية ، وجزائر البحر المحيط[11] . فبلاد اوربا محدودة جهة الشمال بالبحر المتجمد ، المسمى بحر الثلج الشمالي ، وجهة الغرب ببحر الظلمات ، المسمى البحر المظلم والبحر الغربي ، وجهة الجنوب بحر الروم ، المسمى البحر المتوسط والبحر الأبيض ، وبلاد آسيا ، وجهة الشرق ببحر الخزر[12] ، المسمى بحر جرجان

وبحر طبرستان ، وبيلاد آسيا . فحينئذ بلاد اوربا تقال على بلاد الافرنج ، وبلاد الاروام ، وبـلاد قسطنطينيـة ، وبـلاد الخـزر ، والبلغـار ،[13] والافلاق والسرب وغيرهـا ، وهي نحو ثلاثـة عشر ارضا ، اي ولايـة اصليـة ، اربعـة منهـا في الشمال ، وهي : بلاد الانكليز ، وبلاد دنيمرق ،[14] وبـلاد اسـوج[15] وبـلاد المـوسقـو ، وستة في الوسـط ، وهي : بلاد الفلمنـك ،[16] وبلاد الفرنسيس ، وبلاد السويسـة ،[17] وبلاد النمسـة ، وبلاد البروسـة[18] ، وبلاد جرمانية[19] المتعاهـدة ، وثلاثـة في الجنوب وهي : بلاد اسبـانيـا مع البرتغال ، وبلاد ايطـاليـا ، وبلاد الـدولـة العثمـانيـة في بلاد اوربـا وهي بـلاد الاروام ، والارنـاؤط ، والبشنـاق ،[20] والسرب[21] ، والبلغار ، والافلاق ، والبغدان ،[22] .

فمن ذلـك تعلم ان تفسير بعض المترجمين بلاد اوربـا ببـلاد الافرنج ، فيـه قصور ، اللهم الا ان تكـون بـلاد الافرنـج تطلـق على ما يعم بلاد الدولة العلية ، ولكن ينـاقض ذلـك ان الـدولـة العثمـانيـة يقصرون بلاد افرنجستـان على مـا عـدا بلادهم من بـلاد اوربا ، ويسمون بلادهم ببلاد الروم ، وان كانوا يعممون ايضا في لفـظ الروم فيريـدون بـه مـا يعم بـلاد الافرنـج وبعض البـلاد الداخلة في حكمهم من بلاد آسيا .

وبلاد آسيا محدودة ايضا جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ، وجهـة الغرب ببلاد اوربـا ، والافريقيـة ، وجهـة الجنـوب ببحر الهنـد وبحر الصين ، وجهـة الشرق ببحر الجنوب المحيـط ، وببحر

بهرنغ ،[23] وهي تنقسم ايضا الى عشرة اراض اصلية ، واحدة جهة الشمال ، وهي بلاد سبير ،[24] وسبعة في الوسط ، وهي : بلاد الدولة العثمانية التي هي الشام ، وارمنية ، وكردستان ، وبغداد ، والبصرة ، وقبرص ، وغيرها ، وبلاد العجم ، وبلاد بلوجستان ،[25] وبلاد قابولستان ،[26] وافغهانستان ،[27] وبلاد التتار الاكبر ، وبلاد الصين ، وبلاد يابونيا ،[28] واثنان في الجنوب ، وهي : بلاد العرب ، وبلاد الهند . فبلاد الحجاز ، وبلاد الوهابية[29] تحت حكم الدولة العلية ، وبلاد اليمن تحت حمايتها ، وبلاد عمان مستقلة ، وكلها اقاليم جزيرة العرب . فهذه هي ولايات آسيا .

ثم بلاد أفريقية، وهي محدودة جهة الشمال ببحر الروم، وجهة الغرب بالبحر الاطلنطيقي،[30] المسمى بحر الظلمات، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبي، وجهة الشرق ببحر الهند، وببغاز باب المندب، وبحر القلزم، المسمى البحر الاحمر، وببلاد العرب. يمكن تقسيم الافريقية الى ثمانية اراض اصلية: اثنتان في الشمال، وهي: بلاد المغاربة، وبلاد مصر، واربعة في الوسط، وهي: السينيغبنية،[31] وبلاد الزنج، وبلاد النوبة، وبلاد الحبشة، واثنتان في الجنوب، وهما: بلاد غينيا،[32] وبلاد كفريرية، فهذا ما يسمى الآن عند الافرنج بلاد افريقية، وان كانت افريقية في الاصل بلدة معلومة جهة تونس، وبلادها ما حواليها، ثم اضيف الى بلاد اوربا ما قاربها من الجزائر، وكذلك لبلاد آسيا وافريقية.

وهذه الاقسام الثلاثة ، يعني اوربا وآسيا وافريقية تسمى الدنيا القديمة ، او الارض القديمة ، يعني المعروفة للقدماء .

واما بلاد الامريكة ، او امريكية ،[33] فهي تسمى الدنيا الجديدة ، وتسمى ايضا الهند الغربي ، وتسمى بالعربية : عجائب المخلوقات ، وهي انما عرفت للافرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الاندلس واخراج العرب منها ، وتتصل بلاد الامريكة بستة بحور ، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المتجمد ، وبحر يافين ، ومن جهة الشرق ببحر الظلمات ، وببحر جزائر الانتيلة ، وبالبحر المحيط الاكبر المسمي اقيانوس ، وبحر بهرنغ جهة الغرب ، وهي قسمان ، الامريكية الشمالية ، والامريكية الجنوبية ، فالامريكة الشمالية ستة اراض اصلية ، وهي : الامريكة الروسية ، او المحكومة بالموسقو ، وبلاد اغرونلند[34] ، وبلاد ابرطانية الجديدة[35] ، او بلاد الانجليز الجديدة ، وبلاد الايتازونيا ،[36] وهي الاقاليم المجتمعة ، وبلاد مكسيك ،[37] وبلاد غواتيملا ،[38] والامريكة الجنوبية تسعة اراض ، وهي : بلاد كلنبيا ،[39] وبلاد غيانة ،[40] وبلاد ابريزيلة ،[41] وبلاد بره[42] ، وبلاد بولوية[43] ، المسماة بروا العليا ، وبلاد براغية ،[44] وبلاد بلاطة ، وبلاد شلي ،[45] وبلاد بتاغونيا ،[46] .

واما جزائر البحر المحيط فانها غربي بلاد الامريكة ، وعلى الجنوب الشرقي من بلاد آسيا ، وهي محدودة من سائر جهاتها

بالبحر المحيط ، وهي ثلاثة اجزاء اصلية : النوتازية ،[47] والاستورالية ،[48] والبولينيزية ،[49] ثم بلاد اوربا فيها اربع بنادر اصلية مشهورة بالتجارة : الاسلامبول ، تخت الدولة العلية ، ولوندرة ،[50] تخت بلاد الانكليز ، وباريز ، تخت بلاد الفرنسيس ، ونابلي ، ببلاد ايطاليا .

والبنادر الاصلية ببلاد اسيا اربعة ايضا : بكين ،[51] قاعدة بلاد الصين . وقلقوطا ،[52] قاعدة بلاد الهند ، والتي تحت حكم الانكليز ، وصورة ببلاد الهند ايضا ، ويقال هي التي كانت تسمى المنصورة ، ومباقو ،[53] في بلاد جزيرة يابونيا ،[54] وهي بلاد الفرفور .

والبنادر الاصلية ببلاد الافريقية اربعة : القاهرة ، قاعدة حاكم مصر ، وسنار قاعدة حاكم بلاد النوبة ، والجزائر ، وتونس بلاد المغاربة .

والبنادر الاصلية ببلاد امريكية الشمالية هي : مكسيكو ببلاد مكسيك ، ونويرق[55] في بلاد لابتازونيا ، وفيلادلفيا[56] ، ومدينة وسهنغتون[57] ، واربعة في امريكة الجنوبية ، وهي : ريو جانير[58] ، في بلاد ابريزيلة[59] ، وبنوسيرس[60] ، في بلاد بلاطة[61] ، وليمة[62] في بلاد بروقيطو[63] ، في بلاد غرناطة الجديدة .

وفي بلاد البحر المحيط بندران شهيران ، وهما : مدينة بتاويا[64] ، ومدينة مانيلة ، وبندر جزيرة جاوة .

ثم ان بلاد الافرنج اغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هي بلاد الاسلام بهذه القطعة ، واما بلاد آسيا فانها منبع بلاد الاسلام ، بل وسائر الاديان ، وهي اوطان الانبياء والمرسلين ، وبها نزلت سائر الكتب السماوية ، وهي تتضمن اشرف الاماكن ، والارض المباركة ، والمساجد التي لا تشد الرحال الا اليها[65] ، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الاولين والاخرين ، والصحابة ، وهي منشأ الأئمة الاربعة ، رضي الله تعالى عنهم ، لأن منشأ الامام الشافعي رضي الله عنه «غزة» ، ومنشأ الامام مالك ، رضي الله عنه ، «المدينة» المشرفة ، ومنشأ الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان «الكوفة» ، ومنشأ الامام احمد بن حنبل «بغداد» ، التي كانت ، كما قيل ، في ايام الخلفاء : بالنسبة للبلاد كالاستاذ في العباد . وكلها من بلاد آسيا ، وبها ، يعني ببلاد آسيا العرب ، وهم أفضل القبائل على الاطلاق ، ولسانهم افصح الالسن باتفاق ، وفيهم بنوا هاشم ، الذين هم ملح الارض ، وزبدة المجد ، ودرع الشرف . ومما يدل على فضلها ان بها الاماكن المفضلة ، كالقبلة التي يجب على كل انسان ان يتوجه اليها خمس مرات في اليوم والليلة ، والمدينتان اللتان نزل بها القرآن العظيم . ففضائلها لا تحصى وآثار اهلها لا تستقصى ، قال بعض اهلها :

عطفة يا جيرة العلم يا أهيل الجود والكرم
نحن جيران لذا الحرم حرم الانسان والحسن

نحن قوم به سكنوا وبه من خوفهم أمنوا
وبآيات الكتاب عنوا فائتد فينا أخا الوهن
نعرف البطحا وتعرفنا والصفا والبيت يألفنا
ولنا المعلي وخيف منا فاعلمن هذا وكن وكن
ولنا خير الأنام أب وعلى المرتضى حسب
والى السبطين ننتسب نسبا ما فيه من دخن[66]

ومع ان الاسلام قد تولد فيها ، وانتشر منها الى غيرها ، ففيها جزؤ عظيم باق على الكفر كبلاد الصين وبعض بلاد الهند ، ومنها جزؤ سالك في اسلامه طريق الضلال كروافض العجم[67] .

واما بلاد افريقيةفانها تشتمل على اعظم البلاد ، كبلاد مصر التي هي من اعظم البلاد واعمرها ، وهي أيضا عش الاولياء والصلحاء والعلماء ، وكبلاد المغرب التي اهلها اهل صلاح وتقى وعلم وعمل ، وان شاء الله يمتد بها الاسلام عند كفار السودان بأنفاس ولي النعمة ، حفظه الله تعالى .

وأما أمريكة فهي بلاد كفر ، وذلك انها كانت عامرة في الاصل بهمل عبدة الاصنام ، فتغلب عليها الافرنج لما قويت شوكتهم في الفنون الحربية ، ونقلوا اليها جماعة من بلادهم ، وارسلوا اليها قسيسين فتنصر كثيراً من أهلها ، فالان بلاد امريكة غالبا نصارى ، الا الهمل فيهم وثنيون ، ولم يوجد بها دين الاسلام ، وسببه قوة الافرنج في علم ركوب البحر ومعرفتهم

العلوم الفلكية والجغرافية ورغبتهم في المعادن والتجارات وحبهم للسفر، قال الشاعر :

ان العلا حدثتني وهي صادقة فيما تحدث ان العز في النقل
لو كان في شرف المأوي بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال آخر :

قلقل ركابك للفلا ودع الغواني والقصور
فمحالفوا أوطانهم أمثال سكان القبور
لولا التغرب ما ارتقت درر البحور الى النحور

وقال الحريري[68] :

لجوب البلاد مع المتربه أحب الي من المرتبه

وقال غيره :

قم واغترب في البلاد مجتهدا فمن ثوي في بلاده هانا
كبيدق[69] لا يزال محتقراً حتى اذا سار صار فرزانا[70]

وقال :

أنفق من الصبر الجميل فانه لم يخش فقراً منفق من صبره
والمرء ليس ببالغ في أرضه كالصقر ليس بصائد في وكره

ومن المعلوم ان الدر والمسك لا يشرفان مالم يفارقا وطنهما ومعدنهما . وكل هذا لا ينافي ان حب الوطن من شعب الايمان ،

لان المقصود السياحة والاخذ في اسباب طلب الرزق ، وهذا لا يمنع من تعلق الانسان بوطنه ومسقط رأسه ، فان هذا امر جبلي ، قال الشاعر :

يا بعيد الدار عن وطنه مفرداً يبكي على شجنه
كلما جد الرحيل به زادت الاسقام في بدنه

وقال غيره :

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكي على فننه
شفه ما شفني فبكى كلنا يبكي على سكنه

ولا ينافي هذا الامر مادة التوكل والاعتماد على المولى ، كما يفهم من كلام الشاعر في قوله :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى اليه فيعييني تطلبه ولو قعدت اتاني لا يعييني

وقول الآخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعوض للارادات
فما صفى البحر الا وهو منتقص وما تكدر الا في الزيادات

فان هذا معناه التسلية لمن لا يحب الاسفارا ، والنهي عن السفر للطمع .

واما بلاد جزائر البحر المحيط فانها قد فتح كثير منها بالاسلام كجزيرة جاوه ،(71) فان اهلها مسلمون ، وبالجملة ،

فبلاد النوتازية اغلبها اسلام ، وندر وجود دين النصرانية فيها . ومن ذلك كله تعلم انه يمكن ان اقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها عن بعض ؛ يعني تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه ، بحسب مزية الاسلام وتعلقاته ، فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع ، ثم افريقية لعمارها بالاسلام والاولياء والصلحاء ، خصوصاً باشتمالها على مصر القاهرة ، ثم تليها بلاد اوربا ، لقوة الاسلام ووجود الامام الاعظم امام الحرمين الشريفين ، سلطان الاسلام فيها ، ثم بلاد الجزائر البحرية ، لعمارها بالاسلام ايضا ، مع عدم تبحرها في العلوم كما هو الظاهر ، فأدنى الأقسام بلاد امريكة ، حيث لا وجود للاسلام بها ابدا . هذا ما يظهر لي ، والله أعلم بالصواب . وهذا كله بالنظر للاسلام والامور الشرعية والشرف الذاتي ، فان المراد بالشرف ما يعم الشرعي وغيره ، فلا يقال ان اغلب ذلك من باب المزية ، وهي وحدها لا تستدعي افضلية ، ولا ينكر منصف ان بلاد الافرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكمية واعلاها في التبحر . من ذلك بلاد الانكليز والفرنسيس والنمسا ، فان حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطاطاليس ،[72] وافلاطون ،[73] وبقراط ،[74] وامثالهم ، واتقنو الرياضيات والطبيعيات والالهيات وما وراء الطبيعيات اشد اتقان ، وفلسفتهم اخلص من فلسفة المتقدمين ، لما انهم يقيمون الادلة على وجود الله تعالى وبقاء الارواح والثواب والعقاب ، فأعظم مدائن الافرنج مدينة «لوندرة» ، وهي كرسي

الانكليز ، ثم «باريز» ، وهي قاعدة ملك فرنسا ، وباريز تفضل على لوندرة بصحة هوائها ، كما قيل ، وطبيعة الاهل ، وبقلة الغلاء التام ، واذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيها وحظهم وانبساطهم مع اهلها ، فالغالب على اهلها البشاشة في وجوه الغرباء ومراعاة خاطرهم ، ولو اختلف الدين ، وذلك لأن اكثر اهل هذه المدينة انما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، او فرقة من الاباحيين الذين يقولون ان كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، فاذا ذكرت له دين الاسلام في مقابلة غيره من الاديان اثني على سائرها من حيث انها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واذا ذكرته له في مقابلة العلوم الطبيعية قال : انه لايصدق بشيء مما في كتب اهل الكتاب لخروجه عن الامور الطبيعية . وبالجملة ففي بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الاديان ، فلا يعارض مسلم في بنائه مسجدا ، ولا يهودي في بنائه بيعة ، الى آخره ، كما سيأتي في ذكر سياستها . ولعل هذا كله هو علة تخصيص ولي النعمة لها بارساله فيها ابلغ من اربعين نفسا لتعلم هذه العلوم المنقودة ، بل سائر ممالك النصارى تبعث ايضا اليها ، فيأتي اليها من بلاد امريكة وغيرها من الممالك البعيدة ، وقد بعث حفظه الله عدة للعلوم ببلاد الانكليز ، لكنهم ليسوا عديدين ، وبالجملة ، فسائر الامم تطلب العز وتسعى إليه ، كما قال الشريف الرضي :(☆)

اطلب العز فما العز بغال ☆ ولا اعز من العلوم والفنون ، تطلبها الملوك ، فانه كلما كان الملك اجل خطرا وجب ان يكون أدق نظرا .

4 - في ذكر رؤساء هذه السفرة

قد بعث صاحب السعادة في السفر الى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من اكابر ديوانه السعيد ، وجعلهم أرباب نظر على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب ، فأولهم : صاحب الرأي التام ، والمعرفة والاحكام ، حائز فضيلتي السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم ، حضرة جناب عبدي افندي ، المهردار ، والثاني : صاحب الرأي السديد ، والطالع السعيد ، من خلع في حب المعالي العذار ، حضرة مصطفى مختار أفندي ، الدويدار ، والثالث : الحاوي بين العلم والعمل ، واليراع والاسل ،[75] حضرة الحاج حسن أفندي الاسكندراني ، بلغه الله في الدارين الاماني ، آمين .

ثم أن حضرة الأفندية الثلاثة يتعلمون ايضا كالباقي ، فحضرة الافندي المهردار ، سابقا ، يشتغل بعلم تدبير الامور الملكية ، وحضرة الافندي الدويدار ، سابقا ، يشتغل بعلم تدبير الامور العسكرية ، وحضرة الحاج حسن افندي يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية . ولسائر الثلاثة اجتهاد زائد ، وتحصيل بالغ ، مع ان الامرة في الغالب تأنف ذلك . وقد كان حكم هؤلاء

الثلاثة بالنوبة ، فكانت نوبة الواحد يوما والاخر يوما آخر ، وهكذا ، فأل الامر الى ان صارت شهرا شهرا ، ثم صار الأفندي المهردار وحده ، ثم ان حضرة الافندية الثلاثة كان معهم في تدبير الدروس جناب مسيو «جومار» ، الذي ولاه صاحب السعادة ناظرا على الدروس ، وهو احد علماء «الانستتوت» ،[76] اي مشورة العلوم ، واكابرهم ، والذي يتراءى في طبعه حب حضرة صاحب السعادة وخدمته بنصح ، ويشاهد منه دائما أنه يرغب في الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها ، بل وفي سائر بلاد الافريقية ، كما يفهم ذلك من حاله ومما قاله في طالعة[77] رزنامته[78] التي ألفها سنة ألف ومائتين وأربعة واربعين من الهجرة ،[79] وشهرة معارف مسيو «جومار» وحسن تدبيره يوقع في نفس الانسان من اول وهلة تفضيل القلم على السيف ، لانه يدبر بقلمه مالا يدبر غيره بسيفه الف مرة ، ولا عجب فبالاقلام تساس الاقاليم ، وهمته في مصالح العلوم سريعة كثيرة التأليف والاشتغال ، والغالب ان هذه الخصلة في سائر علماء الافرنج ، فان مثل الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد اذا ترك ارتكبه الصداء ، وجناب مسيو «جومار» يشتغل بالعلوم آناء الليل واطراف النهار ، وسيأتي ذكره عدة مرات ، وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التي وصلت بيدي ، ان شاء الله تعالى . وهنا انتهت المقدمة .

(المقصد)

في مدة السفر من مصر الى باريس ، وما رأيناه من الغرائب في الطريق ، ومدة الاقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون ، والعدل العجيب ، والانصاف الغريب ، الذي يحق ان يكون من باب اولى في ديار الاسلام وبلاد شريعة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات تشتمل على عدة فصول[80] ....

(1) احد معانيها : الظهور .

(2) أي علماء الفلك الذين يشتغلون – ضمن ما يشتغلون – بحسابات المواقيت الخاصة بالعبادات .

(3) يذكر ابن النديم في (الفهرست) عددا من التراجمة بهذا الاسم ، منهم «اصطفن القديم» الذي ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة (ص 248 ، 249) و«اصطفن الراهب» (ميخائيل) الموصلي ، (ص 359) وكذلك «اصطفن بن باسيل» وهو من تلامذة حنين بن اسحق ، وله سبق في ترجمة كتب الطب الى العربية .

(4) هو فيلادلفوس ، اي المحب لاخته (208 – 246 ق . م) احد حكام مصر في عهد البطالة .

(5) (1547 – 1622 م) عالم وأديب وشاعر ، شيعي ، واد بيعلبك ، وتنقل وعاش بايران ومصر والشام وفلسطين ، وله اثار مطبوعة واخرى مخطوطة ، ولقد ألف في الفارسية الى جانب تأليفه بالعربية .

(6) «ايلجي» كلمة تركية ، الاصح فيها : «ألجي» ، ومقطعها الأول – «ال» – يعني السلم أو التحالف ، والثاني – «جي» – يعني رسول السلام او سفير او وزير مفوض . انظر هذه المادة في دائرة المعارف الاسلامية . المطبعة العربية ، الثانية .

(7) من مباحث الكيمياء القديمة ، كانوا يزعمون أن مثله كمثل اكسير الحياة في القدرة على احالة المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، واعادة الشباب الى الانسان .

(8) اي قارات .

(9) بضم الهمزة والراء ، وتشديد الباء . (الطهطاوي) .

(10) بكسر السين . (الطهطاوي) .

(11) اي استراليا .

(12) بضم الخاء والزاي . (الطهطاوي) .

(13) بضم الباء ، وفتح الغين . (الطهطاوي) ،

(14) بكسر النون وفتح الميم وسكون الراء . (الطهطاوي) .

(15) بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الواو . (الطهطاوي) .

(16) بفتح الفاء واللام والميم وسكون النون . (الطهطاوي) .

(17) بضم السين الاولى مع التشديد وكسر الواو . (الطهطاوي) .

(18) بضم الباء . (الطهطاوي) .

(19) بكسر الجيم وسكون الراء وكسر النون . (الطهطاوي) .

(20) بضم الباء وسكون الشين . (الطهطاوي) .

(21) بالباء او الفاء . (الطهطاوي) .

(22) بضم الباء وسكون الغين . (الطهطاوي) . والافلاق والبغدان هما الآن في رومانيا .

(23) بكسر الباء وسكون الهاء وفتح الراء وسكون النون ، وبالغين او الكاف . (الطهطاوي) . وهو بين شبه جزيرة الاسكا والقارة الآسيوية .

(24) بكسر السين والباء . (الطهطاوي) .

(25) بضم الباء وسكون السين . (الطهطاوي) .

(26) بكسر اللام وسكون السين . (الطهطاوي) .

(27) بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الغين وكسر النون وسكون السين : (الطهطاوي) .

(28) بكسر النون . (الطهطاوي) .

(29) المراد ببلاد الوهابية : نجد .

(30) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح اللام وسكون النون . (الطهطاوي)

(31) بكسر السين والنون وفتح الغين المعجمة وسكون النون وكسر الياء ، (الطهطاوي) .

(32) بالغين المكسورة او الكاف . (الطهطاوي) .

(33) بالكاف او القاف . (الطهطاوي) .

(34) بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة ، ثم راء مضمومة يليها واو مفتوحة ثم نون ساكنة فلام مفتوحة فنون ساكنة ثم دال مهملة . (الطهطاوي) .

(35) بكسر الهمزة وسكون الباء وكسر الراء والنون (الطهطاوي) .

(36) بكسر الهمزة والنون . (الطهطاوي) .

(37) بفتح الميم وسكون الكاف وكسر السين . (الطهطاوي) .

(38) بضم الغين وفتح الميم . (الطهطاوي) .

(39) بضم الكاف واللام وسكون النون وكسر الباء . (الطهطاوي) .

(40) بكسر الغين . (الطهطاوي) .

(41) بسكون الباء . (الطهطاوي) .

(42) بكسر الباء وضم الراء . (الطهطاوي) .

(43) بضم الباء وسكون الواو الاولى وكسر الثانية . (الطهطاوي) .

(44) بفتح الباء . (الطهطاوي) .

(45) بكسر الشين وتشديد اللام المكسورة . (الطهطاوي) .

(46) بفتح الباء والتاء وضم الغين وكسر النون . (الطهطاوي) .

(47) يضم النون المشددة وكسر الزين وتشديد الياء المفتوحة . (الطهطاوي) .

(48) يضم الهمزة وسكون السين وضم التاء وكسر اللام . (الطهطاوي) .

(49) يضم الباء وكسر اللام والنون والزين . (الطهطاوي) .

(50) يضم اللام وسكون النون وفتح الدال . (الطهطاوي) .

(51) بكسر الباء والكاف . (الطهطاوي) .

(52) بفتح القاف واللام وضم القاف . (الطهطاوي) .

(53) بضم الباء والتاء وضم الغين وكسر النون ، (الطهطاوي)

(54) بضم الباء وكسر النون . (الطهطاوي) .

(55) بضم النون والياء وسكون الراء . (الطهطاوي) .

(56) بكسر الفاء والدال وسكون اللام وكسر القاف وفتح الياء . (الطهطاوي) .

(57) بسكون السين وكسر الهاء ثم نون ساكنة بعدها غير مكسورة . (الطهطاوي) .

(58) بكسر الراء وضم الياء وكسر النون . (الطهطاوي) .

(59) بكسر الباء والراء . (الطهطاوي) .

(60) بفتح الباء وكسر السين والراء . (الطهطاوي) .

(61) بفتح الباء . (الطهطاوي) .

(62) بكسر اللام . (الطهطاوي) .

(63) بكسر القاف وسكون الياء وضم الطاء . (الطهطاوي) .

(64) بفتح الباء . (الطهطاوي) .

(65) وهي مساجد مكة والمدينة والقدس ، اشارة الى حديث مروي في ذلك عن الرسول عليه السلام .

(66) الدخن : من معانيه الخبث والفساد والمكر والتغير .. الخ .. الخ ...

(67) يريد الطهطاوي بروافض العجم الشيعة الامامية .. ولكن تعبير الروافض لا يطلق عليهم – اذا شئنا الدقة – هكذا باطلاق ... فالرفض في التشيع يعني في الاغلب الغلو ، ولذلك خصوه بالفرق التي غلت في الامام علي بالتالية وما اشبهه ، كما ان البعض قد اطلق هذا التعبير على الذين رفضوا امامة زعيم الشيعة الزيدية «زيد بن علي» ، كما يطلقه البعض على الشيعة الذين رفضوا الاعتراف بشرعية امامة أبي بكر وعمر . انظر الدراسة التي قدمنا بها للجزء الاول من (رسائل العدل والتوحيد) ص 51 طبعة القاهرة سنة 1971 م .

(68) هو الحريري القاسم بن علي صاحب المقامات المشهورة بمقامات الحريري (1054 – 1122 م) .

(69) البيدق : طائر من الجوارح .

(70) الفرزان هي الملكة في لعبة الشطرنج ، وهي كلمة من الكلمات الدخيلة على العربية .

(71) بفتح الواو . (الطهطاوي) .

(72) عاش من سنة 384 حتى سنة 322 ق . م .

(73) عاش من حوالي سنة 427 حتى سنة 347 ق . م .

(74) عاش من سنة 460 حتى سنة 370 ق . م.

(75) نبات دقيق الأغصان وطويلها ، ويطلق اللفظ أيضا على الرمح والسيف والسكين .

(76) بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السين . (الطهطاوي) . وهي الكلمة الفرنسية : [L'Institut]

(77) مقدمة .

(78) الرزنامة هي التقويم .

(79) وتوافق سنة 1828 م .

(80) هنا عدد الطهطاوي مقالات كتابة فإذا هي أربعة .. وهو ما يغاير الواقع الذي تطور اليه الكتاب ، فلقد كان كذلك عند وضعه بباريس ، ثم بلغ ست مقالات وخاتمة بعد عودته الى مصر .. ولقد أثرنا ان نصدر كل مقالة بالنبذة التي كتبها تعريفا بها في هذا المكان .

المقالة الأولى

﴿فيما كان من الخروج من مصر الى دخـول مـــدينـــة مرسيليا ، التي هي فرضة من فرضات الفرنسيس .
وفيها عدة فصول .﴾

الفصل الأول

في الخروج من مصر الى دخول ثغر الاسكندرية

كان خروجنا من مصر يوم الجمعة ، الذي هو ثامن يوم من شعبان سنة احدى وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة[1] المحمدية ، على صاحبها افضل الصلاة والسلام . فتفاءلت بان عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع ، وان التسليم سيقوم مقام الوداع ، فركبنا زوارق صغيرة وتوجهنا الى اسكندرية ، واقمنا على ظهر النيل المبارك اربعة ايام ، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التي رسينا عليها . وكان دخولنا اسكندرية يوم الاربعاء ، ثالث عشر يوما[2] من شهر شعبان ، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما في سراية ولي النعمة . وكان خروجنا الى البلد في هذه المدينة قليلا ، فلم يسهل لي ذكر شيء عنها ، غير أنه ظهر لي انها قريبة الميل في وضعها وحالها الى بلاد الافرنج ، وان كنت وقتئذ لم ار شيئا من بلاد الافرنج اصلا ، وانما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر ، ولكثرة الافرنج بها ، ويكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شيء من اللغة الطليانية ، ونحو ذلك ، وتحقق ذلك عندي بعد وصولي الى

مرسيليا ، فان اسكندرية عينة مرسيلية وأنموذجها ، (ولما ذهبت اليها سنة 62[3] وجدتها قطعة من أوربا .)[4] .

(1) وتوافق سنة 1826 م .

(2) صوابها اللغوي : الثالث عشر .

(3) اي سنة 1262 هجرية ، وهي توافق سنة 1846 م .

(4) هذه الجملة أضافها الطهطاوي في طبعة الكتاب الثانية التي صدرت سنة 1849 م . ومعلوم ان طبعته الاولى صدرت سنة 1834 م . ولقد تضمنت طبعتنا هذه كل الاضافات التي ضمنها الطبعة الثانية لكتابه والتي لم توجد في الطبعة الاولى ولا الثالثة ، حيث ان الطبعة الثالثة الصادرة سنة 1905 م قد جاءت اقرب الى الطبعة الاولى منها الى الثانية .

الفصل الثاني

في ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته

فنقول : ان اسكندرية منسوبة الى اسكندر[1] ابن الفيلسوف وهو الذي قتل دارا وملك البلاد ، «والاسكندرية ستة عشر بلدا ،[2] منسوبة اليه بلدة ببلاد الهند ، وبلدة بأرض بابل ، وبلدة بشاطىء النهر الاعظم ، وبلدة بصفد سمرقند ، وبلدة بمرو ، واسم لمدينة بلخ ، والثغر الاعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماة وحلب ، وقرية على دجلة قرب واسط ، ومنها الاديب احمد بن المختار بن مبشر ، وقرية بين مكة والمدينة ، وبلدة في مجاري الانهار بالهند ، وخمس مدن اخر» . انتهى .

ومرو بلدة من خراسان ببلاد الفرس ، والنسبة اليها مروي ومروزي . وانظر ما مرداه بالنهر الاعظم ؟؟ ثم رأيت في كتاب (تقويم البلدان) لعماد الدين أبي الفدا[3] اسماعيل بن ناصر ، سلطان حماه : ان بالاندلس نهرا يسمى بالنهر الاعظم ، وهو نهر اشبيلية ونص عبارته : «ومنها نهر اشبيلية من بلاد الاندلس ، ويسمى عند اهل الاندلس النهر الاعظم .» انتهى . ولعله انما سمي عندهم بالنهر الاعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر ، كما نبه

على ذلك ابو الفدا في قوله : «يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الارحا – لا تزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر صاعدة مع المد ، وقال بعضهم في المد والجزر :

خليلي بـــادر بي الى النهر بكرة   وقف منه حيث المد يثني عنانه
ولا تجز الارحا فان وراءها   يبابا وعيني لا تريد عيانه

انتهى .

فعلى هذا تكون اسكندرية اسم بلد بالاندلس ، ولعل اسكندر حين اجتيازه بجزيرة الاندلس بنى بها بلدة .

وذكر صاحب كتاب (نشق الازهار في عجائب الاقطار)[4] ان اسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الاندلس ، وفتح بها «بغاز» حبل الطارق ، المسمى بحر الزقاق ، وان محل هذا «البغاز» كان ارضا بين طنجة وبلاد الاندلس ، ولم يذكر في هذا الموضع ان اسكندر بنى بلدة بهذه الجزيرة ، لكن هذا لايدل على عدم وجود بلدة بها . وظاهر عبارتهم انه يوجد اثنان كل منهما يسمى الاسكندر احدهما اسكندر بن فيلسوف ، والآخر بفتح الهمزة هو قاتل دارا ، وقال في القاموس في موضع آخر : «ذو القرنين اسكندر الرومي ، لانه لما دعاهم الى الله تعالى ضربوه على قرنه ، فأحياه الله تعالى ، ثم دعاهم فضربوه على قرنه الآخر ، فمات ، ثم أحياه الله ، او لانه بلغ قطري الارض ، او لضفيرتين له» . انتهى . فظاهر كلامه ان اسكندر ذا القرنين هو نفس اسكندر الرومي .

والذي عليه علماء الشرق ان ذا القرنين المذكور في الآية الشريفة هو غير اسكندر اليوناني ، فان الاول أقدم من الثاني ، وهو الذي قيل بنبوته ، وانه بنى سد يأجوج ومأجوج ، وانه بحث عن ماء الحياة بلا طائل ، وفاز به الخضر ، عليه السلام ، فلذلك كان حيا الى الآن . واما الثاني فانه يسمى اسكندر الرومي او اليوناني ، يعني الاغريقي ، لان قدماء الاغارقة تسمى : اليونان ، والمتأخرون يشتهرون باسم الاروام .

واما الافرنج فلا يقولون الا بوجود اسكندر الاكبر بن فليبش ، ، او ابن فيلبوش ، المقدوني ، ويجعلونه عين ما يعبر عنه في التواريخ العربية باسم اسكندر ذي القرنين ، وينسبون اليه سائر ما يحكى عنه من العجائب ، كسد يأجوج ومأجوج ، ونحو ذلك ، غير انهم لا يصدقون بما لا يوافق العادة .

وعلى كل حال فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الافرنج على ان اسكندرية تنسب إلى اسكندر الرومي ، وقد سلف في عبارة القاموس اسماء البلاد التي تسمى باسكندرية ، وليس مما ينسب الى اسكندر الرومي الشهير بلدة الارناؤط المسماة «اسكندر ياسي» ، يعني اسكندرية ، بل هي منسوبة الى اسكندر بيك . وقال بعضهم : مدينة اسكندرية ببر مصر كانت تسمى قبل بناء الاسكندر لها بنحو ثلاثمائة واثنين قبل ظهور عيسى عليه السلام قيسون[5] . وقال الافرنج : انها كانت تسمى «نو»[6] وقبل فتحها بالاسلام كانت تارة تحت حكم الرومان وتارة تحت حكم الاروام

او اليونـان ، وفتحهـا عمرو بن العـاص بـأمر عمر بن الخطـاب ، ولما فتحها عمرو بن العـاص كتب إلى عمر ، رضي الله عنهما ، انـه وجد بهـا اربعـة الاف قصر ، واربعـة آلاف حمـام ، وأربعين ألف يهودي تـدفع الجزيـة ، وأربعمائـة ميـدان ، واثنى عشرة ألف بقل وخضري وفاكهاني ، ولعل هذا من مبالغات المؤرخين ، كما بـالغوا في غيرها من البلاد ، كمدينة بغداد . ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص ،[7] ، رضي الله تعالى عنـه ، فكانت عدة مـا فيهـا من الكتب سبعمائـة الف مجلـد ، وقـد كان اهل هذه المدينة في سـالف الزمـان ثلثمائـة ألف نفس تقريبـا ، واهلها الآن أقل من ذلك بكثير ، وقد تغلب عليهـا الفرنسيس ثم اخرجهم الانكليز منها ورجعت الى يد الاسلام ، وهي الآن تلوح عليهـا انـوار العمارات بـأنفـاس صـاحب السعـادة ، وبهـا بهجـة التجـارة ، كما انهـا كانت في الـزمن السـابـق مركـزا للتجـارات ، وصارت في هذا دار اقامة صاحب السعـادة بهـا اغلب الاوقـات ، وهي اشبـه وضعـا وعمـارة بفرضـات الافرنـج وهي على الشمال الغربي من القـاهرة بنحو خمسين فرسخـا ، مـوضـوعـة في احـدى وثلاثين درجة وثلاثة عشر دقيقة من العرض ، يعني درجة البعـد عن خط الاستواء ، وسيأتي ذكر المسافة بينها وبين باريس .

(1) بفتح الهمره . (الطهطاوي) . وصواب الاسم : اسكندر بن فيلبش .

(2) انظر (مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع) لصفي الدين البغدادي . جـ 1 تحقيق على البيجاوي . طبعة القاهرة سنة 1954 م .

(3) امير عربي ، ومؤرخ جغرافي (1273 – 1331 م) وهو صاحب (المختصر في تاريخ البشر) . تولى حكم «حماة» بسوريا ، وشارك في قتال الصليبيين .

(4) هو المؤرخ ابن أياس ، محمد بن احمد (1448 ـ 1524 م) صاحب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) .

(5) بفتح القاف وسكون الياء . (الطهطاوي) .

(6) بضم النون . (الطهطاوي) .

(7) قول الطهطاوي ترديد لرواية تاريخية ، وكاذبة ، فكل المؤرخين القدامى الذين ارخوا للفتح العربي لمصر لم يذكروا حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، ولقد قام المؤرخ الانجليزي «بتلر» بتنفيذ هذه القربة في كتابه (فتح العرب لمصر) انظر طبعة القاهرة العربية . ترجمة محمد فريد أبو حديد .

الفصل الثالث

في ركوب البحر المالح المتصل بثغر الاسكندرية

اعلم أن هذا البحر يسمى في كتب الجغرافيا العربيـة بحر الروم ، لانه يتصل احد جهاته ببلاد الروم ، ويسمى ايضـا فيهـا بحر الشـام ، لمجـاورتـه ايضـا لبـلاد الشـام ، ويسمى ايضـا عنـد الافرنج البحر المتوسط ، او الجواني ، وانما سمي بذلك لانـه داخل الاراضي الناشفـة ،[1] بخلاف البحر المحيـط ، فـانـه محيـط بجميع الاراضي ، حتى قال بعضهم : انه متواصل الجريـان تحت الاراضي العـاليـة على سطـح مـائـه ! وان حقـق بعضهم خـلافـه ، لوجودالاراضي اليـابسـة تحت سطحـه ، كبعض اراضي الموسقـو ، ويسمى هذا البحر الجواني باللسان التركي بحر «صغيـد» ، لمقـابلتـه بحر «بنطش» ، او البحر الاسود ، وهناك بحر آخر يسمى بـالبحر الابيض وهـو في بـلاد المـوسقـو ، وهـو المراد بـالبحر الابيض في اطلاقات علماء الجغرافيا .

كان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الاربعاء ، خـامس من يوم رمضان ، وقـد امتطينـا سفينـة حرب فرنسـاويـة ، لا تغـادر في فؤاد الانسان رعبا ! ورزينـة صنـاعـة تجـذب قلب الراكب حتى

يصير في وسطها صبا ، محتوية على سائر ما يحتاج اليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب وعلى الجربجية ،[2] ومحصنة بثمانية عشر من المدافع ، وكان مجراها يوم الخميس ، سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا ، فسرنا من غير اشعار بالسير ، ولم نتألم بذلك ابدا ، وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لي بعض من سافر من العلماء الى اسلامبول ، من تجرع حثوات[3] عظيمة من ماء البحر المالح ، وقال : انه يدفع المه ، فكان الواقع انه لم يحصل لى الم ، على اني حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة : ☆ وربما صحت الاجسام بالعلل ☆ ولا زلنا نسير من غير شدة تحرك واضطرب نحو اربعة ايام ، وبعدها عصفت الرياح ، وتموج ماء البحر ، وتلاعب بالاشباح والارواح ، فلازم اكثرنا الارض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض ، ووقع عندنا الموقع قول بعض الظرفاء : خاطر من ركب البحر ، واشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة ! ، وتحقق عندنا تضمين صاحبنا العلامة الصفتي لهزل ابي نواس في قوله :

رأيت جميع الهائلات محيطة   بوطي لأجل الحمل جارية البحر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينة   ولا سرت طول الدهر الا على الظهر

غير ان المعتمد على الكريم لا يخشى من الخطب العظيم ، وما احسن قول من قال :

لمـــــــا ركبنـــــــا ببحر وكاد من خـــــــــاف يتلف
على الكريم اعتمـــــدنـــــا حـــــاشـــــاه ان يخلف

وقد ذهب هذا الامر بعد نحو ثلاثة ايام ، وصار يزور غبا .

ومما يستحسن في طباع الافرنج ، دون من عداهم من النصارى ، حب النظافة الظاهرية ، فان جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبطة مصر من الوخم والوسخ اعطاه للافرنج من النظافة ، ولو على ظهر البحر ، فان اهل المركب التي كنا فيها يحافظون على تنظيفها واذهاب الوسخ ما امكن ، حتى انهم يغسلون مقعدها كل يوم من الايام ، ويكنسونها في صف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشممونها رائحة الهواء ، ويزيلون اوخامها ، مع ان النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ! ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فانهم لا يعدون انفسهم من الامم كثيرة الاعتناء بالنظافة ، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب (العوائد والاخلاق) المؤلف باللغة الفرنساوية ، وعبارته : «اعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل اهل الفلمنك ، فتجد في مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الابيض ، المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم مجملة من خارجها ايضا ، وشبابيكهم القزاز تغسل دائما ، بل وحيطانهم الخارجة ، وقد توجد النظافة في حصة من بلاد الانكليز ، وببلاد الاقاليم المجتمعة من امريكة ، وهي قليلة في

فرنسا والنمسا وغيرهما ، ومن الامم من هي كثيرة الاتساخ وكثيرة القمل ، بل نجد بعض اناس يأكلهم القمل ولا يبالون ، وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الاقمصة البيض التي تغسل ويغير بها كل اسبوع مرة او عدة مرات ، فالملابس البيض من جملة ما انتج النظافة والسلامة من آثار الاوساخ الرديئة» . انتهى .

(1) اي اليابسة .
(2) لعلهم الحاملون للجرابات – الجبخانات – المحتوية على ذخائر آلات الحرب .
(3) اي حسوات ، وهذا هو صوابها .

الفصل الرابع

فيما رأينا من الجبال والبلاد والجزائر

وقد مررنا على جزيرة كريد سابع يوم من سفرنا ، ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان ايدا ، الشهير بالامور الغريبة في تواريخهم ، ثم في اليوم الثالث عشر منه رأينا جزيرة سيسيليا ،[1] وهي مشهورة باللسان العربي باسم صقالية او صقلية ، وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد ايطاليا ، ومنفصلة عنها بالبغاز المسمى بوغاز مسينة ،[2] وهي من اعظم جزائر البحر المتوسط واخصبها ، ولذلك كانت تسمى في الزمن السابق «شونة رومة» ، وكانت في الاعصر السالفة سببا لحرب الرومانيين مع اهل قرطاجة ، اي سكان الغرب ، ثم انتهى الامر الى انها وقعت تحت حكم الرومانيين ، ثم انتقلت منهم الى ملوك اليونان ، ثم فتحها المسلمون ، ثم تغلب النصارى النرمندية ،[3] فرقة من الفرنساوية ، ثم حكمها بعض ملوك الاسبانيول ، ثم النيمسا ، ثم انتهى الامر الى ان كانت جزءا من مملكة نابلي الكنان المسماة بولية حتى انها هي ونابلي قد يسميان الآن عند الافرنج السيسلتين بتغليب سيسليا على نابلي ، وفي كتب

الجغرافيا ان اهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ومدتها فوق الجبال ، وقد رأينا بهذه الجزيرة ، على بعد ، في اليوم الرابع عشر ، الجبل المسمى منتثنا ،[4] ومنتثنا كلمة مركبة من كلمتين ، احداهما «منت» ، معناها جبل والاخرى «اثنا» ، فالاحسن كتابتها هكذا منت اثنا ، وهو مشهور الآن بلفظه جيل ، ويظهر لي ان هذا الاسم تحريف جبل ، فهو عربي ادخله المسلمون في هذه الجزيرة واطلقوه على هذا الجبل فبقي بعد خروجهم الى الآن وتغير بتصحيف اهل هذه الجزيرة له ، وهذا الجبل جبل نار ، فانه يخرج منه بالنهار دخان وبالليل لهب وقد يقذف مواد حجرية محترقة ، ثم ان جبال النار تسمى بالافرنجية الجبال البلكانية ، ويسمى الجبل الناري بلكان ،[5] وقد صحف هذا الاسم بالعربية الى لفظه بركان بالراء ، ولعله تعريب عن لغة اهل الاندلس ، ويسمى طهمه ،[6] كما ذكره المسعودي في كتابه المسمى (مروج الذهب) ، وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية كراتيره ،[7] ولا يوجد جبل النار غالبا الا في الجزائر ، وقد ذكر ارباب رصد هذا الجبل ان ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط الف وتسعمائة قدم وثلاثة اقدام ، وان دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنساوية ، ودائرة فوهته ربع فرسخ ، ثم ان العادة ان جبل النار يهيج ثم يسكن ثم يهيج ، وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ثم يهيج ثانيا بعد مدة اعصر ، وقد هاج جبل اثنا احدى وثلاثين مرة ، ومنها هيجانه

سنة الف وثمانمائة وتسعة، بتاريخ الافرنج، واعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاثة وتسعين، حيث انه خرب مدينة كابان واهلك ثمانية عشر الف نفس، وعلامة هيجان البركان شدة العجيج والترقعة والدوي تحت الارض، وابتداء التدخين او ازدياده. قال بعض الطبائعية: اننا اذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهي النيران التي تحت الارض او المحتقنة في باطنها، الا ان آثار الزلازل اوسع من آثار البراكين، يعني ان آثار الزلازل تظهر في متسع عظيم من الارض بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد الا بجوار قرب جبل النار، وقد جرت العادة ايضا ان الزلزلة تعظم بقدر البعد من البركان، علل ذلك بعضهم بقوله: ان النار التي تحت الارض تحاول منفسا لتخرج منه، فان كان في الارض بركان فانها تخرج منه فتذهب قوة النار فتفقد الزلزلة، بخلاف الارض الخالية من البراكين فان النيران تحاول منفسا فيها فلا تجده، فترتج الأرض بذلك. وقال بعض الحكماء ايضا: ان كلا من الحوادث البركانية والزلازل صادر عن جاذبية المحاكة المسماة بالفرنساوية الاكتريسته،[8] المسماة الرسيس،[9] التي هي خاصة الكهرباء عند حكها. قال بعضهم، في رد هذا القول: انه ينافي ما اعتمده بعض الحكماء في بناء الارض، ونظم طبقات صخورها، ومن القواعد المقررة ان ثوران البركان يغلب كلما قل علوه، ويقل كلما عظم العلو. وهذا ما جرت به العادة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي اليوم الخامس عشر رسينا على مدينة «مسينة» ، ولم نخرج من السفينة ابدا لانهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية الى بلادهم ان يدخلها الا بعد «الكرنتينة» ، وهي مكث ايام معلومة لا ذهاب رائحة الوباء ، ولكنهم يجيئون الانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن ، فيضعونه في ماعون فيه خل ونحوه مع التحفظ التام ـ راجع (الفصل الأول) من (المقالة الثانية) وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا اليه من الفواكه والخضراوات والمياه العذبة ، الى آخره ، وقد اقمنا «بموردتها»(10) خمسة أيام وشاهدنا ، من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية ، ورأيناها توقد قناديلها ووقدانها قبل ان يدخل وقت الغروب وتمكث بعد شروق الشمس ، وقد سمعنا بها اصوات النواقيس مدة اقامتنا ، حتى ان ضربهم النواقيس مطرب جدا ، وقد صنعت في ليلة من الليالي في المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة مضمونها ثلاثة معان : الاول : المجادلة في أنه لا مانع من ان الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة ، مع العفاف ، وأنشأت في ذلك جملة شواهد لطيفة ، وانشأت فيه قولي :

أصبو الي كل ذي جمال   ولست من صبوتي اخاف
وليس بي في الهوى ارتباب   وانما شيمتي العفاف

الثاني : سكر المحب من معاني خمر عيني محبوبه ، واستغنائه عن الراح براحته ، وانشأت في هذا المعنى قولي :

قد قلت ما بدا والكأس في يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبي نزاهة طرفي في محاسنه ونشوتي من معاني سحر عينيه

الثالث : في تأثر النفس بضرب الناقوس اذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك ، وقد انشدت في هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له من علم الظبي ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمكي ضرب النواقيس؟ ام ضرب النوى؟ قيسي!!

وذيلتها ببعض ابيات مجنسة ، والبحث في معناها ، ونوع تجانيسها ، وبالجواب من بعض الغاز نحوية ، الى آخره ، وليس هذا محل بسط الكلام في ذلك .

ثم سرنا من هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا ، وسرنا حتى حاذينا جبل النار ، وجاوزناه ، وفي الرابع والعشرين جاوزنا مدينة نابلي ، وتسمى باللغة التركية بولية ، وتعديناها بنحو تسعين ميلا فانعكس الريح وصار قدام السفينة هابا من المقصد اليها فصارت تميل عن المقصد لا اليه لانه من جهة الهواء ويعجبني ، قول بعضهم :

ومهفهف عني يميل ولم يمل يوما الي فقلت من ألم النوى
لم لا تميل الى يا غصن النقا فأجاب كيف وأنت من جهة الهوا

وقال الصلاح الصفدي :

تقول لـه الاغصـان اذ هـز عطفـه اتـزعم أن اللين عنـدك قـد ثـوى ؟
فثم نحتكم الى الروض عنـد نسيمـه ليقضي على من مال منـا مع الهوى

فبانعكاس الريح رجعنا الى مدينة نابلي بعد أن جاوزناهـا ، ورسينا عندها ، ولم نـدخلهـا لما تقـدم وهي من المـدن العظمى ببلاد الافرنج ، وملكها يحكم على بلاد جزيرة صقليـة المتقـدمـة ، ومدينة نابلي هي كرسي هذا الملك ، وقد تسمى بـاللغـة العربيـة نابل الكتان ، ولعله لان كتانها جيد للغايـة ، وقـد كانت مملكـة نابلي في يـد الاسلام ومكثت نحو مـائتي سنـة ، ثم تغلبت عليهـا النصـارى النورمنـديـة هي وممكلـة صقليـة ، ولم تزل الى الآن في ايـدي النصـارى الايطـاليـانيـة ، حتى أنهـا تسمى بـلاد ايطـاليـا الجنوبية ، وقد اسلفنا ان مدينة نابلي هي احدى البنادر الاصلية بالبلاد الافرنجية .

ثم رأينا في اليوم التـاسع والعشرين جزيرة قرسقـة ،[11] التي هي في حكم الفرنسيس ، وتسمى الآن جـزيرة قرس ، وقـد فتحهـا المسلمـون ولم يمكثـوا فيهـا زمنـا طـويـلا ، وهي وطن نـابليـون[12] الشهير بـاسم بـونـابرتـه ، الـذي تغلب على مصر في غزوة الفرنسـاويـة ، ثم تولى سلطنـة فرانسـه ، مـع ان ابـاه كان رئيسا في الطوبجية .

وفي اليـوم الثـالث والثـلاثين رسينـا على فرضـه مرسيليـا ، فكانت مدة مكثنا في البحر ثلاثـة وثلاثين يومـا ، ومنهـا مكثنـا خمسة أيـام قـدام مسينـة ،[13] ونحو يوم قـدام نـابلي ، وتـأخرنـا

كثيرا بلعب الرياح ، ولو لا ذلك لوصلنا في اقل من هـذه المـدة بشيء يسير .

(1) بكسر السين واللام وبالمهملتين ، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين . (الطهطاوي) .

(2) بفتح الميم وتشديد السين المكسورة المهملة وسكون الياء وفتح النون . (الطهطاوي) .

(3) بضم النون المشدودة وسكون الراء وفتح الميم وكسر الدال وفتح الياء المشددة . (الطهطاوي) .

(4) بفتح الميم وسكون النون وكسر التاء الفوقية وسكون الثاء المثلثة . (الطهطاوي) .

(5) بضم الباء الموحدة وسكون اللام . (الطهطاوي) . من الكلمة الفرنسية (Cratere)

(6) بفتح الطاء وسكون الهاء . (الطهطاوي) .

(7) بكاف وتاء فوقية مكسورتين وفتح الراء الثانية . (الطهطاوي) .

(8) بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء . (الطهطاوي) . من الكلمة الفرنسية (Electricité) .

(9) بفتح الراء المشددة وكسر السين . (الطهطاوي) .

(10) أي ميناثها .

(11) بضم القاف وسكون الراء وضم السين وفتح القاف . (الطهطاوي) .

(12) بضم الباء وسكون اللام وبالياء . (الطهطاوي) .

(13) بفتح الميم وتشديد السين وفتح النون . (الطهطاوي) .

المقالة الثانية

﴿فيما كان من دخول مرسيليا الى دخول مدينة باريس .
وفيها فصلان .﴾

الفصل الأول

(في مدة اقامتنا في مدينة مرسيليا)

قد رسينا على موردة مرسيليا التي هي احدى فرض بلاد فرنسا ، فنزلنا من سفينة السفر في زوارق صغيرة ، فوصلنا الى بيت خارج المدينة معد «للكرنتينة» . على عادتهم من ان من اتي من البلاد الغربية لا بد ان يكرتن قبل ان يدخل المدينة . ولنذكر هنا ماقيل في «الكرنتينة» بين علماء المغرب ، على ما حكاه لي بعض من يوثق به من فضلاء الغرب ، قال : وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعي التونسي المالكي ، المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتي الحنفية العلامة الشيخ محمد بيرم ، المؤلف عدة كتب في المنقول والمعقول ، وله (تاريخ دولة بني عثمان) ، من مبدئها الى السلطان محمود الحالي ، محاورة في اباحة «الكرنتينة» وحظرها ، فقال الأول بتحريمها ، والثاني باباحتها ، بل وبوجوبها ، والف في ذلك رسالة ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة ، وأقام الثاني الادلة على التحريم ، والف رسالة في ذلك جعل اعتماده فيها على الاستدلال على ان «الكرنتينة» من جملة الفرار من القضاء ، ووقعت بينهما محاورة ايضا نظير هذه

في كروية الارض وبسطها ، فالبسيط للمناعي ، والكروية لخصمه !

ومن قال من علماء المغرب بأن الارض مستديرة ، وانها سائرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوى ، بأرض ازوات بقرب بلاد تميكتو ، وهو مؤلف مختصر في فقه مالك ضاهى به «متن خليل» وضاهي ايضا الفقيه ابن مالك في النحو ، وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرية والباطنية كأوراد والحزاب ، كحزب الشاذلي ، وقد ألف كتاب وسماه (النزهة) جمع فيه جملة علوم ، فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الارض وعلى سيرها ، ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه : ان الارض كرة ولا يضر اعتقاد تحركها او سكونها – مات الشيخ سنة الف ومائتين وستة وعشرين من الهجرة[1] النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وخلفه حفيده المسمى باسمه .

ثم أن هذا البيت الذي كنا فيه للكرنتينا متسع جدا ، به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فيه عرفنا كيفية احكام ابنية هذه البلاد وأتقانها وامتلائها بالرياض والحياض ، الى آخره ، ولم نشعر في أول يوم الا وقد حضر لنا امور غريبة في غالبها ، وذلك انهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الارض ، فضلا عن الجلوس بالارض ، ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا

بطبليات[2] عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز وسكينة وشوكة وملعقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء واناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالي الطلبية كراسي لكل واحد كرسي ، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطي لكل انسان في صحنه شيئا يقطعه بالسكينة التي قدامه ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه أبدا ، ويزعمون ان هذا أنظف وأسلم عاقبة .

ومما يشاهد عند الافرنج أنهم لا يأكلون أبدا في صحون النحاس بل ولا في أوانيه أبدا ولو مبيضا ، فهي للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلاة . وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها ، فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع الاطعمة ، كالخضراوات والغطورات ثم بالسلطة ، وربما كانت الصحون المطلاة بلون الطعام المقدم ، فصحون السلطة مثلا خضر منقوشة بلون السلطة ، ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ، الا أنهم يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاي والقهوة ، وهذا الامر مطرد للغني والفقير كل على حسب حاله ، ثم ان الانسان كلما أكل طعاما في صحنه غيره وأخذ

صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر ، ثم أنهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم انه لا بد ان ينام الانسان على شيء مرتفع ، نحو سرير ، فأحضروا ذلك لنا ، ومكثنا في هذا المحل ثمانية عشر يوما لا نخرج منه ابدا ، غير انه متسع جدا ، وفيه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتماشي فيها والتنزه في رياضها . ومن هذا البيت ركبنا العربيات المزينة المجملة التي تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، وسرنا بها الى بيت في المدينة ، لكنه في حواشيها ، من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وأدواتها ، فكثنا منتظرين التوجه الى مدينة باريس ، ومدة مكثنا في هذا البيت كنا نخرج ساعات للتسلي في البلد ، وندخل بعض القهاوي عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هي مجمع لارباب الحشمة ، اذ هي مزينة بالامور العظيمة النفيسة التي لا تليق الا بالغناء التام ، واثمان ما فيها غالية جدا ، فلا يدخلها الا اهل الثروة ، واما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوي فقيرة او الخمارات والمحاشش .

وقد اسلفت ان مدينة اسكندرية تشبه في حالها مرسيليا ، وأذكر هنا ان الفريق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربيات معا في طريق واحد ، ثم ان سائر القاعات او الاروقة او المنادر العظيمة يوضع في حيطانها الجوانية مراء[3] عظيمة كبيرة حتى انه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ليظهر لها رونق عظيم ، فأول مرة خرجنا الى

البلدة ومررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرايا والمشحونة بالنساء الجميلات ، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة ، وعادة نساء هذه البلدة كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين الى قرب المنكبين ، والعادة ايضا ان البيع والشراء بالاصالة للنساء ، وأما الاشغال فهي للرجال ، فكان لنا بالدكاكين والقهاوي ونحوها فرجة عليها وعلى ما يعمرها ، وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب ، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة ، وفي قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسي المكسوة بالمسجرات ، ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلي الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الاسود أو المنقوش ، وفي هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فاذا طلب الانسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية وهي تأمر باحضاره له ، وتكتبه في دفاترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبي للطالب حين يريد الدفع ، والعادة ان الانسان اذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه ، ففعلنا ذلك كعادتهم ، وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر ، وبالجملة فهو قدح لا فنجان ، وبهذه القهوة أوراق الوقائع

اليومية[4] لاجل المطالعة فيها ، وحين دخولي بهذه القهوة ومكثي بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة لما ان بها كثيرا من الناس ، فاذا بدا جماعة داخلها او خارجها ظهرت صورهم في كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما فيظن ان هذه القهوة طريق ، وما عرفت أنها مسدودة الا بسبب اني رأيت عدة صورنا في المرآة فعرفت ان هذا كله بسبب خاصية الزجاج ، فعادة المرآة عندنا ان تثني صورة الانسان ، كما قال بعضهم في هذا الشأن :

أبرقـــع منظر المرآة عنـــــه   مخـــافــة ان يثنيـــة لعيني
أقــاسي مــا أقــاسي وهــو فــذ   فكيف اذا تجلى فرقــــــدين

وعـادتها عنـد الافرنـج بسبب تعـددها على الجـدران وعظم صورتها ان تعـدد الصورة الواحـدة في سـائر الجوانب والاركان ، ومن كلامي :

يغيب عني فــلا يبقى لـــه أثر   ســوى بقلبي ولم يسمـع لــه خبر
فــان بــدا وأرى المرآة طلعتـــه   يلـوح فيهـا بـدور كلهـا صـور

وقـال شيخنـا العطـار : لم أر الطف تخيلا في هـذا المعنى من قول ابن سهل[5] :

ألقي بمرآة فكري شمس صــورتــه   فعكسها شب في أحشـائي اللهبـا

قال الحريري في مليح بيده مرآة :

رآى حسن صورته في المرآة فأصبح صبابها مدنفا
وصير يعقوب أساله يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتي كمال الكلام على ذلك كله في ذكر مدينة باريس .

ومدة اقامتنا في مرسيليا بعد الكرنتينة أشغلناها أيضا بتعلم تقطع الحروف ، يعني تعلم تهجي اللغة الفرنساوية ، ثم انه يوجد في مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فان منهم من مات ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصا المماليك الجورجية والجركسية والنساء اللواتي اخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها ، وممن تنصر انسان يقال له عبد العال ، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر «اغاه انكشارية» في ايامهم ، فلما سافروا تبعهم وبقي على اسلامه نحو خمسة عشر سنة ، ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل .

ويقال : انه سمع منه عند موته يقول : أجرني يا رسول الله» ! ولعله ختم له بخير ، وعاد الى الاسلام ، فقال بلسان الحال :

الحمد لله ، الحنيفة ملتي والله ربي ، وابن آمنة نبي

ولقد رأيت لـه ولـدين وبنتـا أتـوا في مصر وهم على دين النصرانية ، احدهما معلم الآن في مدرسة أبي زعبل .

ومثلـه مـا حكاه لي بعضهم ان سر عسكر المسمى «منـو» ، المتـولي في مصر بعـد قتـل الجنرال كليبر[6] كان اسلم في مصر نفاقا ، كما هو الظـاهر ، وتسمي عبـد الله ، وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد ، فلمـا خرج الفرنسيس من مصر واراد الرجوع أخـذهـا معـه ، فلما وصل رجـع الى النصرانيـة ، وأبـدل العمامـة بالبرنيطة ، ومكث مع زوجته وهي على دينها مـدة ايـام ، فلمـا ولدت وأراد زوجها ان يعمـد ولـده على عـادة النصـارى لينصره أبت الزوجـة ذلـك ، وقـالت : لا أنصر ولـدي أصلا ولا أعرضـه للدين الباطل ، فقال لها الزوج : ان كل الاديان حق وان مآلهـا واحد ، وهو عمل الطيب ، فلم ترض بذلك ابدا : فقال لهـا : ان القرآن نـاطـق بـذلـك وانت مسلمـة فعليـك ان تصـدقي بكتـاب نبيك ، ثم أرسل بأحضـار أعلم الافرنج بـاللغـة العربيـة البـارون دساسي ،[7] فانه هو الـذي يعرف في القرآن ، وقـال لهـا : سليـه عن ذلك ، فسألته ، فأجابها بقولـه : انـه يوجـد في القرآن قولـه تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصـارى والصـابئين من آمن بـالله واليوم الآخر وعمـل صـالحـا فلهم اجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[8] فحجها بذلـك ، فـأذنت بمعبوديـة ولدها ، ثم بعـد ذلـك انتهى الامر ، على مـا قيل ، انهـا تنصرت وماتت كافرة .

كل دين ان فـاتـك الاسـلام فمحـال ، لأنـه أوهـام

ومما رأيت من جملة المصريين في مرسيليا انسانا لابسا ايضا كالافرنج ، واسمه محمد ، منطلق اللسان في غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربي الا اليسير ، فسألته عن بلدة ببر مصر فأجاب بأنه من مدينة اسيوط ، من أشرافها ، وان أباه يسمى السيد عبد الرحيم ، وهو من أكابر هذه البلدة ، وامه تسمى مسعودة ، او قريبا من ذلك الاسم ، وانه اختطفه الفرنساوية في حال صغره ، ويقول انه باق على اسلامه وانه يعرف من الامور الدينية : الله واحد ، ومحمد رسوله ، والله الكريم ! ومن العجائب أنني بعد كلامه توسمت فيه الخير ، وكان على وجهه سمة اشراف اسيوط حقيقة ، فأن صح كلامه كان من اولاد سيدي حريز بين سيدي ابي القاسم الطهطاوي ، واشراف طهطا من اولاد سيدي يحيي بن القطب الرباني سيدي ابي القاسم ، وله ولد ثالث يسمى سيدي علي البصير ، ذريته اهل جزيرة شندويل ، وشهرة ابي القاسم الطهطاوي لا تخفى على من يعرفه وان لم يذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني في الطبقات ، وكثير من الاشراف بالبلاد العثمانية ينتهي نسبهم الى سيدي حريز المتقدم . ومما رأيته في مرسيليا الملعبة المسماة «السبكتاكل» ،[9] وامرها غريب ، ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لا بد من رؤيتها بالعين ، ولنذكرها في الكلام على باريس ، ومكثنا في هذه البلدة خمسين يوما ، وتوجهنا الى باريس .

(1) وتوافق سنة 1811 م .

(2) مناضد الطعام .

(3) أي مرايا ، جمع مرآة .

(4) أي الصحف اليومية .

(5) ابراهيم الاشبيلي (المتوفي سنة 1260 م) شاعر أندلس ، مسلم ، من أصل يهودي ، غلب الغزل على شعره .

(6) بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء . ﴿الطهطاوي﴾ .

(7) هو البارون دي سامي (1758 – 1838 م) من كبار أعلام المستشرقين الفرنسيين . أنظر خلاصة ترجمته وآثاره في الفكر العربي بموسوعة ﴿المستشرقون﴾ ج 1 ص 179 – 182 .

(8) البقرة : 62 .

(9) من الكلمة الفرنسية : (spectacle)

الفصل الثاني

في الخروج من مرسيليا الى دخول باريس ، وفي المسافة بينهما

أعلم ان عادة المسافرين من مرسيليا الى باريس بالعربات ان يستأجروا العربة او موضعها فيها ، فاما ان يأكلوا على كيسهم(1) او يدفعوا قدرا معلوما للعربة والقوت مدة الطريق ، ثم ان السفر يكون ليلا ونهارا الا وقت الاكل ونحوه ، وكل البلاد التي في الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات ، في غاية النظافة والظرافة ، وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم ، وبالجملة ، فهي مستكملة الآلات والادوات ، فلما ركبنا عربات السفر ، كل جماعة منا في يوم ، وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا مستمرا على حالة واحدة ، ولا يتأثر الانسان كسفر البحر بالرياح ونحوها ، وصلنا مدينة ليون في ضحوة اليوم الثالث .

ومدينة ليون على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ، ومن ليون الى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ، ومن مرسيليا الى باريس مائتان واحدى عشر فرسخا فرنساويا ، وقد مكثنا في ليون نحو اثنتي عشر ساعة

للاستراحة ، ولم أر داخل هذه المدينة الا بالمرور فيها او من شباك البيت الذي فيه .

ومن لم يستطع أعلام رضوى لينزل بعضها نزل السفوحا

ثم سرنا منها ليلا الى باريس فدخلناها صباحية اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا .

وقد مررنا بقرى كثيرة ، وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر ، عظيمة الابنية ، مزينة بالاشجار ، وبالجملة ، فالقرى مسلسلة متصلة ببعض غالبا ، خصوصا مع جد السير ، حتى ان الانسان لا يظن الا انه في بلدة واحدة ، والمسافرين غالبا في ظل الاشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد في سائر الطرق ، وندر تخلفه في بعض المحال ، ثم ان الظاهر في هذه القرى والبلاد الصغيرة ان جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك في مدينة باريس ، غير ان نساء الارياف أقل تزينا من نساء باريس كما هو العادة المطردة في سائر بلاد العمران .

(1) أي على حسابهم الخاص .

المقالة الثالثة

﴿في دخول باريس ، وذكر جميع ما شهدناه وما بلغنا خبره من أحوال باريس . وهذه المقالة هي الغرض الاصلي من وضعنا هذه الرحلة ، فلذلك أطنبنا فيها غاية الاطناب ، وان كان جميع هذا لا يفي بحق هذه المدينة ، بل هو تقريبي بالنظر لما اشتملت عليه ، وان استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة . قال بعضهم :

من لم ير الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا الناس

فمن باب أولى بلاد «أفرنجستان» .﴾

الفصل الأول

(في تخطيط باريز من جهة وضعها الجغرافي)
(وطبيعة أرضها ، ومزاج اقليمها وقطرها)

اعلم ان هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس باري، بالباء الفارسية التي تلفظ بين الفاء والباء، ولكن يكتب هذا الاسم باريس، ولا ينطق بالسين ابدا فيه كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها ابدا، خصوصا حرف السين في أخر بعض الكلمات، فانه لا ينطق به ابدا، مثلا اتينة–بامالة التاء–تكتب بالفرنساوية اتينس، وتقرأ اتين، ثم ان العرب والترك ونحوهم يكتبون: باريس او: بريس او: باريز، وربما قالوا: فايس، واظن ان الاوفق كتابتها بالسين، وان اشتهر على السنة غير أهلها قراءتها بالزاي، ولعل ذلك انما نشأ عن أن السين في اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا في بعض الاحيان، ببعض شروط، وان كانت مفقودة هنا الا في حال النسبة، فان النسبة الى باريس عند الفرنسيس بارزياني، وهذا بعينه هو السبب لان النسبة ترد الاشياء الى اصولها، ولكن هذه القاعدة في النسبة العربية، والنسبة هنا اعجمية، وقد مشيت في بعض اشعاري التي انشدتها فيها على كتابتها بالسين حيث قلت:

لئن طلقت باريسا ثلاثا فما هذا سوى لوصال مصر
فكل منهما عندي عروس ولكن مصر ليست بنت كفر

وقلت :

لقد ذكروا شموس الحسن طرا وقالوا ان مطلعها بمصر
ولكن لو رآها وهي تبدو بباريس لخصوها بذكر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى الباريزيين ، ومعناها في اللسان القديم الفرنساوي سكان الاطراف والحواشي ، وليس هذا الاسم منقولا عن باريس ، اسم رجل شهير ، كما قاله بعضهم .

ثم ان هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا ، ومن أعظم مدائن الافرنج الآن ، وهي كرسي بلاد الفرنسيس ، وقاعدة ملك فرانسا ، وسيأتي تفصيل ذلك في محله ، وهي موضوعة في التاسعة والاربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي ، يعني انها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر ، واما طولها فانه يختلف ، فاذا اعتبرنا خط نصف النهار الذي ينسب اليه الفرنساوية اطوال سائر الاماكن ، وهو خط نصف النهار المرسوم في رصدهم السلطاني ، وهو يمر بباريس ، فهو حينئذ مبدأ الاطوال على حساب الفرنساوية ، فيكون طولها صفرا ، واما اذا حسبنا على خط نصف النهار الذي كان يأخذ بطليموس[1] الاطوال منه ، ولا زال الى الآن مبدأ اطوال بعض الامم كأهل

الفلمنـك ، وهـو خـط نصف نهـار الجـزائر الخـالـدات ببحر المغرب ، كانت بـاريس في عشرين درجـة تقريبـا من الطـول الشرقي .

ولنذكر لـك هنـا كيفيـة معرفـة درجتي الطول والعرض من مكان من الامكنـة ، وثمرة ذلـك ، وان كان يخرجنـا عمـا نحن بصدده فنقول :

اعلم ان علماء الهيئة قد اوضحوا بالادلة كروية الارض ، وانها غير صادقة التكوير ، ثم صنعوا على هيئتها صورة وسموهـا صورة الارض ، ولامكان تقسيم الارض وتسهيـل معرفتهـا تـوهمـوا فيهـا دوائر أنصـاف نهـار ، ودوائر متـوازيـة ، ومحـورا ، وقطبين ، ورسموها على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الارضية هو الخط الموازي لمحور الفلـك ، وطرفـاه همـا القطبـان ، ويسمى أحـدهمـا القطـب الشمالي والآخر القطب الجنـوبي ، ودوائر أنصـاف النهـار هي الدوائر التي تعبر من احد القطبين الى الآخر ، وعلة تسميتهـا بذلك انه اذا كانت الشمس في سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بـذلـك المحل ومركز هـذه الـدوائر هـو مركـز الارض ، وأما الدوائر المتوازيـة فهي الـدوائر الواقعـة أعمـدة على دوائر أنصـاف النهـار ، وهي التي بينهـا وبين مركزهـا تـواز على محور الارض ، وأعظمهـا دائرة الاستواء ، وهي الـدائرة العظمى المستـويــة البعــد من القطبين ، وهي تنصف الكرة نصفين ، احــدهمــا النصف الشمالي والآخر النصف الجنـوبي ، ثم أن دوائر

أنصاف النهار والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم الى ثلثمائة وستين درجة ، وكل درجة تتجزىء الى ستين دقيقة ، وكل دقيقة الى ستين ثانية ، وكل ثانية الى ستين ثالثة وهكذا ، وللافرنج تقسيم آخر جديد ، هو أن الدائرة تنقسم الى أربعة أرباع ، وكل ربع يتجزيء ماية تسمى درجات مائينية ، وكل ساعة مائة دقيقة مائينية ، وكل دقيقة مائة ثانية كذلك ، وهكذا ، وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الاعشاري والحساب المتري ، والاول اشهر استعمال ، وبهذه الدوائر يتحدد الطول والعرض وذلك ان العرض هو بعد دائرة متزاوية عن المتوازية العظمى التي هي دائرة الاستواء ، فان أخذته جهة الشمال كان عرضا شماليا ، ونهايته تسعون درجة ، وان كان جهة الجنوب فجنوبي ونهايته كذلك ، واما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على أنه اولي وهو شرقي ، وقدره مائة وثمانون درجة ، وغربي ، وقدره كذلك ، وقد وضع أصحاب الجغرافيا في الاكرة او الخرطات على كل دائرة متوازية ما تبعده به الدرجات عن دائرة الاستواء ، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الاولية ، وقد رسم – كما اسلفناه – بطليموس الحكيم دائرة نصف النهار الاولية في الجزائر الخالدات ، فلما انكشفت بلاد امريكة اختار الافرنج ان يجعل أهل كل قطر من الاقطار خط نصف نهارهم الاولي ببلادهم لينسبوا اليها ما عداها كما صنع الفرنساوية ، فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الاولى

في مدينة باريس ، وبقيت منهم امم كالفلمنك على اخذ الاطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات .

وفي الواقع ان الاولى كما هو الظاهر اتخاذ مبدأ اطوال مشترك لجميع الامم ينسب اليه ما عداه ، ويكون في قطر لا عمارة بعده ، معلوم او ممتاز بمزية ، كمكة المشرفة ، ثم ان كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن اخذها بتفاوت الاوقات وذلك انه من المعلوم ان الشمس او الارض ، كما يقوله الافرنج ، تقطع حركتها اليومية في أربع وعشرين ساعة ، فهي تقطع من الدائرة التي ترسمها في سيرها خمسة عشر درجة في كل ساعة ، فتكون تقطع درجة كل أربع دقائق يعني انه اذا دخل وقت الظهر في القاهرة مثلا فلا يدخل وقته في المكان الذي يبعد عنها جهة الغرب بخمسة عشر درجة الا بعد ساعة ، ويدخل بعد ساعتين فيما يبعد عنها بثلاثين درجة ، وهلم جرا ، وبعكس ذلك في المكان الذي يبعد عنها جهة المشرق ، فانه اذا كان الظهر في القاهرة يكون مضي ساعة الظهر في المكان الذي يبعد عنها جهة المشرق بخمسة عشر درجة ، ويكون مضي ساعتان فيما يبعد عنها في هذه الجهة بثلاثين درجة ، الى آخره .

فلنذكر هنا حينئذ انه اذا كان الظهر في اصول البلاد الغربية من باريس والشرقية منها كيف يكون فيها ، وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد ، فيقال : اذا كان وقت الظهر في مصر القاهرة لا يدخل وقته في باريس الا بعد مضي ساعتين الا أربع

دقائق ، واذا كان الظهر في اسلامبول كان في باريس بعد مضي ساعة وستة وأربعين دقيقة ، واذا كان في بغداد كان دخوله في باريس بعد ساعتين وثمانية وأربعين دقيقة ، وفي حلب اذا دخل الظهر لا يدخل في باريس الا بعد ساعتين وثلث ، واذا دخل الظهر في الجزائر لا يدخل في باريس الا بعد اربعة دقائق تقريبا ، واذا دخل في تونس فيدخل في باريس بعد مضي نصف ساعة ودقيقتين ، ووقت الظهر في أصفهان يدخل في باريس بعد مضي ثلاث ساعات واثنين وعشرين دقيقة ، واذا كان في مدينة بكين[2] يكون في باريس سبع ساعات واحدى وأربعين دقيقة ، وفي مدينة الباب والابواب تكون ساعة وثمانية وأربعين دقيقة ، وفي مدينة رومة الكبرى نصف ساعة وثمانية دقائق ، وهذه البلاد على الشرق من مدينة باريس ، واما البلاد التي على غربيها فاذا كان الظهر في مدينة مدريد ، كرسي ملك الاندلس ، فانه يكون فات وقته في باريس بأربعة دقائق ، وذا كان في مدينة اشبونة ، كرسي البرتغال ، فانه يكون فات وقته في باريس بخمسة دقائق ونصف ، واذا دخل وقته في «فيلادلفيا»[3] فانه يكون قد مضى بعده في باريس خمس ساعات وثلاثة عشر دقيقة ، واذا كان وقته في مدينة ريوجانيرو[4] فانه ثلاث ساعات تقريبا ، واذا كان نصف النهار في جزيرة كنفوا ، كرسي سلطنه ابرزيلة في امريكا الموسقو ، يكون نصف الليل في باريس ، فانها متقاطران .

والمسافة بين باريس واسكندرية سبعمائة وتسعة وستون فرسخا فرنساويا ، وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسع فراسخ ، وبينها وبين مكة المشرفة سبعمائة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين اسلامبول خمسمائة وستون فرسخا ، وبينها وبين حلب ثمان مائة وستون فرسخا ، وبينها وبين مراكش سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين تونس ثلثمائة وسبعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة لوندرة ، كرسي الانكليز ، مائة فرسخ ، وبينها وبين مدينة بترغ ، كرسي الموسقو ، خمسمائة وستة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة موسقو ، كرسي الموسقوبية القديم ، ستمائة فرسخ ، وبينها وبين مدينة رومة ، كرسي البابا ، ثلاثمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين مدينة مجة ، كرسي النمسا ، ثلاثمائة وخمسة وعشرون ، ايضا ، وبينها وبين مدينة نابلي ثلاثمائة وأربعة وثمانون فرسخا .

وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانية عشر قامة ، ومن المعلوم انها من بلاد المنطقة المعتدلة ، فليست في غاية الحرارة ولا في غاية البرودة ، فان أقصى درجات الحر فيها يكون احدى وثلاثين درجة ونصف ، وهذا نادر ، والحر الاوسط تسعة وعشرون درجة ، وأقصى درجات البرد بها ، في الغالب ، اثنا عشر درجة ، وندر بلوغه ثمانية عشر ، والبرد الاوسط سبع درجات . ومعلوم ان درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات في الذوبان الى حد فوران الماء ، ودرجات البرد من شروعه في

الجمود . والاغلب فيها عدم صحو الزمن ، وكثرة الغيوم ، بحيث تمكث الشمس في الشتاء عدة ايام لا تتكشف ولا يرى جرمها غالبا ، فما كأنها الا ماتت وعاش الليل ، ويحسن هنا قول بعضهم :

قلت والليل مقيم ودجاه غير ساري
اعظم الخالق اجر الـ خلق في شمس النهار
فلقد ماتت كما مات غرامي واصطباري

وفي ايام الغيوم يصلح لها ما في ديوان الشهاب الحجازي من قول الشاعر :

تظل الشمس ترمقنا بطرف خفي مدنف من خلف ستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى كعنين يحاول فتق بكر

وقد فقد بعض الشعراء الورقة المشتملة على البيت الاول وعثر على الورقة المشتملة على البيت الثاني من هذين البيتين فكمله بقوله :

أزال الغيم ضوء الشمس عنا فما زالت وقد حجبت بستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى كعنين يحاول فتق بكر

وقد ضمن هذا المعنى العلامة الصفتي في قوله :

وطلعة مصر معشوقي ولكن أريد وصالها وتريد هجري
أحاول من تحجبها اختراقا كعنين يحاول فتق بكر

وضمن ذلك ايضا في «عكا» فقال :

وعكاء الفريـــــدة في جمـــــال لهـــــا مهـــج الفرا عن دون مهر
وخــاطبهــا ســوى من كان فيهــا كعنين يحـــــاول فتـــــق بكر

ففض ولي النعمة ختامها ، وزالت بكارتها ، فكان ما ظن انه عنين بالنسبة اليها هو شديد قوى على فض الختام لجميع مدن الشام وغير الشام ،[5] وكان جديرا بقول الشاعر :

يـــــا مليـــــك الارض بشرا ك فقـــــــــــد نلت الاراده
حصن عكار يقينـــــــــــــــا هـــــو عكا وزيـــــــــاده

وقد أرخ شعراء مصر أخذ مدن الشام والروم[6] وأجادوا .

وأما المطر فانه لا ينقطع في هذه المدينة في سائر فصول السنة ، واذا نزل في الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا في دفع ضرره الى جعل اعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه الى اسفل الدور ، وفي سائر البيوت والطرق مجار وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق باريس محدودة بمجار كالقناة الجارية المياه ، خصوصا وارض هذه المدينة مبلطة بالحجر فلا تتشرب المياه ابدا بل تسير الى هذه المجاري ومنها الى البالوعات . وتغير مزاج الهواء والزمن في باريس امر عجيب ، فانه قد يتغير في اليوم الواحد او مع ما بعده ، حال الزمن مثلا يكون في الصباح صحو عجيب لا يظن الانسان تغيره فلا يمضي نصف ساعة الا ويذهب بالكلية ويخلفه المطر الشديد ، وقد يكون حر يوم من الايام اربعة

وعشرين درجة ولا يصل اليوم الآتي الى اثني عشر ، وهكذا ، فقل ان يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج اهلها - كما سيأتي - ومعلوم أنه ينبغي ان يتحفظ الانسان من ضرر هذا التغير ، وان كان هواء باريس في الجملة طيبا مناسبا للصحة ، ومع ان حرها لا يصل الى حر القاهرة في الغالب فهو غير مألوف ابدا ، ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد الى شدة الحر ، واما بردها فانه وان كان طاقة الانسان تحمله من غير عظيم تعب فانه لايمكن للناس الشغل الا بالتدفئة بالنار ، فلذلك كانت لسائر قهاويها وحاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية في الارض ليوقد فيها النار ، وهي مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر في الأوضة دخان الحطب ، فان هذه المداخن نافذة الى الهواء ، فيجذب الهواء الدخان ويطرده خارج البيت ، وفي بعض الاوض يصنعون نوعا من الفرن له باب من حديد ويلحقون به قصبة من صفيح وينفذون هذه القصبة في فرجة تتصل بالهواء ، فيضعون الخشب في الفرن ويغلقون باب المحمى ،[7] فيصعد الدخان جهة القصبة ، ومنها يصعد الى الخلاء ، فتسخن الفرن وتحمي قصبتها فتسخن الاوضة او الرواق او نحوها . وعندهم نوع آخر عجيب يسمى المداخن المسقوبية ، وعادة المدخنة او الفرن المسماة عند الفرنساوية «بوالا»[7] ان ظاهرها مطلي طلاء عظيما في غاية النظافة ، والمدخنة دائما مرخمة الجوانب ، ولها عرصة من حديد ، وهي عند الفرنساوية لحسن صناعتها من

زينة المحل ، فيكتنفونها في الشتاء ، ومن أعظم اكرام الضيف عندهم في الشتاء تقريبه جهة النار ، ولا عجب في ذلك ، نسأل الله انقاذنا من حر نار جهنم ، ولله در القائل :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد اكل الفواكه شاتيا فليصطل

واحسن من قال :

دخلت يوما على صديق والبرد يفري به الفريا
فأوقد النار قلت كلا لأنت أولى بها صليا

وبالجملة فالتدفئة في الشتاء عند الفرنساوية جزؤ من المؤنة ، فهذا ما يستعينون به على البرد ، واما ما يستعينون به على التوقي من ضرر المطر فهو المظلات المسماة في مصر الشمسيات ، يعني وقايات الشمس ، وتسمى تلك عند الفرنساوية وقاية المطر ، وفي الحر تمشي النساء بالشمسيات ، ولا يمكن للرجال ذلك ابدا ، وارض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة ، فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة الا وبه بستان عظيم الاشجار والخضروات وغيرها ، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة ، فانهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم ، مثلا شجر النخل لا يخرج في الاقاليم الحارة ، ومع ذلك فان الفرنساوية صنعوا كل الحيل حتى زرعوا منه شيئا ، وان كان لا يثمر ، الا انه ينفعهم في الرجوع اليه عند قرائتهم في علم النباتات ، وقد اشتهر عندنا ان النخل لا يوجد الا ببلاد

الاسلام ، ويرد عليه انه عند كشف بلاد أمريكة وجدوا بها نخلا غير منقول - كما هو الظاهر - من بلادنا ، فانظر هذا مع قول الفاضل القزويني[9] في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) ما نصه : «نخل : شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها انها لا تنبت الا في الاسلام» . انتهي . ولعل النخل الموجود في غير بلاد الاسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند اهل النباتات ، والمقصود على بلاد الاسلام نخل التمر لمناسبة مزاج قطرها ، فتأمل .

وبقرب أرض باريس عين ماء معدني باردة الماء ، ويشقها نهران ، احدهما ، وهو الاعظم والاشهر ، يقال له : نهر السين[10] والآخر نهر غويلان . قال بعض حكماء الكيمياء ، من الافرنج : ان اقل المياه خليطا بالمواد الخ حية نيل مصر ، ونهر الكتك ببلاد الهند ، ونهر السين بباريس ، ويتفرع على ذلك اعتبار مائها في فن الطب من الامور المناسبة لصحة الابدان ، وانه يحسن تطييب وطبخ الخضروات بها دون غيرها ، وتحليل الصابون بها للغسل ، ونحو ذلك ، وفي نهر السين بداخل باريس ثلاثة جزائر ، احداها تسمى : جزيرة السيتة ، وكان بها باريس القديمة والسيتة[11] معناها المدينة ، فكأنه قيل جزيرة المدينة ، وشتان بين هذا وبين النيل والروضة والمقياس ، فان نزهة الانسان في الروضة والمقياس لا تضاهي ، لأنه الخليج يعبر مصر والسين يعبر باريس الا ان نهر السين بتمامه يشق باريز ، وتجري

بها السفن العظيمة الوسق ، وبه الارصفة الجيدة ، والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة ، وشتان ايضا بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره ، فان ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله ، كما هو العادة في ماء نهر السين ، لكان من أعظم الادواء ، وأقول ايضا : انه فرق بعيد بين طعم ماء نهر السين وماء العيون والقطوع والسواقي ببلاد صعيد مصر ، وبالجملة والتفصيل ، ففرق بعيد بين تربة مصر وباريس ، ومياههما ، وفواكهما ، الا في نحو الخوخ ، واقليمهما فلولا نجامة اهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن تدبيرهم ، واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شيء ، فانظر مثلا الى نهر السين فانه وان كان نزهة في ايام الحر فانه قد يبلغ في وقت الشتاء ثماني درجات من الجمود والانعقاد ، حتى انه يمكن ان يداس عليه بالعربات ، وانظر إلى اشجار هذه المدينة فانها تكون مورقة في أيام الحر وفي أيام البرد لا تجدها الا قرعة(12) رديئة المنظر كأنها حطب مصلب ، وهذا في سائر البلاد الباردة . وقال بعضهم في هذا المعنى :

سألت الغصن لم تعرى شتاء ... وتبدو في الربيع وأنت كاسي
فقال لي الربيع على قدوم ... خلعت على البشير به لباسي

قال بعضهم ، في وصف يوم برد ، وأجاد : في يوم برد جعله الله منه في حمى ومحال حرب كان الظفر فيه لابن السماء ، كأنما ماجت الارض فرحا لانهلال السحاب ، وقويت أوتادها اذ صار

لها بالسماء من جبال المطر امد الاسباب ، وكآن السماء قد رأت ما بالارض من السرور تهنيها بصوت الرباب ، فلكم تفتحت أعين النور لعيون الغمام الساجمة ، ولكم استمرت به مسمرة واستقرت به سائمة ، ولكم ضحكت الارض لبكاء السماء بمدامعها ، وظهر البشر على وجهها .

وانظر الى زمن تلك المدينة فأنه دائما معتم في سائر أيام الشتاء وغالب ايام الحر ، فاذا تنزه الانسان ساعة تنكد ساعة اخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق وانهطال المطر والصواعق ، الا ان الثلوج بها ومجاري البالوعات تقي من الوحل المضر ، فليست كأرض جيلان التي قال فيها الشاعر :

أقمت بأرض جيلان زمانا ولم يك ذلك مني غير جهل
فلم أحصل على خير متاح سوى سح الغيوث وخوض وحل

واهلها لا يبالون بذلك ، فقال في سائر ايامها ما قاله بعضهم في وصف يوم شديد البرد من أنه : «يوم يجمد خمره ، ويخمد جمره ، ويخف فيه الثقيل اذا هجر ، ويثقل فيه الخفيف اذا هجم» . الا ان الفرنساوية يكثرون من الملاهي في ليالي الشتاء لانهم يبذلون جهدهم في التوقي من مضارها . نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير ! فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها ادوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : مصر ام الدنيا ! وقد مدحتها مدة اقامتي بباريس بقصيدة تتضمن مدح ولي النعمة ، دام عز دولته ، آمين . وها هي هذه القصيدة :

نـاح الحمـام على غصـون البـان ... فـأبـاح شيمـة مغرم ولهـان
مـا خلتـه مـذ صـاح الا أنـه ... أضحى فقيـد اليفـه ومعـاني
وكأنـه يلقي الى اشـارة ... كيف اصطبـاري مـذ نـأى خـلاني
مـع أنني ، والله ، مـذ فـارقتهم ... مـا طـاب لي عيشي وصفـو زمـاني
لكنني صب أصـون تلهفي ... حتى كأني لست بـاللهفـان
وببـاطن الاحشـاء نـار لـو بـدت ... جمراتهـا مـا طـاقهـا الثقـلان
أبكي بعيني مهجتي لفراقهم ... وأود أن لا تشعر العينـان
لي مـذهب في عشقهم واريتـه ... ومـذاهب العشـاق في اعـلان
مـاذا على اذا كتمت صبـابتي ... حتى لـو أن المـوت في الكتمـان
ما أحسن القتلى بـأغصـان النقى ... مـا أطيب الاحـزان بـالغـزلان
قالوا : أتهوي ، والهوى يكسو الفتى ... أبـدا ثيـاب مـذلـة وهـوان
فـأجبتهم : لـو صـح هـذا أنني ... اختـار ذلي فيـه طـول زمـاني
والـذل للعشـاق غير معـزة ... بـل عين كل معـزة للعـاني
أصبـو الى من حـاز قـدا أهيفـا ... يـزري ترنحـه ترنحـه بغصن البـان
وأحن نحـو شقيـق تم خـده ... قـد نم فيـه شقـائـق النعمان
ويروقني أبـدا نـزاهـة مقلتي ... في حسن طلعـةفـاتـك فتـان
أمسي وأصبـح بين شعر حـالـك ... ومنير وجـه هكـذا الملـوان
ولطـالمـا قضيت معـه حقبـة ... ونسيم مصر معطر الأردان
زمن علي بـه لمصر فـديتهـا ... حـق وثيـق عـاطـل الفكران
لـو شـابهت عينـاي فـائض نيلهـا ... لم يـوف بعـد شفـائـه أحـزاني
أو لـو حكى قلبي بحـار علـومهـا ... طربـا لمـا أشكـوا من الخفقـان
ولكم بـأزهرهـا شمـوس أشرقت ... وأنـارت الأكـوان بـالعرفـان
فشـذا عبير علـومهم عم الـوري ... وسرت مـآثرهم لكل مكان

وحوتهمو مصر فصارت روضة وهمو جناها المبتغي للجاني
قد شبهوها بالعروس وقد بدا منها العروسي[13] بهجة الأكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم عطارها[41] حسن شذاه معاني
حبر له شهدت أكابر عصره بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره لأجبت بالتصديق والأذعان
هذا لعمري ان فيها سادة قد زينوا بالحسن والاحسان
يا أيها الخافي عليك فخارها فاليك أن الشاهد الحسنان[15]
لو كنت أقسم ان مصر لجنة لأبر كل البر في ايماني
دار يحق لها التفاخر سيما بعزيزها جدوى بني عثمان
حاز المحامد اذ دعي بمحمد ورقى العلى فعلى على الأقران
من كان مثل أميرنا فقرينه اسكندر أو كسرى أنو شروان
في وجهه النصر القريب على العدا لاحت بشائره لكل معاني
في كفه سيفان سيف عناية والشهم ابراهيم سيف ثاني
سل عنه ينبيك الحجاز مشافها بدمار أهل الشيف والبهتان
من قبل كانت سبله مذعورة والآن صارت في كال أمان
لا غرو أن «نجد» أدامت شكره فلقد كساها حلة الايمان
وسعت الى زنج طلائع جيشه فأطاعت العاتي من السوداني
وتقلب الأروام عدل شاهد كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باؤوا بوافر خزيهم وتقاسموا حظا من الخسران
لم تخط قامة رمحه أغراضها واصابة الاغراض نيل أماني
أجبي بدولته علوما قد غدت لوضوحها تجلى على الاذهان
بطل مكارمه الجليلة قلدت هام الزمان مكلل التيجان
يهنيك يا مصر لقد حزت اليها بمحمد باشا على الشان

فاحظي بفاخر حكمه وتمتعي وبذلك افتخري على البلدان
مدي اكف الشكر وابتهلي بأن يبقيه مولاه طويل زماني

واما مصر فانها سليمة من مكاره برد باريس ، كما انها خالية ايضا من الامور المحتاج اليها في وقت الحر ، مثل الاستعانة على تطرية الزمن ، فان اهل باريس مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الارض وقت الحر فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال ماشية والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال في ابلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا اولى بهذا لغلبة حرها . (وقد صار الآن جل ذلك بمصر) .

ثم من غرائب نهر السين انه يوجد فيه مراكب عظيمة فيها اعظم حمامات باريس المشيدة البناء ، وفي كل حمام منها ابلغ من مائة خلوة وسيأتي ذكرها .

ومن الامور المستحسنة ايضا انهم يصنعون مجاري تحت الارض توصل ماء النهر الى حمامات اخرى وسط المدينة او الى صهاريج ، بهندسة مكملة ، فانظر اين سهولة هذا مع مليء صهاريج مصر بحمل الجمال ، فان ذلك اهون مصرفا وايسر في كل زمن ، وشطوط هذا النهر داخل المدينة مرصعة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين ، يطل المار بجانبها على

النهر ، وهي محكمة البناء ، وقناطر هذا النهر بباريس ستة عشرة قنطرة ، فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات ، ولها اربعمائة قدم من الطول ، وعرضها سبعة وثلاثون قدما ، ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسنودة على حجارة من احجار النحاته ، وقد بنيت هذه القنطرة في خمس سنوات ، وصرف فيها ثلاثون مليون فرنك ، يعني ثلاثين ألف ألف فرنك ، وتسمى هذه القنطرة قنطرة «استرلتز» ، سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النيمسا والموسقو ، فيقال لهذه الواقعة واقعة «استرلتز» ، ويقال لها واقعة السلاطين الثلاثة ، ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون ، «واسترلتز» بلدة وقعت هذه النصرة بقربها ، وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور ، فلذلك ابدوها[16] ببناء هذه القنطرة ، فتسميتها بهذا الاسم للتذكار وبقاء الآثار . ونهر السين يشق باريس نحو فرسخين ، وعرضه فيها مختلف ، فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا . وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا[17] في كل ثانية ، او ألف ومائتين في كل دقيقة . وسطح ارض باريس صنفان ، فالاول : جبس ، والثاني : طين ماء نهر السين بعد زيادته ، وأرضها مركبة من رأقات مختلفة ، فالراق الاول : مزرعة طينية مرملة ذات حصى ، الثاني : طفل مختلط بجبس وصدف ، الثالث : طفل صواني ، الرابع طفل جيري صدفي ، الخامس : حجر الجير المخلوط

بصدف ، السادس : البحر الملح ، السابع : طين شبيه بالابليزي ، الثامن : طباشير وجير مفحوم طباشيري .

ثم ان هذه المدينة مشقوقة ومحاطة بصفوف اشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية ، لا يخرج بعضها عن بعض ابدا ، – وعلى منوالها بطريق شبرا وفي أبي زعبل وجهاد أباد – وهي مورقة في ايام الحر يستظل المار بها من حر الشمس ، وتسمى البلوار ،[19] فيوجد في باريس بلوارات خارجة كالسور للمدينة ، وبلوارات داخل المدينة ، ومحيط البلوارات الخارجة ابلغ من خمسة فراسخ ونصف ، وعدد بلوارات باريس اثنان وعشرون بلوارا .

وفي هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعني الميادين ، كفسحة الرميلة[19] بالقاهرة ، في مجرد الاتّساع ، لا في الوساخة ! وعددها خمسة وسبعون ميدانا . ولهذه المدينة ابواب خارجية برانية ، كباب النصر بالقاهرة ، وهي ثمانية وخمسون بابا ، وبهذه المدينة اربع قنايات وثلاثة دواليب لجري المياه بالنواعير ، الا انها عظيمة ، وستة وثمانون صهريجا ، ومائة واربعة عشر حنفية على الطرق . ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون اهلها دائما في الزيادة البينة ، وارضها في الاتساع ، وعماراتها في التكميل والتحسين ، وهمتهم جميعا في توسيع دائرتها بالابنية العظيمة ، لاعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن ، قال الشاعر :

ان البنـــاء اذا تعـــاظم شـــأنـــه أضحى يـــدل على عظيم الشـــان

وبذلك يكثر اهلها . فان اهلها الآن ، يعني اهل الاستيطان بها ، نحو مليون من الانفس ، ومحيطها سبع فراسخ فرنساويـة ، ومطايا هذه المدينة كغيرها من بلاد فرانسا : العربـات ، الا انـه يكثر فيها ذلك ويتنوع ، ولا تزال تسمع بها قرقعة العربـات ليلا ونهارا بغير انقطاع ، وسيأتي تفصيل ذلك في غير هذا المحل .

(1) كلوديوس بطليموس ، يوناني مصري ، نشأ بالاسكندريـة في الربع الثـاني من القرن الثاني الميلادي ، وتوفي بعد سنة 161 م . وكتب في التاريخ ، ولكن شهرته الاسـاسيـة كانت ولا تزال في الفلك والرياضة والجغرافيا والفيزياء .

(2) بكسر الياء والكاف ، كرسي ملك الصين ، (الطهطاوي) .

(3) بكسر الفـاء وسكون اليـاء وفتح الـلام وكسر الـدال المهملـة وسكـون الـلام وكسر الفاء ، مدينة بأمريكة . (الطهطاوي) .

(4) بكسر الراء وضم الياء وكسر النون وسكون الياء . (الطهطاوي) .

(5) يشير الطهطـاوي الى فتوحـات الجيش المصري بقيـادة ابراهيم بـاشـا في الشـام ضـد القوات العثمانية ، وكان من بينها فتحه لمدينة «عكا» في سنة 1382 م (ذي الحجـة سنـة 1247 هـ) . انظر دراستنا المعنونة (وثائق الانتصار المصري في عكا) مجلـة (الهلال) عـدد يونيو سنة 1970 م ص 84 – 92 .

(6) اي الاتراك العثمانيين ، وهـذه التسميـة أطلقهـا عليهم الكتـاب العرب تمييزا لهم عن أتراك أواسـط آسيـا . انظر الـدراسـة التي قـدمنـا بهـا (لـلاعمـال الكاملـة لعبـد الرحمن الكواكبي) – فصل : فكرة في العروبة . طبعة القاهرة سنة 1970 م .

(7) جزء الفرن الذي توضع فيه مادة الحريق ، وهو تعبير شائع في ريف مصر .

(8) من الكلمة الفرنسية : [Poéles]

(9) زكريـا القـزويني (1203 – 1283 م) رحـالـة عربي ، يلقبـه بعض المـؤرخين بهيرودوت العصور الوسطى ، وبليني العرب ، لما في آثاره الفكرية من الاستطرادات . وهو غير القزويني ، محمد بن عبد الرحمن (1268 – 1338 م) البلاغي الفقيه المحدث .

(10) بفتح السين . (الطهطاوي) .

(11) بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية . (الطهطاوي) .

(12) أي عارية من الاوراق كما تعرى رأس «الاقرع» من الشعر !!

(13) اشارة الى الشيخ العروسي ، احد شيوخ الازهر .

(14) اشارة الى استاذ الطهطاوي : الشيخ حسن العطار .

(15) الحسنان : الشيخ حسن العروسي ، والشيخ حسن العطار .

(16) أبدوها : أي خلدوها .

(17) البرمق : الاصبع ، بالتركية .

(18) بضم الباء وسكون اللام .(الطهطاوي) (Boulvard)

(19) بعد أن كان تحت القلعة .

الفصل الثاني

في الكلام على أهل باريس

اعلم ان الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات ، وليسو مثل النصارى القبطة في انهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة ، وليسو اسراء التقليد اصلا ، بل يحبون دائما معرفة اصل الشيء والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم ايضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم في الامور العميقة ، كل انسان على قدر حاله ، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الانعام كعوام اكثر البلاد المتبربرة ، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة في الكتب ، حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعي بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يحب ان يبتدع في فنه شيئا لم سيبق به او يكمل ما ابتدعه غيره ، ومما يعينهم على ذلك ، زيادة عن الكسب ، حب الرياء والسمعة وداوم الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمري رأيت المرء بعد زواله حديثا بما قد كان يأتي ويصنع

فحيث الفتى لابد يذكر بعده فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقوله ابن دريد[1] :

وانما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقيل لاسكندر : لو استكثرت النساء كثر ولدك ، وطاب بهم ذكرك ، فقال : دوام الذكر في حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء .

ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الاشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الامور ، خصوصا في أمر الملبس ، فانه لاقرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن عادة في التزيي ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، مثلا لا يغيرون لبس البرنيطة ، ولا ينتقلون منها الى العمامة ، وانما هم تارة يلبسون البرنيطه على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر ، سواء في صورتها أو لونها ، وهكذا ، ومن طباعهم المهارة والخفة ، فأن صاحب المقام قد تجده يجري في السكة كالصغير ، ومن طباعهم أيضا الطيشان والتلون ، فينتقل الانسان منهم من الفرح الى الحزن ، وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل ، وبالعكس حتى أن الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة امور متضادة ، وهذا كله في الامور الغير المهمة ، واما في الامور المهمة فآراؤهم في السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ،

ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم الى اوطانهم يحبون الاسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى أنهم قد يلقون انفسهم في المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول الحاجري :

كل المنازل والبلاد عزيزة   عندي ولا كمواطني وبلادي

وقال آخر :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى   وحنينة أبدا لاول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء ، والميل الى معاشرتهم ، خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة ، وأنما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوق الى السؤال عن احوال البلاد وعوائد أهلها ليظفروا بمقصدهم في الحضر والسفر ، وقد جرت عادة النفوس الى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها   طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته ، لا هبته ، الا اذا وثقوا بالمكافأة ، وهم في الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، وقد ذكرنا علة ذلك في ترجمتنا مختصر السير والعوائد ، في ذكر الضيافة . وفي الحقيقة أصل السبب : هو ان الكرم في العرب .

ومن أوصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم، وعدم أهمالهم اشغالهم أبدا، فانهم لا يكلون من الاشغال، سواء الغني والفقير، فكأن لسان حالهم يقول: ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيها! ومن المركوز في طبعهم حب الرياء والسمعة، لا الكبر والحقد، فهم كما يقولون في مدح أنفسهم: اخلص قلوبا من الغنم عند ذبحها، وان كانو عند الغضب اشد افتراسا من النمور، فأن الانسان منهم اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة، فقل ان يفوت زمن يسير من غير ان يقتل انسان نفسه خصوصا، من داء الفقر والعشق! ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد، وعدم الغدر، وقلة الخيانة، ومن كلام بعض الحكماء: المواعيد شباك الكرام يصطادون بها محامد الاحرار! وقال آخر: كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة! وقال آخر: الشكر وفاء النعمة، والوفاء به صلاح العقبى! وقيل: وعد الكريم من دين الغريم! وقال بعضهم: الخيانات تؤدي الامانات. ومن طباعهم الغالبة: الصدق، ويعتنون كثيرا بالمروءة الانسانية. وقال بعضهم في مدحها: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها. ومن الصفات التي يقبح وصف الانسان بها عندهم: كفر النعم، مثل غيرهم، فيرون ان شركهم المنعم واجب، واظن ان جميع الأمم ترى ذلك، وأن كانت قد تفقد هذه الصفة عند افراد، فهو خروج عن الطبع، فهي كشفقة الوالد وبر الولد فانها قد يختلفان في بعض الافراد مع انها صفتان جبليتان عن سائر الامم والملل.

ومما قيل في ذلك ، وهو احسن ما قيل ، مع ما فيه من الاستطراد :

هب البعث لم تأتنا نذره وأن لظى النار لم يضرم
أليس بكاف لذي فكرة حياء المسيء من المنعم ؟!

ويقال ان ابا بكر الخوارزمي ، المشهور ، قصد الصاحب بن عباد ، فأحسن نزوله وأكرمه ، وأقام في نعمته مدة ، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما في مكان حيث يجلس الصاحب ، وهما :

لاتحمدن ابن عباد وان هطلت كفاه بالجود حتى أخجل الديما
فانها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال – وقد بلغه موت الخوارزمي – :

أقول لركب من خراسان أقبلوا أمات خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم
فقلت : اكتبوا بالجص فوق قبره ألا لعن الرحمن من يكفر النعم !!

وهذا بخلاف ابي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني ، من اولاد المأمون ، وهو شاعر محسن ، أقبل على الصاحب بن عباد ، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الاذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولي في كل جارحة فم بشكرك يحوي منطقا أربا

اني لأهوى مقامي في ذراك كما تهوى يمينك في العافين أن تهبا
لكن لساني يهوى السير عنك لأن يطبق الارض من حافيك منتخبا
أظنني فت أهلي والانام هو اذاترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضا صرف الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فأنهم مسرفون غاية السرف ، ثم ان الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم ، سواء كن جميلات ام لا ، قال بعضهم : ان النساء عند الهمل معدات للذبح ! وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ! وعند الافرنج كالصغار المدلعين ! قال الشاعر :

أعص النساء فتلك الطاعة الحسنة فلن يسود فتى يعطي النساء سنه
يعقنه عن كثير من فضائله ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا اصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فان الإنسان منهم ، ولو من اعيانهم ، قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر ، فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغي الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك الا سيئا بالنسا ان كنت من أهل الفطن
ما رمى الانسان في مهلكة قط الا ظنه الظن الحسن

ومن كلام العرب العرباء خطابا لزوجته :

أن امرؤ غره منكن واحدة بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

ومن الامور المستحسنة في طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع العرب ، عدم ميلهم الى حب الاحداث والتشبب فيهم أصلا ، فهذا أمر منسي الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، ومن محاسن لسانهم وأشعارهم انها تأبى تعزل الجنس في جنسه ، فلا يحسن في اللغة الفرنساوية قول الرجل عشقت غلاما ، فان هذا يكون من الكلام المنبوذ ، المشكل ، فلذلك اذا ترجم احدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام الى وجه آخر ، فيقول في ترجمة تلك الجملة : عشقت غلامة ، او ذاتا ، يتخلص من ذلك . فانهم يرون هذا من فساد الاخلاق ، والحق معهم ، وذلك ان احد الجنسين له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها اليه كخاصة المغناطيس في جذب الحديد مثلا ، وكخاصة الكهرباء في جذب الاشياء ، ونحو ذلك فاذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية ، وهذا الامر عندهم من اشد الفواحش ، حتى انه قلما ذكروه صريحا في كتبهم ، بل يكنون عنه بما امكن ، ولا يسمح التحدث به اصلا . ويعجبني قول الشيخ عباس اليمني :

كلفت بسعدي والرباب وزينب ... ولم أعتبر رأس العذار ولامه
ولا اخترت تشبيبا بأمرد مذهبا ... وان ذم طبعي من يراه ولامه
وما حسنه عندي سوى في عجاجة ... وحمل قناة كالشهاب ولا مه
ويغشى سعير الحرب ليس بصده ... حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه

ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم ، كما

تقدم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة ، ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية : لا تغتر بآباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها !انتهى . كيف ، والزنا عندهم من العيوب والرذائل ، لا من الذنوب الاوائل ، خصوصا في حق غير المتزوج ، فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة ، ولا تثق بمال وان كثر . وقال آخر : النساء حبائل الشيطان ! وقال الشاعر :

تمتع بها ماساعفتك ولا تكن جزوعا اذا بانت فسوف تبين
فان هي اعطتك الليان فانها لآخر من طلابها ستلين
وان حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وبالجملة ، فهذه المدينة كباقي مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وان كانت مدينة باريس من احكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، واثينة الفرنساوية ، وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة ، أي مدينة حكماء اليونان ، ثم رأيت بعض أهل الادب من الفرنساوية قال ما معناه : ان الباريزيين اشبه الناس بأهل اثينة ، او هم اثينيو هذا الزمان ، وان عقولهم رومانية وطباعهم يونانية . انتهى .

وقد اسلفنا ان الفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين ، وأقول هنا : أنهم ينكرون خوارق العادات ،

ويعتقــدون أنــه لايمكن تخلف الامـور الطبيعيــة اصــلا ، وأن الاديـان انمـا جـاءت لتـدل الانســان على فعـل الخير واجتنــاب ضـده ، وان عمــارة البـلاد وتطرق النــاس وتقــدمهم في الآداب والظرافة تسـد مسـد الاديـان ، وأن الممالـك العـامرة تصنع فيهـا الامر السياسية كالامور الشرعية . ومن عقائـدهم القبيحـة قولهم : ان عقـول حكمـائهم وطبـائعييهم اعظم من عقـول الانبيـاء وأزكى منهـا . ولهم كثير من العقـائـد الشنيعــة ، كانكار بعض القضــاء والقدر ، مع ان من الحكم : فالعاقل من يصدق بالقضاء ، ويأخذ بـالحزم في سـائر الاشيـاء ، وان كان لا ينبغي للانسـان أن يحيل الاشياء على المقادير او يحتج بها قبل الوقوع ، فـأن من الامثـال التي سـارت بهـا الركبـان : من دلائل العجـز كثرة الاحـالـة على المقادير . ومن كلام بعضهم : اذا وقعت المجادلة فـالسكوت افضل من الكلام ، واذا وقعت المحـاربـة فـالتـدبير افضل من التقـدير ، ومنهم جماعة يعتقدون ان الله تعـالى خلق الخلق ونظمهم نظـامـا عجيبا فرغ منه ، ثم لايزال يلاحظهم بصفة له تعالى تسمى صفـة العناية والحفظ ، تتعلق بالممكنات اجمـالا ، بمعنى انهـا تمنعهـا عن خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم في غير هذا المحل .

ثم ان لو أهل بـاريس البيـاض المشرب بـالحمرة ، وقل وجود السمرة في أهلها المتأصلين بها ، وانمـا نـدر ذلـك لأنهم لا يزوجون عادة الزنجية للابيض ، او بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط في اللون ، حتى لا يكون عندهم ابن امة . قال الشاعر :

في الهنـــــد طير نـــــاطـــق سبحـــــان مـــولى الهمــــــه
يقـــــول في تغريــــــــده ابن الأمـــــه مـــا الأمـــــه !

بل لا يعـدون انـه قـد يكون للزنج جمـال اصلا ، بـل لـون السواد عندهم من صفات القبح ، فليس لهم في المحبـة مـذهبـان ، ولا يحسن عندهم قول الشاعر في غلام اسود :

لـك وجـه كأن بنـــاني خطتــه بلفــــظ تملـــــه آمـــــالي
فيــــه معنى من البــــدور ولكن نفضت صبغهــاعليـــه الليـــالي

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر :

الا ان عنـدي عـاشق السمر غـالـط وان المــلاح البيض أبهى وأبهـــج
واني لأهــوى كل بيضـــاء غــــادة يضيء لهـــا وجــــه وثغر مفلــج
وحسبي أني أتبـع الحــق في الهــوى ولا شـــك أن الحــق أبيض أبلــج

على أنه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جـاريـة سوداء في الطبـخ ونحـوه ، لمـا ركـز في اذهـانهم ان السـودان عـارون عن النظافة اللازمة . ونساء الفرنسـاويـة بـارعـات الجمـال واللطـافـة حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينـة ، ويختلطن مع الرجال في المتنزهات ، وربمـا حـدث التعـارف بينهن وبين بعض الرجـال في تلـك الحـال ، سواء الاحرار وغيرهن ، خصوصـا يوم الاحد الـذي هو عيـد النصـارى ويوم بطـالتهم وليلـة الاثنين في البالات والمراقص الآتي ذكرها ، ويحسن قول بعضهم ـ ﴿شعر﴾ـ :

والراقصات وقد مالت ذوائبها على خصور كأوساط الزنابير
يخفي الردا سقمها عنا فيفضحها عقد البنود وشدات الزنابير

ومما قيل : ان باريس جنة السماء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل . وذلك ان النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن ، وأما الرجال فانهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء ، فان الانسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فانها تجر العربات ليلا ونهارا على احجار أرض باريس ، خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربية امرأة جميلة ، فان العربجي يجهد خيله ليوصلها الى مقصدها عاجلا ، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة .

وحيث أن باريس من بلاد الفرنسيس ، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنساوي ، ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول : أعلم أن اللسان الفرنساوي من الافرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية ، يعني قدماء الفرنسيس ، ثم كمل من اللغة اللاطينية وأضيف اليه شيء من اللغة اليونانية النيمساوية ويسير من لغة الصقالية وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية في العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها ، وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كان لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات البديعية اللفظية ، فانه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عندما يكون من المحسنات في العربية ركاكة عند الفرنسيس ، مثلا لا

تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال ألا نادرا ، فان كانت فهي من هزليات أدبائهم ، وكذلك مثل الجناس التام ، والناقص ، فانه لا معنى له عندهم ، وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية مما يكون مزينا بذلك مثل قول صاحب البديعية :

من العتيق ومن تذكار ذي سلم   براعة العين في استهلالها بدم
ومن أهيل النقى ثم النقى وبدا   تناقض الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل الى لغاتهم ما قلته في نظم مصطلح الحديث :

صحيح جسمي من فرط الجوى عضلا   ومرسل الشمع من عيني قد اتصلا
تواترات قصتي في الناس قابطة   حتى لضعفي رشا لغ كل من عذلا
تعنعن السحب عن عيني روايتها   كما يسلسل عنها القطر اذ هملا
رفعت امري الى قاضي الهوى فأى   وقال ما لي على هذا المليح ولا
يا قلب صبرا على ما فيك من علل   ولا تشذ ولا تجزع وأترك المللا
ودع بقية ما أبقاه من رمى   لديه لا تعتبر تعنيف من عذلا
فذاك لاح وبالتدليس مشتهر   وقوله منكر زور وما قيلا

الى آخر قولي فيها :

وقفت حبي عليه لا يجاوزه   وهكذا شأن صب في الهوى كملا

وسيأتي تتميم الكلام على ذلك ، وبالجملة ، فلكل لسان اصطلاح ، واصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ما أمكن ، وتصريف الفعل مع آخر ، مثلا اذا أراد الانسان أن يخبر بأنه أكل فانه يقول : لعلك مأكولا ، يعني فلا يمكن تصريف

أكل في بعض أحواله الا مع فعل الملك والتلبس ، فكأنه يقول تلبست بالاكل ، واذا اراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجا ، يعني : خرجت ، وهكذا يسمى فعل الملك وفعل الكينونة فعلين مساعدين ، يعني أنهما يعينان على تصريف الافعال ويتجردان عن معناهما الاصلي واذا أرادوا تعدية الفعل قالوا : فعلت له الاكل . يعني جعلته يأكل . أو أكلته ، وفعلت له الخروج ، يعني أخرجته ، وهكذا ، فلا يمكنهم تصريف الافعال كما يمكن في اللغة العربية ، فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية . ثم أن قواعد اللسان الفرنساوي وفن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى أغرماتيقي[2] وأغرمير[3] عند الفرنسيس ، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات ، فكأنه يقول : فن النحو ، فيدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة ، كما نقول نحن : علوم العربية ، ونريد بها الاثني عشر علما المجموعة في قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغة ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء
كذا المعاني بيان الخط قافية تاريخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد ، وبالجملة فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح اذ حصرها وتقسيمها في ذلك جعلي لا حصري . والظاهر ان هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط ، فكيف يكون كل من الشعر والقريض علما مستقلا برأسه، وكل من النحو والصف والاشتقاق

علما برأسه ، وانظر ما المراد بالتاريخ ، وبكونه من العلوم العربية ، مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان ، وأول ما ظهر في هذا الفن كتب «أوميروس»[4] في واقعة تروادة ، ولم تؤلف فيه العرب الا في الازمنة الاخيرة ، وعلم الخط قديم أيضا ، فالافرنج يدخلون هذه المباحث في علم تركيب الكلام ، بل ويعدون منه المنطق والوضع والمناظرة . ثم ان اللغة الفرنساوية ، كغيرها من اللغات الافرنجية ، لها اصطلاح خاص بها ، وعليه ينبني نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وانشاؤها ومعانيها ، وهذا ما يسمى «أغرماتيقي»[5] ، فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها سواء كانت لدفر الخطأ في القراءة والكتابة فيها ، أو لتحسينها ، فحينئذ ليست اللغة العربية هي المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ، نعم ، اللغة العربية أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأعلاها على السمع ، فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر ما يتعلق بها ، فله ادراك في النحو في حد ذاته ، وفي غيره ، كالصرف ، فمن الجهل أن يقال أنه لا يعرف شيئا بدليل جهله باللغة العربية ، واذا تبحر الانسان في لغة من اللغات كان عالما باللغة الاخرى بالقوة ، يعني أنه لو ترجم له ما في اللغة الاخرى ، وعبر له عنه ، كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما كان يعرفه من قبل ، ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ، ويبطل منه ما لا يقبله العقل ، كيف

والعلم هو الملكة ، وحينئذ فقد لا يعرف الانسان المطولات باللغة العربية ، ويعرفه باللغة الفرنساوية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخدومة فلها مطولها وأطولها وسعدها[6] ، نعم ليس كل مانع ماء ، ولا كل سقف سماء ،ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله ، وكما قال الشاعر :

هيهات ما كل النسيم حجازيا ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بثينه ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج ، وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج ؟ ولله در من قال :

يليق الخطاب اليعربي بأهله فيهدي الوفا للنقص والحسن للقبح
ومن شرف الاعراب أن محمدا أتى عربي الاصل من عرب فصح
وأن المثاني أنزلت بلسانه بما خصصته في الخطاب من المدح

ومع ما يترآء ان الاعجام لاتفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له ، ومما يدلك على ذلك أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير في بلاد الافرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية ، يسمى البارون سلوستري دساسي ، وهو من أكابر باريس ، وأحد اعضاء جملة جمعيات من علماء فرانسا وغيرها ،

وقد انتشرت تراجمه في باريس ، وشاع فضله في اللغة العربيـة ، حتى أنه لخص شرحا للمقامـات الحريريـة وسماه (مختـار الشروح) وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقلـه وغزارة علمه ، لا بواسطة معلم ، الا في مبدء أمره ، ولم يحضر مثل الشيخ خالـد فضلا عن حضور المغنى مع أنـه يمكنـه قراءة المغنى ، كيف وقـد درس البيضـاوي عـدة مرات ، غير أنـه حين يقرأ ينطـق كالعجم ، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية الا اذا كان بيده الكتاب ، فاذا اراد شرح عبارة أغرب في الألفاظ التي يتعذر عليـه تصحيح نطقهـا ، ولنـذكر لـك خطبتـه في شرحـه لمقـامـات الحريري ، لتعرف نفسه في التأليف ، وقلم عبارته ، فأنه بليغ ، وان كان بـه يسير من الركاكـة ، وسبب ذلـك أنـه تمكن من قـواعـد الألسن الأفرنجية ، فلـذلـك مـالت اليهـا عبـارتـه في العربيـة ، قـال في طالعة شرحه التي حاول فيها الجري على نهج دينـه ودين الاسلام من غير أن يغبن احدهما :

«بسم الله المبدئ المعيد ، الحمد لله العالي المتعـالي ، الـذي لـه الاسماء الحسنى ، ولا يخالط صفـاتـه عز وجل من صفـات المخلوق شيء أقصى ولا أدنى ، العليم الـذي ليس لعلمـه نهـايـة ، والحكم الحكيم الذي حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية ، لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان ، ولا يشوب صفـاء جبروتـه شـائبـة زيـادة ولا نقصـان ، مسبب الاسبـاب ، الـذي لا يتحرك في أطراف الأرض والسماء متحرك الا بقدرته وارداته ، ولا يتكلم في اكنـاف

الآفاق متكلم الا بالهامه وأفادته . أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه وضعف عقله ، فهداه برحمته وتوفيقه الى تحصيل بعض العلوم والفنون ، وأشكر له شكر من كان يخبط في ظلام الجهل فأخرجه برأفته وتأييده الى فضاء الرشد ونو التميز ، حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون ، ثم أتوسل اليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين ، وأوليائه المقربين ، الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر ، وكالتاج على مفرق العصر ، وأسأله عز وجل ان يجعلني من عباده المهتدين ، الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، انه على كل شيء قدير ، وبإجابة هذا الدعاء جدير . اما بعد ، لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفؤاد الأفهام ، واختص بني آدم من بين اصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث في كل امة من الامم من يكوي في تمهيد قواعد البلاغة واستنباط احكام شريعتها معروفا مشهورا ، ويصير لسالك طريقة الفصاحة اماما ودستورا ، فمن اشتهر بذلك بين الأنام ، وصار المشار اليه في هذا الباب عند اهل الاسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريري ، وهو الشيخ الامام ابو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري ، الذي ازدرى من كان قبله من الادباء والفصحاء ، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء ، فاني لما رأيت أن كتابة المذكور لم يزل مذ ألفه الى يومنا هذا لعلم الادب كالعلم المشهور ، يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده ، وخلاصة نقده ، ويعتقدونه نور

مصباحه ، وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه . وأثمار جناته ، وزلال مائه ، ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل ، وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ، ذكرهم حاجي خليفة[7] في كتابه المسمى (كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون) ، وما وصلت يدي اليه من مؤلفاتهم شروح أربعة :

منها(غريب الايضاح في غريب المقامات الحريرية) للامام برهان الدين أبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي ، الخوارزمي، المتوفي سنة عشر وستماية[8]، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل للمقصود والمطرزي كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وهو صاحب (كتاب المغرب) ، تكلم فيه على الالفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب .

ومنها كتاب (شرح ما في غمض من الألفاظ اللغوية من المقامات الحريرية) تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري ، البغدادي ، المتوفي سنة عشر وستمائة[9] ، قال : اني رأيت (المقامات الحريرية) مشحونة بالالفاظ اللغوية ، وهي احد الكتب التي عني بها علماء العربية ، ودعاني ذلك الى تفسير ما غمض من الفاظها ، على الايجاز ، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شيء من ذلك ، الا أنه أسهب بما لا يحتاج اليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشيها .

ومنها (شرح المقامات) للاستاذ اللغوي النحوي أبي العباس احمد بن عبد المؤمن بن موسى القسي الشريشي ، المتوفي سنة تسعة عشر وستمائة[10] . وهو شرح طويل ذكر الشريشي أنه لم يترك في كتاب من شروح المقامات فائدة الا استخراجها ولا عائدة الا استدرجها ولا نكتة الا عقلها ولا غريبة الا استحقها . حتى صار شرحه تأليفا في المقامات يغني عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج الى سواه في لفظه من الفاظها ولا معنى من معانيها ، وقد أخذ شيئا كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلي صاحب كتاب (سلوان المطاع في عدوان الاتباع) المتوفي بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة[11] ، ومن شرح الفندهجي ، وهو الشيخ الامام تاج الدين أبو سعيد محمد بن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراساني المروزي الفندهجي ، وقيل البندهجي ، الصوفي ، المتوفي بمدينة دمشق سنة أربعة وثمانين وخمسمائة[12] .

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي ، صاحب (أسئلة القرآن) و (مختار الصحاح) المتوفي بعد سنة ستين وستمائة[13] ، وهذا الشرح لم يذكره حاجي خليفة في كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف يشهد لصاحبه بكمال الادب ، الا ان النسخة التي هي في ملكي نسخة ناقصة ، سقط منها نحو نصف الكتاب ، حتى لم يبق الا شرح الخطبة ، ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين ، أخذا من قول الحريري : «واني والله طالما تلقيت الشتاء بكافافته» الى آخرها ، وشرح ما يتلو من المقامات الى قوله في المقامة الخمسين :

«ولم تزل معتكفا على القبيح الشنع .»

هذا ما كان لي من شروح المقامات ، وقد اجتمع عندي ايضا نسخ ست من كتاب المقامات ، بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشي ما ينتفع به القارىء ، وقد اخترت من تلك الشروح والحواشي كل ما يحتاج اليه طالب العلم في تحصيل المقصود ، ويستعين به الراغب في الادب على ادراك المطلوب ، ثم أضفت الى ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ، ومن (مجمع الامثال) للعلامة الميداني[14] ، و (كتاب وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان[15] ، ثم من (ديوان البحتري)[16] ، ومن (ديوان المتنبي)[17] ، و(شرح المعلقات) للزوزني[18] وغير هذا من كتب الادب ، كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص في بحار اللغات العربية ان يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الادبية المشرقية أن يصل من جواهر معادنها الى كل فلذة ثمينة جزيلة ، وانما المرجو ممن نظر في هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذني على ما ظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات (والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعا مفيدا ، ولجميع من أسرع الى موردة من ابناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا) . انتهى كلامه .

وقال في المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب :

«ان المقامات البديعية[19] تفضل المقامات الحريريـة» ، وقـد ترجم الى الفرنساوية عدة مقامـات من الاثنين في مجموعـة كتـاب (الانيس المفيد للطـالب المستفيـد) و (جـامع الشـذور من منظوم ومنثور) .

وبالجملة ، فمعرفتـه خصوصـا في اللغـة العربيـة مشهورة ، من أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربي الا بغاية الصعوبة ، وقد رأيت لـه في بعض كتبـه تـوقفـات عظيمـة وإيرادات جليلـة ، ومنـاقضـات قويـة ، ولـه اطـلاع عظيم على الكتب العلميـة المـؤلفـة في سـائر اللغات ، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعـد ذلك لمعرفة اللغات .

العلم لا يـــــدرك بـــــالتمني عليـــك بـــالتكرار والتــأني
كـم اعجمـي الكـن اخـن أدرك بـــــــالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفـاتـه الـدالـة على فضلـه كتـاب في النحو سماه (التحفـة السنيـة في علم العربيـة) فـانـه ذكر فيـه علم النحـو على ترتيب عجيب لم يسبـق بـه ابـدا ، ولـه مجمـوع سماه (المختــار من كتب أئمــة التفسير والعربيـــة في كشف الغطـــاء عن غــوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية) فقد جمعـه وترجمـه من العربيـة الى الفرنساوية ، وله غير ذلك من المؤلفـات والتراجم ، خصوصـا في اللغة الفارسية ، فانه بارع فيها غاية البراعـةوشهرتـه بـالفضل في بلاد الافرنج لاتنكر ، حتى أنه قد أتحف بعلامـات الشرف من كبار ملوكهم .

واتساع دائرة هذا الحبر في معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل في حق الفارابي ، فيلسوف الاسلام ، من أنه كان يحسن سبعين لسانا ، ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ، فنقول :

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، التركي ، الفارابي ، الحكيم الفيلسوف ، فيلسوف الاسلام الماهر الباهر ، قدم على سيف الدولة بن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع العلوم ، فأدخل عليه ، وهو بزي الاتراك ، وكان ذلك عادته ، فوقف بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس ، فقال : حيث أنت أو حيث أنا ؟ فقال : حيث أنت ! فتخطى رقاب الناس ، حتى انتهى الى مجلس سيف الدولة ، وزاحمه في مسنده حتى أخرجه عنه !! وكان على رأس سيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان يسارهم به قل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : أن هذا الشيخ قد اساء الادب ، وأن مسائله عن أشياء ان لم يعرف بها فأخرجوه ، فقال له أبو نصر ، بذلك اللسان : أيها الأمير ، فإن الامور بعواقبها ، فتعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟! فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لسانا ، فعظم عنده .

ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، ولم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل ، حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقول ! فصرفهم سيف

الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ قال : لا ، قال : فهل تشرب ؟ قال : لا ، قال : فهل تسمع ؟ قال : نعم . فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آلته الا عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : فهل تحسن في هذه الصنعة شيئا ؟ قال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ، ففتحها ، وأخرج منها عيدانا فركبها ، ثم لعب بها ، فضحك كل من في المجلس ، ثم فكها وركبها ولعب بها ، فبكي كل من في المجلس ، ثم فكها وركبها ولعب بها ، فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج !!

وكان منفردا بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك أشجار ورياض ، يؤلف هناك كتبه ، وينتابه المشتغلون عليه ، وكان يلازم غياض السفرجل ، وربما صنف هناك ، وقد ينام فتحمل الريح تلك الاوراق وتنقلها من مكان الى مكان ! . قيل : وهو السبب في نقص بعض مصنفاته ، فانه كان يصنف في الرقاع دون الكراريس .

وكان أزهد الناس في الدنيا ، متقللا منها ، أجرى عليه سيف الدولة في كل يوم أربعة دراهم .

ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا وليس في الصحبة انتفاع

كل رئيس بـــه مـــلال وكل رأس بـــه صـــداع
لــزمت بيتي وصنت عرضـــا بـــه من العـــزة أقتنـــاع
أشرب ممـــا اقتنيت راحـــا لهـــا على راحتي شعـــاع
لي من قـــواريرهـــا نـــدامى ومن قـــواريرهـــا سماع
وأجتني من علـــوم قـــوم قـــد أقفرت منهم البقـــاع

ومنه :

أخي خـــل حيز ذي بـــاطـــل وكن بـــالحقـــائـــق في حيز
فـــا الـــدار دار مقـــام لنـــا ولا المرء في الارض بـــالمعجـــز
ينـــافس هـــذا لهـــذا على اقـــل من الكلم المـــوجـــز
وهـــل نحن الا خطـــوط وقعن على نقطـــة وقـــع مستـــوفـــز
محيـــط العـــوالم أولى بنـــا فـــاذا التزاحم في المركـــز ؟!

توفي ابو النصر الفارابي سنة 339 من الهجرة .

ثم ان الفنون باللغـة الفرنسـاويـة قـد بلغت درجـة أوجهـا ، حتى ان كل علم فيه قـاموس مرتب على حروف المعجم في الفـاظ العلم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسـة الطباخة ، يعني مجلس علماء الطباخة وشعرائهـا ، وان كان هـذا من أنواع الهوس غير أنـه يـدل على اعتنـاء هـذه البـلاد بتحقيـق سائر الاشياء ولو الدنيئة .

وسواء في ذلك الذكور والاناث ، فأن للنساء تأليف عظيمة ، ومنهن مترجمـات للكتب من لغـة الى اخرى مع حسن العبـارات وسبكهـا وجـودتهـا ، ومنهن من يتمثـل بـانشـائهـا ومراسـلاتهـا

المستغرية . ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الامثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها .

ثم العلوم الادبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها واشعارها مبينة على عادة جاهلية اليونان وتأليههم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلا : اله الجمال ، واله العشق ، واله كذا ، فالفاظهم في بعض الاحيان كفرية صريحة ، وان كانو لا يعتقدون ما يقولون ، وانما هذا من باب التمثيل ونحوه . وبالجملة ، فكثير من الاشعار الفرنساوية لا بأس بها ، ولنذكر لك شيئا من بعض اشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

وإذا القلوب تعلقت   رأت الجميع جميلا
كسفينة تسعى الى   شعب يكون مهولا
لهفي على زمن المنا   ان صح كان بخيلا

وقوله مترجما لي :

ودع القلب فيك يا قاتلي   يا خيال المسعد الزائر
ان روحي بالجراح اصطلت   وعلى البئر لست بالقادر
وسروري في الهوى لحة   مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة (نظم العقود في كسر العود) للخواجه يعقوب ، المصري منشأ ، الفرنساوي استيطانا ، وقد اعتنيت

بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنين واربعين[20] ، وأخرجتها من ظلمات الكفر الى نور الاسلام ، قول صاحبها ، ونظمه للعبد الفقير :

زاد بي الحال اذ صفا لي حاني   وغناي بالعود والألحان
باسم ربي والسادة الأعيان   وترنمت شجوة بالحسان
☆ وبسعدي ذات الجبين المفدي ☆
فصغى سمعها الى انشادي   ورمى النار لحظها في فؤادي
فلهذا شعري غدا في اتقادي   وبدا من حماسه في انفراد
☆ لذوي الفهم والمعارف يهدي ☆
أحرق العشق قلبها كاحتراقي   فأتت تطفئ اللظا بالعناق
فتضامنا ضمة المشتاق   وتلائمنا عادة العشاق
☆ فتثنت لتخجل الغصن قدا ☆
شنف السمع من رقيق التغاني   وأستمع يا اخي صوت المثاني
ياخليلي بالله هلا تراني   أنني قد أحييت شعر ابن هاني[21]
☆ بعد أن كان قد توسد لحدا ☆

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر الى ذم العشق وتوابعه ، فقال :

واحيائي واخجلني صار فني   أنني في هوي الملاح أغني
برخيم الغنى كظبي أغن   واوتاري أبتدي وأثني
☆ ما أرى هذا للفضائل أجدى ☆
افأيامي كلها لي عقيبة   أو ما لي عواقب مستقيمة
بل على طاعة الهوى مستديمة   أفما هذه مراق ذميمة
☆ أقتفي هزلها وأرفض جدا ☆

أعلى اجتراع كـــــاس نصيب خـــامـــل ليس كافـــل لاريب
مـــــــع أني والله غير مريب همتي همـــــة الـــــذكي النجيب
☆ تقنص المجد والسوا تتعدى ☆

قال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته ، لا سيما وهي تتأذى من فراقه :

ويح عـــز وســـؤدد نشتريــــه بنـــواح المـــلاح اذ نشتهيـــــه
يــا فؤادي ســل عنـد أي فقيـه يغفر الـذنب من قتـــال بتيـــه
☆ لنوال الفخار علك تهدى ☆
يــا فؤادي قــد أسلمتــك الامور وأبـــاحتـــك متجرا لن يبــورا
أفترضي على الظبـــا أن تجـــورا لست الفيـــك آسفـــا مقهـورا
☆ حيث قديت قلبها الآن قدا ☆

ومن جملة قوله في مدح أفندينا حفظه الله مخاطبا لمصر في هذه القصيدة :

بسيـاســات فيـك أضحى كفيلا بيـــــد دانت من مضى التقبيـــلا
جـــددت في جبينـــك الاكليـلا نضرب غصنـا فيـك حـاز ذيـولا
☆ وأعادت فيه الشبيبة ودا ☆

وقال مخاطبا لولي النعمة حفظه الله تعالى مشيرا الى واقعة المماليك :

فعلـــك الخير بعــده حسن ذكر مستمر على مـــــــدى كل دهر
فــاغتنم حفـظ مشتهي نيـل مصر فلقـد شــابــه دمــا سيف نصير
☆ وغدا في حماك ينفق رفدا ☆

وهذه القصيدة كغيرها من الاشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس في أصلها ، ولكن بالترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علو نفس صاحبها ؛ ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فانه لايمكن ترجمتها الى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حسنها ، بل ربما صارت باردة ، وسيأتي تتميم الكلام على غالب الآداب الفرنساوية والعلوم والفنون .

(1) محمد بن الحسن (837 – 933 م) لغوي وشاعر وأديب أشهر آثاره كتاب ﴿الاشتقاق﴾ ومعجم (الجمهرة) ، وهو الواضع لبذور فن «المقامة» في الأدب العربي .
(2) بالهمزة وسكون الغين وفتح الراء وتشديد الميم وكسر التاء والفتح القاف . (الطهطاوي) .
(3) بتشديد الميم . (الطهطاوي) .
(4) اعظم شعراء اليونان على الاطلاق ، وصاحب الالياذة والاوديسا ، ويرجحون انه عاش في آسيا الصغرى في القرن الثامن قبل الميلاد .
(5) اشارة الى مصنفات في علوم العربية .
(6) اشارة الى شروح وتعليقات وتحقيقات أكتاب الخطيب القزويني في البلاغة .
(7) مصطفى بن عبد الله (1608 – 1657 م) مصنف تركي قضى في تصنيف كتابه هذا عشرين عاما .
(8) هجرية ، وتوافق سنة 1213 م .
(9) هجرية ، وتوافق سنة 1213 م .
(10) هجرية ، وتوافق سنة 1222 م .
(11) هجرية ، وتوافق سنة 1169 م .
(12) هجرية ، وتوافق سنة 1188 .

(13) هجرية ، وتوافق سنة 1261 م .

(14) احمد بن محمد ، الميداني (المتوفي سنة 1124 م) لغوي وأديب ، ترك آثارا هامة في النحو والصرف واللغة ، وكانت نشأته في نيسابور .

(15) شمس الدين احمد بن خلكان (1211 – 1281 م) مؤرخ وأديب ، قضى حياته ما بين سوريا ومصر ، وتراجم كتابه تقف عند أواخر القرن الثالث عشر .

(16) ابو الوليد عبيد الطائي (821 – 898 م) من مشاهير الشعراء العرب ، وله الى جانب ديوانه مختارات (الحماسة) وكتاب (معاني الشعر) .

(17) ابو الطيب احمد بن الحسين (915 – 965 م) من اشهر شعراء العربية ، وهو يتميز بنظر فلسفي طبع بعض شعره ، ولديوانه شروح احدها للمعري .

(18) ينسب الى «زوزن» بين «هراة» و «نيسابور» ، كان عالما بالنحو واللغة ، وله آثار فكرية فيهما ، وبعض آثاره مكتوبة بالعربية والفارسية .

(19) نسبة الى بديع الزمان الهمذاني ، احمد بن الحسين (969 – 1008 م) وعدد مقاماته نحو الخمسين .

(20) هجرية ، وتوافق سنة 1827 م .

(21) ابن هانئ الاندلسي ، محمد بن هاني الازدي (938 – 973 م) يعد في المغرب العربي نظير المتنبي في المشرق ، وهو شاعر الدولة الفاطمية الشيعية في عصر المعز لدين الله الفاطمي .

الفصل الثالث

في تدبير الدولة الفرنساوية

ولنكشف الغطاء على تدبير الفرنساوية ، ونستوفي غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن باريس هي كرسي بلاد الفرنسيس ، وهي محل اقامة ملك فرانسا وأقاربه وعيلته المسماة «البربون»[1] فلا يكون ملك فرانسا الا من هذه العيلة ، ومملكة الفرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرانسا سراية تسمى «التولري»[2] ، والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرانسا بقولهم «كابينة التولري» ، يعني ديوان هذه السراية ، أي ديوان الملك ، ثم أن أصل القوة في تدبير المملكة لملك فرانسا ، ثم للجماعة أهل «شمبر دوبير»[3] يعني ديوان «البير»[4] اي أهل المشورة الاولى ، ثم لديوان رسل العمالات[5] ، ثم أن الديوان الاول ، يعني ديوان «البير» ، هو في قصر بباريس يسمى قصر لقسمبورغ ، والديوان الثاني في قصر بوربون ، ثم يلي ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء ، ثم ديوان يسمى الديوان الخصوصي ، وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى ديوان سر الملك ، وديوان يسمى ديوان

الـدولـة للمشورة ، فحينئـذ ملـك فرانسـا صـاحب قوة تـامـة في مملكته ، بشرط رضاء تلك الدواوين المذكوره ، وله خصوصيـات آخرى سيأتي ذكرها في السياسة الفرنساوية .

ووظيفة أهل ديوان البير تجديد قانون منقود أو ابقاء قـانون موجود على حـالـه ويسمى القـانون عنـد الفرنسـاويـة شريعـة ، فلذلك يقولون : شريعة الملك الفلاني . ومن وظيفـة ديوان البير أن يعضـد حقوق تـاج المملكـة ويحـامي عنـه ويمـانـع سـائر من يتعرض لها ، وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومـة من السنـة في زمن اجتماع ديـوان رسـل العمالات بـاذن ملـك الفرنسيس ، وعـدد أهل ذلـك الـديوان غير منحصر في عـدة مخصـوصـة ، ولا يقبل دخول الانسان فيه الا وهو ابن خمسة وعشرين سنـة ، ولا يشرك في الشورى الا وهو ابن ثلاثين سنة ، ما لم يكن من بيت المملكـة ، والا فبمجرد ولادتـه يحسب من أهـل هـذه الـديـوان ، ويشرك في المشورة حين يبلغ عمره خمسة وعشرين سنة . وكانت وظيفة البيريـة متوارثـة للـذكور ، فيقـدم أكبر الاولاد ، ثم بعـد موته يقدم من يليه ، وهكذا .

ووظيفـة ديـوان رسـل العمالات غير متـوارثـة ، ووظيفتهم امتحـان القـوانين والسيـاسـات والاوامر والتـدبير ، والبحث عن ايراد الدولة ومدخولها ومصرفهـا ، والمنـازعـة في ذلـك ، والممانعـة عن الرعية في المكوس والفرد وغيرها ابعـادا للظلم والجور ، وهـذا الديوان مؤلف من عـدة رجـال ينصبهم أهلي العمالات ، وعـددهم

أربعمائة وثمانيـة وعشرون رسولا ، ولا يقبلون الا بعـد بلوغ كل واحـد منهم أربعين سنـة ، ولا بـد أن يكـون لكل واحــد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة .

وأما الوزراء فانهم متعددون ، فمنهم وزير الامور الداخليـة ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الامــور الخــارجيــة ، ثم وزير البحر والخـارجين من بـلاد الفرنسيس النـازلين ببـلاد يعمرونهـا في غير بــلاد الفرنسيس[6] ، ثم وزير الخــزينـــــة ، ثم وزير الامــور الدينية ، ثم وزير تعليم القنون والصنـائع ، ثم وزير التجـارات . ووزير الامور الداخلية نظير الكتخدا ببر مصر ، ووزير الخزينة نظير الخـازنــدار ، ووزير التجــارات نظير نــاظر التجــارات ، ووزير الامور الخارجية نظير رئيس افندي بالـدولـة العثمـانيـة . ووزير الحرب نظير نـاظر عمـوم الجهـاديـة ، وهكـذا ، غير انــه عندنا ليس وزيرا ، وعندهم يعدونه من الوزراء .

وأما الديوان الخصوصي فانه تخصيص الملـك لجمـاعـة بمشورتـه أيامٍ على مادة مخصوصة ، والغالب على أهل هـذا الـديوان كونهم من أقاربه ووزرائه .

وأمـا ديـوان سر الملـك فـانـه يتـألف من وزراء السر ، ومن اربعـة وزراء اخرين لهم وزارة مطلقـة ، ثم جمـاعـة من أربــاب المشورة في الدولة .

واما ديوان الدولة فانه يتألف ممن يعينـه الملـك من أقـاربـه من الـوزراء التسعـة الكاتمين سر الـدولـة ، ثم من وزراء الـدولــة

المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ليتعلموا تدبير الدول .

ومن ذلك يتضح لك ان ملك فرانسا ليس مطلق التصرف ، وان السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد ، بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط ان يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها اهل الدواوين ، وان ديوان البير يمانع عن الملك ، وديوان رسل العمالات يحامي عن الرعية .

والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذي الفه لهم ملكهم المسمى لويز[7] الثامن عشر ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم ، وفيه امور لا ينكر ذووا العقول انها من باب العدل . والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة ،[8] ومعناها في اللغة اللاطينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل اساس العمران .

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء ، او في ضده ، من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والايامي مفتاح الفقر . والحلم

حجاب الآفات . وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ، وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على اجسام الرعايا لا على قلوبهم ! وقال بعضهم : ابلغ الاشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل . وقيل : اذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطاع ، ان المولى اذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذره في مخالفته . وقال بعضهم شعرا يفيد ان النصر يتوقف على العدل :

تروم ولاة الجور نصرا على العدا ... وهيهات يلقى النصر غير مصيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه ... سهام دعاء من قسى قلوب

وقال آخر :

لا يفلح المغتال والظلوم ... والبغي مرعى نبته وخيم
فضجع الظالم بئس المضجع ... ومصرع الباغي فبئس المصرع
ان القصاص واقع بالمثال ... والدهر يجزي بيسير الفعل

وفي هذا القانون عدة مقاصد ، المقصد الأول : (الحق العام للفرنساوية) ، الثاني : (كيفية تدبير المملكة) ، الثالث : (في منصب ديوان البير) . الرابع : (في منصب ديوان رسل العمالات الذين هم امناء الرعايا ونوابهم) ، الخامس : (في منصب الوزراء) ، السادس : (في طبقات القضاة وحكمهم) ، السابع : (في حقوق الرعية) ، قال صاحب الشرطة المذكورة :

«الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم»

«**المادة الأولى** : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة .

المادة الثانيــة : يعطون من اموالهم ، بغير امتيـاز ، شيئـا معينا لبيت المال ، كل انسان على حسب ثروته .

المادة الثالثـة : كل واحـد منهم متـأهل لاخـذ اي منصب كان وأي رتبة كانت .

المادة الرابعة : ذات كل واحـد منهم يستقل بهـا ، ويضمن له حريتها ، فلا يتعرض له انسـان ، الا ببعض حقوق مـذكورة في الشريعة ، وبالصورة المعينة التي يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل انسان موجود في بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يجب لا يشاركه احـد في ذلـك ، بل يعـان على ذلـك ، ويمنع من يتعرض له في عبادته .

المـادة السـادسـة : يشترط ان تكـون الـدولـة على الملـة القاثوليقية الجوارية الرومانية .

المـادة السـابعـة : تعمير كنـائس القـاثـوليقيــة وغيرهم من النصرانية يدفع لها شيء من بيت مال النصرانية ، ولا يخرج منـه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين .

المادة الثامنة : لا يمنع انسان في فرانسا ان يظهر رأيه، وان يكتبه، ويطبعه، بشرط ان لا يضر ما في القانون، فاذا ضر ازيل.

المادة التاسعة : سائر الاملاك والاراضي حرم ، فلا يتعدى احد على ملك آخر .

المادة العاشرة : للدولة ، دون غيرها ، ان تكره انسانا على شراء عقاره ، لسبب عام النفع ، بشرط ان تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء .

المادة الحادية عشر : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد.

المادة الثانية عشر : اخذ العساكر قد يترتب وينقص عما وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر .

«كيفية تدبير المملكة الفرنساوية» الملك

المادة الثالثة عشر : ذات الملك محترمة ، ووزراؤه هم الكفلاء في كل ما يقع ، يعني هم الذين يطالبون ويحكم عليهم ، ولا يمكن أن يمضي حكم الا اذا أنفذه أمر الملك .

المادة الرابعة عشر : الملك هو أعظم أهل الدولة ، فهو الذي يأمر وينهي من عساكر البر والبحر ، وهو الذي يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذي يولي المناصب الاصلية ، ويجدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ، ويمضيه اذا كان فيه منفعة للدولة .

المادة الخامسة عشر : تدبير امور المعاملات بفعل الملك وديوان البير وديوان رسل العمالات .

المادة السادسة عشر : يقرر الملك وحده جزاء القوانين ، ويأمر باعلانها واظهارها .

المادة السابعة عشر : يبعث القانون ، بأمر الملك ، الى ديوان البير اولا ، ثم الى ديوان رسل العمالات ، الا قانون الجبايات والفردة فانه يبعث اولا الى ديوان رسل العمالات .

المادة الثامنة عشر : تنفذ الدولة القانون اذا رضي به جمهور كل من الديوانين .

المادة التاسعة عشر : لاحد الديوانين أن يلتمس من الملك اظهار قانون في أمر كذا ، وان يبين له فائدة وضع ذلك القانون .

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين في مجلس سري ، وما صنعه أحد الديوانين ، واستقر رأيه عليه ، يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة ايام .

المادة الحادية والعشرون : اذا رضي الديوان الآخر بالقانون فإنه يسوغ عرضه على الملك ، فاذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له ، اي لذلك الديوان مدة اجتماعه في هذه السنة .

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذي يأذن بالقانون ويظهره للرعية .

الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة مملكته على كيفية واحدة لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان البير ، يعني ديوان المشورة الاولى ، ديوان البير .

الرابعة والعشرون : ديوان البير هو جزء ذاتي لتشريع القوانين التدبيرية .

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر ، بأمر الملك ، في زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العمالات ، فيفتحان معا في يوم واحد ويغلقان لذلك .

السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان البير قبل انفتاح ديوان رسل العمالات أو أذن ملك فرانسا كان سائر الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء وملغيا .

السابعة والعشرون : تسمية الشخص بير فرانسا هو حق الملك ، وعدد أهل ديوان البير غير محدود ، وللملك أن يلقب البير بأي لقب كان ، وله أن يحمل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله متوارثا لذريته .

الثامنة والعشرون : يمكن أن يدخل البير في الديوان وهو ابن خمسة وعشرين سنة ولا يبدي رأيه في المشورة الا بعد بلوغه في السن ثلاثين سنة .

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان البير هو قاضي قضاة فرانسا ، «مهردار» ملكها ، اي وزير لخاتم ملكها ، فان اعتذر خلفه من اهل الديوان من يعينه الملك لذلك .

الثلاثون : أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول في مرتبة البيريه بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان ، ولا يكون لهم كلمة ورأي في المجلس الا بعد بلوغهم في السن خمسة وعشرين سنة .

الحادية والثلاثون : لا يمكن لاحد من أهل مجلس البير أن يدخل في ذلك الديوان عند انفتاحه الا باذن من الملك ، بأن يبعث رسولا ، فان لم يفعلوا ذلك كان ما فعل بحضرتهم لا غيا .

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان البير يجب كتمها عن غيرهم .

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذي يستقل بالقضاء على الخيانة في الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر في القوانين .

الرابعة والثلاثون : لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان البير الا بأمر ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم في مواد الجنايات .

(ديوان رسل العمالات ، الذين هم وكلاء الرعية)

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون[9] الذين يقال لهم اللكتور[10] وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة .

السادسة والثلاثون : كل العمالات تبقى على ما هي عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل .

السابعة والثلاثون : من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات ، لا خمسة كما كانت .

الثامنة والثلاثون : لا يصلح الانسان للدخول في ديوان الرسل الا اذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فردة .

التاسعة والثلاثون : لا بد أن يجمع في كل عمالة خمسون ألف نفس ، موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران ، ليختار الرسل منها ، فان لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها ممن لهم أملاك يدفعون عليها دون ألف فرنك ، ثم اختيار رسل من جملة الخمسين .

الاربعون : شرط اللكتور أي المنتخب للرسل أن لا يسمع الا اذا كان له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك ، وان يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سنة .

الحادية والاربعون : رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ، فيدخلون في أهل هذا المجلس .

الثانية والاربعون : يجب أن يكون نصف رسل العمالات فصاعدا مستوطنا عادة في تلك العمالة .

الثالثة والاربعون : رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان .

الرابعة والاربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية الا اذا اراد خمسة من رسل العمالات كتم شيء فإنه يجوز اخراج الناس الاجانب من الديوان .

الخامسة والاربعون : الديوان ينقسم الى دواوين صغيرة

تسمى «البورو» يعني مكاتب ، فأهل هذه «البورو» تمتحن الاشياء التي ينوبها الملك ويبعثها لها .

السادسة والاربعون : لا يقع تصليح شيء في آداب سياسات فرانسا ولا يمضى الا اذا رضي به الملك وبحث فيه في تلك الدواوين الصغيرة .

السابعة والاربعون : ديوان رسل العمالات يتلقى تقارير طلب الفرد والمكوس ، ولا تصل الى ديوان البير الا اذا رضي بها ذلك الديوان .

الثامنة والاربعون : لا يمكن أن ينفذ امر الملك في الفرد الا اذا رضي به الديوانان ، وأقره الملك .

التاسعة والاربعون : فردة العقار لا تقطع الا سنة فسنة ، ويمكن قطع غيرها لاجل معلوم .

الخمسون : على الملك ان يأمر بفتح الديوانين كل سنة ، ولكن متى أراد ، وله أن يبطل ديوان رسل العمالات بشرط أن يصنع ديوان رسل جديد ، وأن لا يزيد في تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر .

الحادية والخمسون : لا يمكنت أن يقبض أحد على انسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان وشهرا قبل فتحه وشهرا ونصفا بعده .

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يتبع أحد من اعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ما دام الديوان مفتوحا

وما دام اجتماع الديوان ، الا اذا أخذه على فعله في وقته وأذن الديوان بأخذه .

الثالثة والخمسون : عرض الحال الذي يعرض على أحد الديوانين لا يقبل الا اذا كان مكتوبا ، وآداب السياسة الفرنساوية لا تجوز أن يقدم الانسان تقريرا في المجلس .

«الوزراء»

المادة الرابعة والخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين . وله زيادة على ذلك حق الحضور في أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم في الديوان وجب أن يصغى الى كلامه .

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه في ديوان البير ليحكم بينهم ذلك الديوان ، فيفصل خصومتهم .

السادسة والخمسون : لا يتهم الوزير الا بخيانة في التدبير بالرشوة أو باختلاس الاموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر في القوانين المخصوصة .

«طائفة القضاة»

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك ، الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتون الحكم باسم الملك .

الثامنة والخمسون : اذا ولى الملك قاضيا وجب ابقاؤه ولا يجوز عزله .

التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر .

الستون : اقامة قضاة المعاملات لا يمكن ابطالها أبدا .

الحادية والستون : اقامة قضاة للمصالحة تبقى أيضا ، ولكن قاضي المصالحة يجوز عزله ، وان كان منصبه يأتي له من الملك .

الثانية والستون : لا شيء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة .

الثالثة والستون : لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم او مجالس زائدة الا بجمع قضاة النقباء يقال لهم «بريوتال» اذا احتاج الامر الى ذلك .

الرابعة والستون . اقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعي تكون على رؤس الاشهاد في مواد العقوبات الا اذا كان الذنب مضرا اشهاره بين العامة او مخلا بالحياء فان أهل الحكمة يخبرون الناس بأن هذا الامر يقع سرا .

الخامسة والستون : اقامة الجماعة المحكمين المسماة «جورية الجنايات» لا تبطل أبدا ، واذا لزم تغيير بعض شيء في مواد القضاء لا يمكن اذا كان بقانون من الديوانين .

السادسة والستون : قانون معاقبة الانسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد ابطل بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبدا .

السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الانسان وأن يخفف مواد العقوبات .

الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التي عليها العمل ، الغير المناقضة لما في هذه الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها الا اذا تغير بقانون آخر .

«حقوق الناس التي يضمنها الديوان»

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة او متروكين لوقت الحاجة وكل النساء المتوفي عنهن أزواجهن وهم في العسكرية تبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخرجهم .

السبعون : ديون الرعية التي في ذمة الديوان هي مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديوان .

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لاهل الشرف القديم من درجات الشرف الا الاسم فقط ، وكذلك لارباب الشرف الجديد ، ثم لملك فرانسا أن يعطي درجة الشرف الفرنساوي لاي انسان شاء ، ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية .

الثانية والسبعون : من له علامة التميز المسماة درجة «الشوالية» ، يعني الفارس في فنه ، فانه له أن يحفظها على الصورة التي يعينها ملك فرانسا لهذه الدرجة .

الثالثة والسبعون : من له علامة التميز المسماة درجة «الشوالية» ، وللاستيطان بها تكون مدبرة بقوانين وسياسات اخرى .

الرابعة والسبعون : لكل ملك من ملوك فرانسا أن يحلف عند توليه المملكة الفرنساوية أن يحيد عن هذه الشرطة .

«ثم ان هذه الشرطة قد جعل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الاخيرة الحاصلة سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وألف بتاريخ الميلاد فراجعها في باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة . انتهى .

فاذا تأملت رأيت أغلب ما في هذه الشرطة نفسيا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول : قوله في المادة الاولى : «سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة» معناه سائر من يوجد في بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون ، حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظرا الى اجراء الاحكام ، ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحاضرة ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق

عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها وفيها توالي الصفا والوفا

وبالجملة ، اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي ، لا عدل كلي حقيقي ، فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فانه كالايمان الكامل والحلال الصرف وامثال ذلك ونظائره ، فلا معنى لحصر المستحيل في الغول والعنقاء والخل الوفي ، كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم خل وفي للشدائد اصطفى
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

مع أن ذلك ممنوع في العنقاء فانها نوع من الطيور موجود الافراد يذكره أرباب علم الحشائش ، وذكر الثعلبي في قصص الانبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في تكذيبها بالقدر ، نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والافرنج من انها من اعلاها عقاب ومن اسفلها اسد ! وعلى كل حال فلها في الجملة وجود .

وأما المادة الثانية فانها محض سياسة ، ويمكن أن يقال أن الفرد ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هو في تلك

البلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، او كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها أصل في الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الاعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك . ومدة اقامتي بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم ، خصوصا وأصحاب الاموال في أمان من الظلم والرشوة .

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده ، قيل : سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تنقطع عرق الطمع ، وتجعل كل انسان راضيا صنعته ، لا يتمنى أعلى منها ، بل لا يبحث الا عن

اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها . انتهى .
ويرد عليه أنه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا في هذه الصنعة والحال أنه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله .

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء .

وأما المادة الثامنة فانها تقوي كل انسان علىأن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لايضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات ، والكازيطات . الاولى جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية او خارجية ، أي داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى الا انها قد تتضمن أخبارا تتشوق نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق او تنبيهات مفيدة او نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها ! وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيته فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس في انسان

ومن فوائدها أن الانسان اذ فعل فعلا عظيما أو رديئا ، وكان من الامور المهمة ، كتبه أهل الجرنال ليكن معلوما للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وليرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر .

واما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف ، وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعاف ، وتعقيبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة .

وفي المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهي ان تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب المرتبة الاولى : الملك مع وزرائه ، والثانية : مرتبة البيرية الحامية للملك ، والثالثة : مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحابون عنهم ، حتى لا تظلم من أحد ، وحينما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، أو هي آمنة منه بالكلية . ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد .

خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة 1831
وتصليح الشرطة
حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم
مضمون الشرطة بعد التغيير

الفرنساوية مستوون في الاحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والغنى ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا في الاجتماع الانساني والتحضر فقط ، لا في الشريعة ، فلذلك كان جميعهم يقبل في المناصب العسكرية والبلدية ، كما انه يعين الدولة من ماله على قدر حاله ، وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا في الصور المذكورة في كتب الاحكام . ومن قبض على انسان في صورة غير منصوصة في الاحكام يعاقب عقوبة شديدة ، ومن الاشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية ان كل انسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ، ويعاقب من تعرض لعابد في عبادته ، ولا يجوز وقف شيء على الكنائس او اهداء شيء لها الا باذن صريح من الدولة ، وكل فرنساوي له ان يبدي رأيه في مادة السياسات أو في مادة الاديان ، بشرط ان لا يخل بالانتظام المذكور في كتب الاحكام .

كل الاملاك على الاطلاق حرم لا يهتك ، فلا يكره انسان أبدا على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط اخذ – قبل التخلية – قيمته ، والمحكمة هي التي تحكم .

بذلك كل انسان عليه أن يعين في حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى أنه كل سنة يجمع اولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لأخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة خدمة العسكرية ثمان سنوات ، وكل فرنساوي عمره ثمانية عشر سنة وله حقوق البلدية فانه يمكنه ان يتطوع ويدخل العسكرية ، ويعافى من العسكرية عدة اناس : الاول من طوله دون متر وخمسة وسبعون سنتمتر ، يعني أربعة أقدام وعشرة برامق ، الثاني : أصحاب العلل ، الثالث : الابن أكبر الاخوات الايتام من أبيهم وأمهم ، الرابع : الابن البكري أو المنفرد أو ابن الابن الاكبر او المنفرد عند فقده اذ كانت الام أو الجدة لا زوج لها أو كان أبوه اعمى أو سنه سبعين سنة ، الخامس : البكري احد الاخوين الذين وقعا في قرعة لمة[11] واحدة ، السادس : الأخ الذي اخوه فاضل[12] تحت البيرق ، أو مات في الخدمة ، أو جرح بجرح في الحرب ، ولو أراد انسان أن ينوب عنه غيره فان المنوب يضمن النائب سنة من خوف الهرب الا اذا كان الهارب قبض عليه في السنة أو مات تحت بيرق الفرنساوية ، وفي احد وعشرين في شهر ديسمبر من كل سنة كل العساكر التي تمت خدمتهم يأذن لهم بالعودة الى محالهم .

ولما كان لا يمكن لكل انسان ان يدخل بنفسه في عمل الدولة وكلت الرعية بتمامها عنها في ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلا تبعثها الى باريس في المشورة ، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم

بأن يمانعوا عن حقها ويضعوا ما فيه مصلحة لها ، وذلك أن كل فرنساوي مستكمل للشروط التي منها ان يكون عمره خمسة وعشرين سنة له ان يكون ممن له مدخل في انتخاب رسل عمالاته ، وكل فرنساوي له ان يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، ويكون موصوفا بالشروط المذكورة في كتاب الاحكام . وفي كل مامورية مجمع اختيار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للاقاليم الصغيرة ، ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار وتعين 172 رسولا ، ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين 258 رسولا ، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب في الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب ، حتى انه يمكن لكل انسان ان يكتب اعلاما به ، وكل منتخب[13] رأيه سرا في ورقة ، ويعطيها للرئيس ، مطوية ، والرئيس يضعها في اناء القرعة . وديوان رسل العمالات يتجدد اهله بالكلية كل خمس سنوات . ولا يمكن اخذ الرد الا بخلاصة من مشورة الديوانين ، مقررة من طرف الملك . ويمكن لأهل البلدان أن يراسلوا أهل الديوانين بطرق العرضحال ليشتكوا من شيء ، أو يعرضوا شيئا نافعا .

القضاة لا ينعزلون ولا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيطانه ، والدعاوى تقام جهرا ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جماعة يسمون الجوريين ،[14] والعقوبة على الاموال بطلت . للملك ان يعفوا عن المعاقب الموت ، وأن يخفف العقاب الشديد .

على الملك وورثته أن يحلفوا ، عند ارتقاء الكرسي ، بأن يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة .

ثم انه يطول علينا ذكر الاحكام الشرعية او القانونية المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، انما هي مأخوذة من قوانين اخر غالبها سياسية ، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنساوية ، اي حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الافرنج مختلفة .

ثم ان بباريس عدة محاكم ، وفي كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضاة ، وحوله رؤساء وأرباب مشورة ووكلاء الخصوم ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين وموقع الوقائع .

من ادعى أن له حاجة تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا فانه ضر بلا نفع

(1) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم الباء الثانية . (الطهطاوي) .
(2) بضم التاء وكسر الراء . (الطهطاوي) .
(3) بفتح الشين وسكون الميم . (الطهطاوي) .
(4) بفتح الموحدة . (الطهطاوي) .
(5) المقاطعات .
(6) أي شئون ما وراء البحار .
(7) بضم اللام وكسر الواو . (الطهطاوي)

(8) من الكلمة الفرنسية [La charte]

(9) بكسر الخاء . (الطهطاوي) .

(10) بكسر اللام المشددة وسكون الكاف . (الطهطاوي) .

(11) اي دفعة واحدة من دفعات التجنيد .

(12) اي باق ومستمر .

(13) بكسر الخاء . (الطهطاوي) .

(14) اي المحلفين .

الفصل الرابع

(في عادة سكنى اهل باريس وما يتبع ذلك)

من المعلوم أن البلدة او المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر انسان انها تجلب الانس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الامم الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهي أعظم أدبا وعمرانا . والبنادر اولى في العمارات عادة من القرى ومن الضياع ، والمدن العظمى اولى من سائر البنادر ، وتخت المملكة اولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة ، فحينئذ لا عجب ان قيل : ان باريس ، التي هي قاعدة ملك الفرنسيس ، من أعظم بلاد الافرنج بناء وعمارة ، وان كانت عماراتها غير جيدة المادة ، فهي جيدة الهندسة والصناعة ، على انه ربما يقال ايضا : ان مادتها جيدة ، الا انها ناقصة ، لقلة كثرة حجر الرخام فيها ، وبخلوها عن بعض أشياء أخر ، وكيف لا ، واساس حيطانها من احجار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، واما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيد

في الغالب ، واما عواميدها فهي غالبا من النحاسة ، فقل ان كانت من الرخام ، كما ان تبليط الارض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الاسود مع البلاط ، وذلك ان الطرق دائما مبلطة دائما بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالآجر او بالخشب او بالمرمر الاسود مع البلاط المشغول ، وجودة الحجر او الخشب تختلف باختلاف يسار الانسان ، ثم ان حيطان الغرفات والارض من خشب ، كما تقدم ، وهم يطلونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا نظيفا ، فهو احسن من عادة تبيض الحيطان بالجير ، فان الورق لا يعود منه شيء على من مس الجدار بخلاف الجير ، بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا وأسهل فعلا ، خصوصا في اوضاتهم المزينة بأنواع من الامتعة التي لا يمكن الافصاح عنها .

غاية ما يقال : ان الفرنساوية يحاولون أضعاف نور الارض بوضع الستائر الملونة ، خصوصا الخضراء ، وارض اوضهم مبلطة بخشب او بنوع من القرميد الاحمر ، ويحكون أرض الاوضة كل يوم بالشمع الاصفر المسمى عندهم شمع الحك ، وعندهم حكاكون بالاجرة معدون لذلك بالخصوص ، وتحت اسرتهم المكسوة بالمخشيات وبالمسجرات وغيرها سجادات عظيمة يطؤنها بالنعال ، وفي كل اوضة مدخنة للنار ، وهي على شكل صفة القلل ، مرخمة بجيد الرخام ، وفوقها ساعة «بشتخته» ، وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الابيض اومن البلور فيها ازهار

او تقليد ازهار ، وحول هذا من الجهتين من القناديل الافرنجية الدولابية التي لا يدرك صورتها حقيقة الا من رآها موقودة ، وفي غالب أوضهم آلة الموسيقا المسماة البيان[1] فاذا كانت الاوضة اوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج او البقس[2] أو غيرهما ، وأغلب الاوض مشحون بالصور ، خصوصا صور الاقارب ، وفي أوضة الشغل أيضا قد توجد صور عجيبة وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم ، وربما رأيت على طاولة الشغل اوراق الوقائع علي اختلاف اجناسها ، وربما رأيت أيضا في اوض الاكابر النجفات العظيمة التي توقد بشموع العسل ، وربما رأيت أيضا في اوضهم في يوم تلقى الناس[3] طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من اراد من الضيوف أن يسرح ناظره وينزه خاطره في قراءة هذا الأشياء ، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهي أنسهم ، ومن التوقيعات اللطيفة : الكتب وعاء ملىء علما ، وظرف حشي ظرفا ، ومن لك بروضة تقلب في حجر وبستان يحمل في كم . وما أحسن قول بعضهم شعرا :

دفتري مؤنسي وفكري سميري ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطشي قريضي ودواتي عيشي ودرجي ربيعي

وقال آخر :

لنا جلساء ما يمل حديثهم ألباء مأمونون غيبا ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى   وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا
فأن قلت أمواتا فما أنت كاذب   وان قلت أحياء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكيا أحسن تبسما من القلم .

ثم أن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت ، أي زوجة صاحبه ، التي تحي الضيوف اصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية . فأين هذه الاوض بما احتوت عليه من اللطائف من اوضنا التي يحي فيها الانسان باعطاء شيق الدخان من يد خادم في الغالب أسود اللون !

واما السقوف فانها من الخشب النفيس ، ثم ان البيت في العادة مصنوع من أربع طبقات بعضها فوق بعض ، ما عدا البناء الارضي فلا يحسب دورا ، وقد يصل الى سبعة ادوار ، وغيرها تحت الارض من المخادع التي تستعمل أيضا لربط الخيل او المطبخ او ذخائر البيت وخصوصا النبيذ والخشب للوقود ، ثم ان البيت عندهم ، كما في بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة مساكن مستقلة ، ففي كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ الاوضات .

وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت الى ثلاثة مراتب : المرتبة الاولى : بيت عادي ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك واقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالاول يسمى بيتا ، والثاني يسمى دارا ، والثالث يسمي قصرا او سراية ،

ويمكن ايضا تقسيم البيوت من حيثية اخرى الى ثلاثة مراتب ايضا ، المرتبة الاولى : البيوت التي لها حاجب ، ولها باب كبير يسع دخول العربة منه ، والثانية ، البيوت التي داخلها دهاليز ، ولها بواب ، ولا يمكن ان تدخل العربة من بابها ، والثالثة : البيوت التي لا بواب لها ، اي لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ، ووظيفته البواب في باريس ان ينتظر الساكن الى نصف الليل ، فاذا اراد الساكن ان يسهر في المدينة زيادة عن نصف الليل فعليه ان ينبه البواب لينتظره ، ولكن لا بد أن يعطيه بعض شيء ، وليس على الحارات بواب اصلا ، وليس لها أبواب كما في مصر ، ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكراء حتى ان الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعني نحو ثلاثة ملايين قروش مصرية ، ثم ان كراء المساكن في باريس قد يكون لمجرد المسكن ، وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم وجميع اثاثها وآلاتها . وآلات البيت عند الفرنسيس هي آلات الطباخة والمأكل بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها ، وآلة الفراش للنوم ، وهو في الغالب عدة طراحات احداها من الريش ، وملاية فرشه تتغير كل شهر ، وحرامات[4] الغطاء ، ثم آلات التجمل وتلقي الزوار ، وهي الكراسي المكسوة بالحرير المشغول ونحوه ، والسدلات[5] المكسوة كذلك ، والكراسي العادية والآلات العظيمة المنظر كالساعات الكبيرة المسماة عندهم بندول . وكأواني الازهار العظيمة وغيرها من أواني القهوة المموهة

بالذهب ، وكالنجفة المعلقة التي تتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التي لهاباب من القزاز يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد ، وكل انسان له خزنة كتب ، سواء الغني والفقير ، حيث ان سائر العامة يكتبون ويقرؤون .

والغالب ان الرجل ينام في اوضة غير التي تنام فيها زوجته ، اذا تقادم الزواج .

ومن العوائد التي لا بأس بها أن قصر ملك فرانسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة الى الاقامة في الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الاشياء الغريبة ، ولكن لا يدخل أحد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص او شخصين او اكثر ، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس ، فاذا طلبها الانسان ممن يعرفه اعطاها له ، فترى في البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما في حريم الملك وأقاربه ، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته من الامور العجيبة التي ينبغي التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور التي لا تمتاز عن الناس الا بعدم النطق ، وفيه صور كثير من ملوك فرانسا وكل أقارب السلطنة ،، وكل الاشياء الغريبة ، وأغلب الاشياء الموجودة في حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لنفاستها بالمادة ، مثلا سائر الفراش كالكراسي والاسرة ، حتى كراسي المملكة ، مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ومطليه بالذهب ، الا انه لا يوجد بها كثير من الاحجار الكريمة

كما يوجد ببلادنا بيوت الامراء الكبار بكثرة ، فمبنى امور الفرنساوية في جميع امورهم على التجمل لا على الزينة واظهار الغنى والتفاخر .

ثم سائر الاغنياء بباريس تسكن في الشتاء في نفس المدينة ، وقد اسلفنا في ذكر طبيعة اقليم باريس ان كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران في القيعان والاوض ، واما مدة الحر فان من له يسار يسكن في الخلاء لان القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل ومن الناس من يسافر في بعض بلاد فرنسا او ما جاورها من البلاد ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها ، خصوصا من مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل او مدة الفراغ ، يعني البطالة ، حتى النساء فانهن يسافرن وحدهن او مع رجل يتفق معهن على السفر ويتفق عليه مدة سفره معهن ، لان النساء ايضا متولعات بحب المعارف والوقوف على اسرار الكائنات والبحث عنها ، او ليس انه قد يأتي منهن من بلاد الافرنج الى مصر ليرين غرائبها من الاهرام والبرابي وغيرها ، فهن كالرجال في جميع الامور ، نعم قد يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من انفسهن الاجنبي ، وهن غير متزوجات ، فيشعرن بالحمل ويخشين من الفضيحة بين الناس فيظهرن السفر لمجرد السياحة او لمقصد آخر ليلدن ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى في البلاد الغريبة ومع هذا الامر فليس بشائع ، وبالجملة ، ما كل بارقة تجود بمائها ! ففي نساء الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من

هي بضـد ذلـك ، وهو الاغلب ، لاستيـلاء في العشـق في فرانسـا على قلوب غالب النـاس ،ذكورا وانـاثـا ، وعشقهم معلل لأنهم لا يصـدقون بـأنـه يكون لغير ذلـك ، الا انـه قـد يقع بين الشـاب والشابة فيعقبه الزواج .

ومما ينبغي ان يمدح به الفرنسـاويـة نظـافـة بيوتهن من سـائر الاوساخ. وان كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنـك كلا شيء، فـان أهل الفلمنك أشد جميع الامم نظافة ظاهريـة، كما ان أهل مصر في قـديم الزمـان كانـو أيضـا أعظم أهـل الـدنيـا نظـافـة، ولم يقلـدهم زراريهم وهم القبطـة في ذلـك، وكما ان بـاريز نظيفـة فهي خليـة أيضا من السميات، بل ومن الحشرات، فلا يسمع بان انسانـا فيهـا لدعتـه عقرب أبـدا، وتعهـد الفرنسـاويـة تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكهن الموضوعـة بالهندسة وضعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجهـا وظرفات الشبابيـك دائمـا من القزاز حتي اذا أغلقت فـان النور لا يحجب أصـلا، وفـوقهـا دائمـا الستـائر للغني والفقير، كما أن ستـائر الفرش التي هي نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس.

(1) بكسر الباء وضم النون . (الطهطاوي) .

(2) أخشاب نوع من الشجر بطيء النمو ، يزرع في أوربا وآسيا .

(3) أي استقبالهم في المناسبات .

(4) بطاطين .

(5) الستائر . .

الفصل الخامس

(في أغذية أهل باريس وفي عاداتهم في المآكل والمشارب)

اعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة ، وهي في الغالب صغيرة الحبوب الا اذا كانت منقولة من البلاد الغريبة ، فيطحنونها في طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران ، فيباع الخبز في دكانه . وسائر الناس لها ترتيب يومي تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه ، لان سائر الناس مشغولون في اشغال خاصة ، فصناعة العيش في البيوت تشغلهم ، ثم ان «المحتسب»[1] يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفي المدينة ، وفي الحقيقة لا يمكن فقد العيش أبدا بمدينة باريس ، بل ولا فقد غيره من امور الاغذية .

وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضروات والالبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدد الاطعمة ، ولو عند الفقراء ، ثم ان المذابح عندهم تكون باطراف المدينة لا داخلها ، وحكمة ذلك أمران : دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم اذا انفلتت ، وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فانه أهون من ذبح غيره ، فانهم ينفذون لسكين وراء زوره ، يعني بين زوره ورقبته ، ثم

يقطعونه ، بعكس ما نفعل ، وأما ذبح العجول فانه مثله ، وأما الثيران فانهم يضربونها بمقامع من حديد في وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ثم يكررون ذلك مرات فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن . ولقد بعثت خادما لي مصريا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتي فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الامر جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا في بلاد الافرنج والا لذاق العذاب كالثيران التي رآها ! والعجول والثيران تكون من البقر، اذ لا وجود للجواميس بهذه البلاد الا للفرجة ، واما ذبح الطيور فانهم يذبحونها على أنواع مختلفة من الذبح ، فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه ، الى غير ذلك . وأما الارانب فانه لاتذبح أبدا ، بل تخنق ليحقن فيها دمها . وأما ذبح الخنازير فلم أره لان له مذبحا مخصوصا ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول .

ثم من الامور التي بها راحة للناس بمدينة باريس محال الاكل المسماة «الرسطراطور» أي «اللوكنجة» فانها مستوفية لما يجده الانسان في بيته ، بل اعظم ، وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضرا ، وفي هذه «الرسطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد في «الرسطراطور» أنواع المآكل والمشارب

يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل ، وعادة الفرنساوية الاكل في طباق كالطباق العجمية او الصينية لا في آنية النحاس ابدا ، ويضعون على السفرة دائما قدام كل انسان شوكة وسكينا وملعقة . والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون ان من النظافة او الشلبنة[2] ان لا يمس الانسان الشيء بيده ، وكل انسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح ، فيصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب ، فلا يتعدى احد على قدح الآخر ، فأواني الشرب دائما من البلور والزجاج ، وعلى السفرة عدة أواني صغيرة من الزجاج احدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفي الثالث خردل الى آخره . وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جدا ، وابتداء المائدة عندهم الشوربة واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الاكل بدل الماء ، وفي الغالب خصوصا لاكابر الناس ، يشرب من النبيذ قدرا لايسكر به أبدا . فان السكر عندهم من العيوب والرذائل . وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من «الغرقى»[3] ، ثم انهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرا في اشعارهم ، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب اصلا ، فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتخيلون في ذلك معاني ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى ، وهي هزليات في مدح الخمرة لا تدخل في الادبيات الصحيحة في شيء أصلا ، ويكثر في

باريس شرب الشاي عقب الطعام لانهم يقولون انه هاضم للطعام ، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفي عوائد أغلب الناس أن يفتتوا الخبز في القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطونها في الصباح . واذا أردت بعض شيء يتعلق بالمآكل والمشرب فراجع فصل المأكل والمشرب في ترجمتنا كتاب (قلائد المفاخر) .

ثم ان الغالب ان ما يقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبه : فمن الخبز ابلغ من خمسة وثلاثين مليون فرنك ، ومن اللحوم تأكل نحو واحد وثمانين الف ثور واربعمائة وثلاثين ثورا ، ومن البقر نحو ثلاثة عشر الف بقرة ، ومن الضأن اربعمائة وسبعين الف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والاهلية نحو مائة ألف خنزير ، ومن السمن بنحو عشرة ملايين فرنك ، ومن البيض بنحو خمسة آلاف فرنك .

ومن غرائب الاشياء ان فيها التحيل على عدم عفونة الاشياء التي من شأنها العفونة ، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمسة سنين من غير تغير ، وادخار اللحم طريا عشرة سنوات ، وادخار الفواكه لوجودها في غير أوانها ، ومع كثرة تفننهم في الاطعمة والفطورات ونحوها فطعامهم ، على الاطلاق ، عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة الا في الخوخ .

واما خماراتها فانها لا تحصى ، فما من حارة الا وهي مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها الا اراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه :

الشراب ، الشراب ، ومع ذلك فلا يقع منهم في سكرهم أضرار أصلا ، وقد اتفق لي ذات يوم وأنا مار في طريق باريس أن سكرانا صاح قائلا : يا تركي ، يا تركي ، وقبض بثيابي ، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه وأجلسته على كرسي وقلت لرب الحانوت ، على سبيل المزح : هل تريد أن تعطيني بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا ؟! فقال صاحب الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرف في النوع الانساني ! فما كان جوابي له الا أنني قلت : ان هذا الشخص السكران ليس في هذا الحال من قبيل الآدميين ، وهذا كله والرجل جالس على الكرسي ولا يشعر بشيء من ذلك . ثم تركته بهذا المحل وذهبت ! .

(1) القائم على توفير احتياجات المواطنين المعاشية ، واختصاصاته أعم وأشمل من «وزير التموين» في عصرنا الحالي . وهي هنا مستخدمة مقابل الكلمة الفرنسية : [Le prefét]

(2) النزاهة والعظمة .

(3) نوع من الخمر .

الفصل السادس

(في ملابس الفرنسيس)

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج البرنيطة ، وان نعالهم في الاكثر الصرم السود أو «التاسومات» ، وأن لباسهم في الغالب هو الجوخ الاسود . وأما الفرنساوية ، فانهم في الغالب أيضا على هذا الملبس ، الا أنهم لا يلزمون ملبسا خاصا ، غير أن كل انسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة يلبسه ، والغالب أن لبسهم ليس له زينة وأنما هو في غاية النظافة ، ومن العوائد العظيمة انتشار لبس القمصان والالبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير في الاسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر . وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة ، بها نوع من الخلاعة ، خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلي ، فأن حليهن هو الحلق المذهب في آذانهن ونوع من الاساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الاكمام ، وعقد خفيف في أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفونها أبدا ، ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو

الشيت ، أو البفت الخفيف ، ولهن في البرد شريط فروة فيضعونه في رقابهن ويرخين طرفيه كالمأزر حتى يصل بطرفيه الى قرب القدمين ، ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفا ، ويبرز الردف كثيفا . ومما انشده الحاجري في ديوانه ، وان كان فيه خروج ، قوله :

ومزنر[1] يا ليتني أستاذه كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده والمسلمين بأسرهم في أسره
فوحقه لولا رشاقة قده مارق اسلامي لشدة كفره

ومن العجائب أنه يمكن الانسان ان يضع في الخصر وقت الحزام فترى يديه لدقته .

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به ، ولهن كثير من الحيل ، ومن خصالهن التي لا يمكن للانسان أن لا يستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فان نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤسهن ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه ، ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الاشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدي، حتى انه يمكن ان يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعتهن ، وبالجملة ، فلا يعد ذلك من الامور المخلة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهم أبدا كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائما لابسات للجرابات الساترة للساقين ،

خصوصا في الخروج الى الطرق ، وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا ، فلا يصلح لهن قول الشاعر :

لم أنسه اذ قام يكشف عامدا عن ساقة كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا ان قام فيه قيامتي ان القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس أن يلبس علامة الحزن مدة معلومة ، ولها محل معلوم ، فالرجل يضع علامة الحزن في برنيطته مدة معلومة ، والمرأة في ثيابها ، والولد على فقد أبيه أو أمه علامة الحزن ستة أشهر ، وعلى فقد الجدة أربعة أشهر ونصف ، والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال والخالة والعم العمة ثلاثة أسابيع ، وعلى فقد أولاد الاعمام والعمات والاخوال والخالات أسبوعين .

ثم ان ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون فرنك تقريبا ، ومن الحرير بثلاثة ملايين فرنك ، ومن الغراوي بمليون فرنك . ولعل السبب في ذلك هو أن الغراوي تشترى من خصوص باريس لأهل باريس .

ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردىء الشعر ، بل قد يستعملونها في اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ملك فرانسا ، حيث ان هذا الملك كان يلبسها ولا يخلعها من رأسه أصلا الا عند النوم ، ولا زالت الى الآن مستعملة لكن

للأقرع او رديء الشعر ، ومن الغريب أنها تستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة .

(1) المزنر ، لابسة «الزنار» هو ما يشد على الوسط .

الفصل السابع

(في منتزهات مدينة باريس)

اعلم ان هؤلاء الخلق حيث انهم بعد اشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات[1] ، فانهم يقضون حياتهم في الامور الدنيوية واللهو واللعب ، ويتفننون في ذلك تفننا عجيبا .

فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى «التياتر» ،[2] «والسبكتاكل» ، وهي يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفي الحقيقة ان هذه الالعاب هي جد في صورة هزل ، فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لانه يرى فيها سائر الاعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الاولى وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون انها تؤدب اخلاق الانسان وتهذبها ، فهي وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها كثير من المبكيات ، ومن المكتوب على الستارة التي ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : «قد تنصلح العوائد باللعب» وصورة هذه «التياترات» انها بيوت عظيمة ، لها قبة عظيمة ، وفيها عدة ادوار ، كل دور اوض موضوعة حول القبة من

داخله ، وفي جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الارض بحيث ان سائر ما يقع فيه يراه من هو في داخل البيت ، وهو منور بالنجفات العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب وسائر ما يصنع من الاشياء التي تظهر وسائر النساء والرجال المعدة للعب ، ثم انهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فاذا ارادوا تقليد سلطان مثلا في سائر ما وقع منه وضعوا ذلك المقعد على شكل سراية ، وصوروا ذاته ، وانشدوا اشعاره ، وهلم جرا . ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبدون اللعب ، ثم النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم في مصر ، واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الادبية والاشعار ، ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الاشعار وما يبدو به من التوريات في اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب .

ومن العجائب انهم في اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ، ويتمتعون في ذلك وقت اللعب ، حتى يظن انهم من العلماء ، حتى ان الاولاد الصغار التي تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها .

ثم انهم يبتدون اللعب بآلات الموسيقا ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه ، واللعبة التي تظهر في ورقة وتلصق في حيطان

المدينة وتكتب في التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام ، وفي الليلة يلعبون لعبات ، وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة . اذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم البسوا لبس ملك العجم ، وأحضروه واجلسوه على كرسي ، وهكذا .

وفي هذه «السبكتاكل» يصورون سائر ما يوجد حتى انهم قد يصورون فرق البحر لموسى ، عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا ، وقد رأيت مرة في الليل انهم ختموا «التياتر» بتصوير شمس ان – تسييرها وتنوير «التياتر» بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف حتى كان الناس في الصباح ، ولهم أشياء أغرب من هذا . وبالجملة ، فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل . وأعظم «السبكتاكل» في مدينة باريس المسماة «الاوبرا»[3] وفيها أعظم الآلاتية وأهل الرقص ، وفيها الغناء على الآلات والرقص باشارات كاشارات الاخرس تدل على امور عجيبة . ومنها «تياتر» تسمى «اوبرة كوميك» فتغنى فيها الاشعار المفرحة ، وبها «تياتر» تسمى «التياتر الطليانية» ، وبها أعظم الآلاتية ، وفيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية . وهذه كلها من «السبكتاكلات» الكبير وفي باريس «سبكتاكلات» صغرى ، وهي مثل تلك الا انها صغيرة ، وهناك ايضا «سبكتاكلات» اخرى يلعبون فيها الخيل والفيلة ونحوها .

ومنها «التياتر» المسماة «تياتر كرنكوني[4] وفيها فيل مشهور

بالالعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا ، وكما ان اعظم «التياترات» «الاوبرة» تسمى «تياتر الكمت» ، وهي معدة لنزاهة الصغار ، كالحلوى في مصر ، «والكمت» اسم معلم هذه «السبكتاكل» ، وكل اللاعبين واللاعبات صغار السن ، وهذه «التياتر» يوجد بها كثير من الشعيبثيات والسيم ونحوها .[5]

ولو لم تشتمل «التياتر» في فرانسا على كثير من النزاعات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة ، فانظر الى اللاعبين بها فانهم يحترزون ما أمكن عن الامور التي يفتتن بها ، المخلة بالحياء ، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر وأهل السماع ونحوها .

ولا أعرف اسما عربيا بمعنى «السبكتاكل» او «التياتر» ، غير ان لفظ «سبكتاكل» معناه : منظر او منتزه او نحو ذلك ، ولفظ «تياتر» معناه الاصلي كذلك ، ثم سمي بها اللعب ومحله ، ويقرب ان يكون نظيرها : أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالي نوع منها ، وتشتهر عند الترك باسم «كمدية» ، وهذا الاسم قاصر الا ان يتوسع فيه ، ولا مانع ان تترجم لفظة «تياتر» أو «سيكتاكل» بلفظ خيالي ، ويتوسع في معنى هذه الكلمة .

ويقرب من تصوير «السبكتاكل» او هو منها مواضع يصور فيها للانسان منظر بلد أو أرض أو نحو ذلك ، فمن ذلك «بانورمة»[6] وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التي تريد تصويرها ، ففي صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان

حسن مثـلا ، والرميلْـة تحتـك ، وبـاقي المـدينـة ، ومنهـا «كسمـورمـة»(7) وفيـه صورة بلـدة ، ثم أخرى ، وهكـذا ، ومنـه «ديورمة»(8) وفيه صورة دار ، ومنها «اورانورمـة»(9) وفيـه صورة الفلـك الاعظم وسـائر مـا يحتـوي عليـه مصورا على مـذهب الافرنـج ، فـالمتفرج فيـه يمكنـه أن يطـالـع علم الفلـك ، ومنهـا «اوروبرمة»(10) وفيه صورة بلاد الافرنج .

ومن المنتزهـات محـال الرقص المسماة «البـال» وفيـه الغنـاء والرقص ، وقـل ان دخلت ليـلا في بيت من بيـوت الاكابر الا وسمعت به الموسيقـا والمغنى ، ولقـد مكثنـا مـدة لا نفهم لغنـائهم معنى أصلا لعدم معرفتنا بلسانهم ، ولله در من قـال في مثل هـذا الامر :

ولم أفهم معــــانيهــــا ولكن ودت كبـدي فلم أجهـل شجـاهـا
فكنت كأنني أعمـى معنـى يحب الغـانيـات ولا يـراهـا

«والبـال» قسمان ، «بـال» عـام ، ويـدخلـه سـائر النـاس ، «كالبال» في القهاوي والبساتين ، «والبال» الخاص ، وهو أن يدعوا الانسان جمـاعـة للرقص والغنـاء والنزهـة ونحو ذلـك ، كالفرح في مصر ، «والبال» دائما مشتمل على الرجال والنسـاء ، وفيـه وقـدات عظيمـة ، وكراسي للجلوس ، والغـالب ان الجلـوس للنسـاء ، ولا يجلس احد من الرجال الا اذا اكتفت النسـاء ، واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن كرسي خاليا قـام لهـا رجل وأجلسهـا ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالانثى دائما في المجالس معظمة اكثر

من الرجل ، ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه ان يحي صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما امكن ، فدرجته بعد زوجته او نساء البيت .

ومن المنتزهات جمعية الناس ، «كضمة» مصر ، الا أن فيها دائما آلات الموسيقا والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقا والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة ، وبالجملة ، فالموسيقا بالاصالة والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر :

هل العيش الا ماء كرم مصفق ترقرقه في الكاس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شدوه على نعم الاوتار ناي زنام[11]

وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار اليه المسعودي في تاريخه المسمى (مروج الذهب) ، فهو نظير المصارعة في موازنة الاعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض ، فليس كل قوي يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف الأبنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الاعضاء . وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعها شيء واحد يعرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص في فرانسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة ، لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص في ارض مصر فانه من خصوصيات النساء ، لانه لتهييج الشهوات ، واما في باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا ، وكل انسان يعزم

امرأة يرقص معها ، فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا ، وسواء كان يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان ، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ، كما قال الشاعر :

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع ان من الرقص رقصة مخصوصة يرقص الانسان ويده في خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الاوقات يمسكها بيده ، وبالجملة ، فمس المرأة أيا ما كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى . وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الادب ، وصاحبة البيت تحيي أهل المجلس . ومن النزه العامة التي تصنع في الصيف ، ومبناها على الرقص والآلات وتسييب البارود ، ونحو ذلك . ومن المواسم العامة عندهم ايام تسمى ايام «الكرنوال» ، وتسمى عند قبطة مصر أيام «الرفاع» ، وهي عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكيلات ، فيتشكل الرجل تشكل امرأة والمرأة في صورة رجل ، ويترأى الخواجة في صورة راع ونحو ذلك .

وبالجملة ، فيباح سائر ما لا يضر براحة المملكة وانتظامها ، ويقول الفرنساوية : ان هذه الايام ايام جنون ، ويدور بهذه

البلدة فحل اسمن فحول فرانسا في موكب عظيم مدة ايام الزفر الثلاثة ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه بخشيشا في نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم .

ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة ، ففي باريس نحو اربعة بساتين كبر يتماشي فيها الخاص والعام ، فمنها حديقة «التولري» التي بها قصر الملك ، وهي من أعظم المنتزهات ، يدخلها المتجملون من الناس ، ويحجز الاسافل من دخولها ، فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة   يوما لما وصل اللئام ترابها

فمنها حديقة تسمى «الشمزليرة»[12] ، معناه بالعربية : رياض الجنة ، وهي من أرق المنتزهات وأنضرها ، وهي بستان عظيم يبلغ اربعين اربانا ، والاربان هو قياس يقرب من الفدان ، ومع ان طول طريقها نحو ألف قامة فانه موضوعة بحيث انك اذا مددت نظرك رأيت طرفها الثاني قدام عينيك ، وفي هذه الروضة العظيمة دائما شيء من الملاهي لايمكن حصره ، وسائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض ، رتبت بحيث انه يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات ، وفي وسط كل جملة من الاشجار يوجد محل مربع ، وهذه الحديقة يتصل احد جوانبها بنهر السين ، وبينها وبينه رصيف ، وبجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء ، وفيها كثير من القهاوي «والرسطراطورات»[13] يعني

بيوت الاكل ، وفيها سائر أنواع الطعام والشراب ، وهي مجمع الاحباب والاكابر ، وبها كثير من المرامح للخيل ، ويدخل فيها الاكابر بالعربات المزينة ، وفيها عدة آلاف من الكراسي بالاجرة يجلس عليها في زمن الربيع نهارا وفي الصيف ليلا ، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الاحد ، فانه يوم البطالة عند الفرنساوية . وبالجملة ، فهذه الحديقة محل للمواسم وللافراح العامة والزينات ، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات .

ومن المنتزهات المحال المسماة «البلورا» ، وهي الاشجار المتصافة المتوازية ، وقد اسلفنا بيانها ، وهي محل يتماشى فيه سائر الناس في سائر الايام ، وفه أعظم قهاوي باريس ، وتدور فيه الآلاتية المنتقلون بآلاتهم ، وفيه كثير من محال «التياترات» ، وبه أيضا تدور النساء اللواتي يتعرفن بالرجال ، سيما بالليل ، فهو في جميع الليالي وفي ليلة الاثنين يحوي كثيرا من الناس فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ذراعه في ذراعها الى نصف الليل ، ويصلح هنا قول الشاعر :

لا تلق الا بليل من تواصله   فالشمس نمامة والليل قواد
كم عاشق وظلام الليل يستره   لاقى الاحبة والواشون رقاد

وقال آخر :

أيها الليل طر بغير جناح   ليس للعين راحة في الصباح
كيف لا ابغض الصباح وفيه   بان عني ألو الوجوه الملاح

ولا يمدح الليل الا من ترقب فيه وصال محبوبه ، وتفقد فيه نيل مطلوبه ، بخلاف من كثر فيه حرقه ، وزاد أرقه ، وطال سهاده ، وطار رقاده ، فانه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح . قال الشاعر :

الا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه على صفحات الجو شدت بيذبل[14]

وقل آخر :

ليلي وليلي ففي نومي اختلافهما بالطول والطول يا طوبي لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت بالطول ليلي وان جادت به بخلا

وقال من لا يشكو من الليل :

يا ليل طل أو لا تطل لا بد لي أن أسهرك
لو كان عندي قمري ما بت أرعى قمرك

وقا آخر مثله :

يا ليل طل يا شوق دم اني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد ان صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى .

ومن المنتزهات أيضا سوق تباع فيه الازهار ، وفي هذا السوق تجد سائر الاشجار والنباتات والازهار الغريبة النادرة ولو

في غير أوانها حتى ان الانسان يمكنه أن يجدد بستانا في يوم واحد بأن يشتري سائر ما يحتاجه ثم يزرعه في يوم . وبالجملة ، فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المنتزهات الا بصحة البدن .

(1) أي العبادات الدينية .

(2) بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية . (الطهطاوي) . وهي من الكلمة الفرنسية : [Le théâtre]

(3) بضم الهمزة ، وتشديد الباء المكسورة ، وفتح الراء . (الطهطاوي) .

(4) بكسر الكاف وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية . (الطهطاوي) .

(5) اي الالغاز والحيل المرئية ، واشتهر منها – على النطاق الشعبي – خيال الظل .

(6) من الكلمة الفرنسية : [Lanorama]

(7) من الكلمة الفرنسية :[Cosmorama]

(8) من الكلمة الفرنسية : [Diorama]

(9) من الكلمة الفرنسية : [Uranorama]

(10) من الكلمة الفرنسية : [Leuropeorama]

(11) الزغة بالنسبة للأذن تقابل الوترة في الآلة الموسيقية ، وهي هنة تلي شحمة الاذن . والناي الزنام هو الناي الوتري .

(12) من الكلمة الفرنسية : [ChempsElysés]

(13) من الكلمة الفرنسية : [Resturants]

(14) في رواية أخرى : ☆ بكل مغار القتل شدت بيذبل ☆ . والابيات من معلقة امرىء القيس .

الفصل الثامن

(في سياسة صحة الابدان بمدينة باريس)

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الابدان ، وكان الافرنج احكم الامم ، كثر اعتناؤهم بهذا الفن وبتكميل ألاته ووسائطه ، وكانوا اشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات ، والحمام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الامور الشاقة ، كالعوم وركوب الخيل والالعاب التي يخف بها البدن . والحمامات في باريس متنوعة ، وفي الحقيقة هي أنظف من حمامات مصر ، غير ان حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن في الجملة ، وذلك أن الحمام في مدينة باريس عدة خلوات ، في كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط ، وفي بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما في مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فانه لا طريقة أن يطلع انسان على عورة آخر ، حتى أن الخلوة التي فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الانسان صاحبه ، وليس في دخول الانسان هذه المغاطس الصغيرة لذة كالدخول في الحمامات ، ولا يعرق الانسان بها ابدا ، اذ الحرارة لا توجد الا في

المغطس ، لا في الخلوة ابـدا ، وان كان يمكن أن يـوصي الانسـان على حمام بالبخار فـانهم يصنعون لـه ذلـك ، ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد .

وفي الحمام صفان من الخلاوى ، صف للرجال ، وصف للنساء وكما أنه يوجد حمـامـات مستقرة يوجـد حمـامـات منقولـة ، فـاذا طلب الانسان حمامـا في بيتـه أو كان مريضـا أو نحو ذلـك فـانهم يحملون اليه في عربة كالبرميل المـاء البـارد في شقـة والسـاخن في اخرى ، ومعها محم ، فيوضع المحم في بيت الانسان ويملأ من المـاء المسخن ، فيغتسل الانسان منه ، ثم بعد فراغـه يحملونـه الى بيت الحمام ، ومن الحمامات حمام يضع فيه الانسـان بعض بـدنـه لبعض الامراض فيسمى : نصف حمـام ، والحمـامـات ببـاريس كثيرة ، فاشهرها ثلاثون حماما تقريبا .

ومن امور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهي ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مـدارس لتخفيف البـدن وجعلـه قـابـلا لـلاشيـاء العجيبـة كالبهلـوانيـة والمصارعة ونحو ذلك .

الفصل التاسع

(في الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية)

اعلم ان مدينة باريس هي أعظم مدن الافرنج التي يرحل اليها الغرباء لتعلم العلوم ، خصوصا العلوم الطبية ، وقد ينتقل اليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها ، والعلوم الطبية التي تسمى ايضا علم الحكمة هي ، علم الطب ، والجراحة ، والتشريح ، وفن «الفيسيولوجيا»[1] من حاله وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات ، وغير ذلك . والحكماء في باريس كثيرون جدا ، حتى يوجد في كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء ، حتى أن الانسان اذا اصيب في الطريق بداء فانه لابد أن يجد الحكيم حالا ، لكثرة الحكماء بهذه البلدة .

ووضع المرضى بالنسبة للاطباء مختلف ، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده ، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها اليه ، ومن المرضى من يذهب الى الطبيب في بيته ، وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا في بيته لتلقي الناس ، ومن المرضى من ينتقل مدة معينة في بيت يسمى بيت

الصحة معد لمن يدفع قدرا معينا في نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك .

وفي باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلي بخلل شيء من عظام البدن كالاحديداب ، فانه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل ، كما اذا كان مقطوع احد الاطراف فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن او الخشب شيئا في محله ، وفي هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس ، وفي هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج اليه في الولادة ، ومن المواضع المعدة للمرضى والتي يوجد فيها الاطباء المارستانات العامة فتدخلها المرضى للعلاج ولاقامة مدة المرض بلا عوض .

ثم ان الاطباء في باريس فرقتان ، أحداهما : الاطباء عامة لمطلق الامراض على تنويعها ، والاخرى : لداآت خاصة ، وذلك أن علم الطب متسع جدا فقل ان يشتغل انسان بسائر فروعه ويحققها ، فاحتياج اطباء الفرنساوية الى ان الطبيب بعد ان يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغي له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الاطباء بتحقيق ذلك الفن ، حتى يجلب اليه من به داء يدخله شيء من ذلك الفن ، فلذلك يوجد في باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة ، وأطباء مرض العين تسمى «المكحلاتية» ،

وأطباء لامراض الاذنين ، وأطباء لداء الانف وتجبيره ، حتى ان من أطباء الانف من يمكنه بالحيلة ان يرجع الانف المجدوع صحيحا .

وفي باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الانسانية للاستعانة على مداواة الانسان ،[2] وتفصيل ذلك ان في باريس جماعة من الطبايعية تزعم أنه ثبت عندهم ان بدن الانسان يشتمل على مادة سيالية ، يعني جاذبية المغناطيس الانسانية ، يعني ان هذه المادة لها خاصية المغناطيس ، وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات كالمسح فينعس الانسان او تغيب حواسه حتى لا يحس بشيء ، فاذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شيء او بفتح شيء من بدنه من غير ان يشعر بشيء ابدا ، وقد جرب ذلك في قطع ثدي امرأة بعد مغناطيسيتها فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية : انها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع ، فانها عاشت بعده ، فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الامراض العصبية .

وفي باريس ايضا حكماء لخصوص مداواة خلل العقل ، أو لألم أعضاء التناسل ، او الحصوة ، ولخصوص الامراض الجلدية المنفرة وغيرها كالجزام والجرب . وفي باريس ايضا حكماء لتوليد النساء ، فان العادة ايضا في باريس ان المرأة يولدها حكيم عارف بأمور الولادة . وبها حكماء لمعالجة البياضة التي بالعين والماء الذي يعميها . وبها حكماء لاوجاع الصدر ، وداء الفالج

الـذي هـو شلـل بعض الاعضـاء ، فيـداوونـه بعـلاج يسمى «الاكمبكتـور»[3] يعني شكات دبـابيس كثيرة دقيقـة ، فيخرجـون بذلك شيئا من الدم ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء . وبها حكمـاء لعـلاج اختـلال خلقـة الانسـان ، وهـذا العـلاج يسمى «الاتـوبيـدي»[4] يعني فن اصـلاح خلـل أعضـاء الاطفـال ، فمن الحكماء من يصلح خلل الفم او الوجه ، ومنهم من يشتغل بتـدبير الاعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة .

ثم ان فروع العلـوم الطبيـة كثيرة ، فـالمشهـور منهـا : فن التشريـح ، وفن تمييز امراض الانسـان من حـال طبيعتـه ، وفن الكيمياء العقاقيريـة ، وفن أسبـاب الامراض البـاطنيـة الطبيـة ، وعلم الجراحـة الطبيـة ، ووضع العصـابة على الجراح ، والتضميـد بالمراهم ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلي بـأمراض ظـاهريـة ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلي بأمراض باطنية ، وفن معالجـة النفساء وتوليد الحامل ، وعلم الطبيعـة التي تـدخل الطب ، وعلم العقاقير والادوية المفردة او المركبة ، وصناعـة المعـالجـة ومبـاشرة المريض .

ومدارس الحكمة بمدينة باريس ومنافعها شهيرة ، فمنها مدرسة كبيرة تسمى «اكدمة الحكمة السلطـانيـة» ،[5] وهي ديوان الحكمـاء السلطانية ، وهي مجعولة لحاجة المملكـة الفرنسيسيـة ، ومبـاشرة الامراض العامة الضرر كالامراض الوبائيـة والامراض التي يعتقـد الفرنسـاويـة انهـا معـديـة ، وكمرض فصل البهـائم . ومن وظيفـة

علماء «اكدمة الحكمة» معالجة سائر الناس بما تجعله المملكة موقوفا على النفع العام كاشهار تلقيح البقري لاخراج الجدري ، وامتحان الادوية الجديدة والادوية المكتومة وامتحان الادوية المعدنية الاصلية او المصطنعة لادخالها في الادوية ، وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنساوية . ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بمارستان باريس في فصل فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شيء من ذلك في الفصل السابق .

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن حتى تتم فائدة هذه الرحلة وهذه نبذة ترجمتها في باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهي وان كانت تخرجنا عما نحن بصدده الا ان منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة :

«نصيحة الطبيب»

(المدة الاولى : في وصية صحاح البدن)

لا شك ان الاطباء معتبرون بين الناس ، لشدة نفعهم عندهم ، ومع ذلك فالاولى الاستغناء عنهم ، لانهم رفقاء المرضى ، فلنحرص على حفظ أنفسنا من اسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبية ، والدواء المجرب لمنع الاحتياج اليه هو : اعتياد الكد والقناعة ، ولنذكر لك امور اخر :

الاول : لا تسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة او دارا غائرة في الارض يسيرا ، فان كلا هذين الموضعين يجعل الدار رطبة

ومضرة للصحة ، فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيها على تداول الايام . ارفع أرض بيتك بعض قراريط برمل او حصى او طوب مسحوق او ما أشبه ذلك ، وتجنب البناء في أرض مماسة لارض اعلا منها . اجعل منافس الهواء الى الجنوب الشرقي ، اي اجعله بين الشرق والجنوب ، فان ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع .

الثاني : الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها في غالب الاحيان ، لان البرد للصحة أوفق من الحر ، فأهل الجانب الشمالي حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب ، والمريض يشفي في غرفة مفتوحة لسائر الرياح وربما هلك لو كان بجانب الحرارة .

الثالث ، بركة الماء الركد اذا اشتد قربها من البيوت فانه يتصاعد منها ابخرة لا تناسب الصحة ، بل تؤذيها ، أو ربما قتلت ، ويسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالاوباء ، فاجتنب هذه الاشياء الجالبة للامراض والاوجاع .

الرابع : السكر يرعى البدن ويحرقه ويسرع بالمشيب ، فنصيب من ينهمك على شرب الخمور وغيرها من المسكرات ان يصاب بداء الذبول وبقصر الاجل .

الخامس : من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر والبرد ، ونزول المطر السريع ، او نزوله باردا في وسط الايام الحارة ، فأولى ما يطرد هذه الامراض ان تلبس أزيد مما

يقتضيه الفصل ، فالبس اثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ، ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع ، واذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر، فان لم يبتل الا عضو فقط فاغسله وحدة.

السادس : احذر اذا اشتد حرك ان تمكث في موضع بارد او تشرب ماء تشديد البرودة والا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل في الباطن ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج[6] المحرق وغير ذلك ، فاذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها فالواجب تدراكه لعله يخف ، فأول ما تحس بمبادىء العلامات فضع القدمين في ماء هين الحرارة ، وطر بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق او الصدر أو البطن ، وأحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن ، وتعاط الشوربة التي صورتها أن تأخذ قبضة من زهر الخان وتضعها في اناء خزف مع اوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء مغلي وغط الانا ودعه يبرد ، فمتى بردت هذه الشوربة فصفها بخرقة . وذوب فيها أوقتين من العسل ، فاذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه الطبيب من الدراهم ! فان ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك في هذا الداء شيئا ؟ ! .

(المادة الثانية : في الدلالة على ما يصنع حين اخذ المرض في الظهور)

اعلم ان كثيرا من الناس باعتناء فاسد يريد ان يداوي المرضى فيهلكهم ، فأول ما يبدو قليل من الحمى او القيء فلا

يجد أحسن من تعريق المريض ، فيضغطه تحت اغطية ثقيلة ، ويحجب عنه الهواء ، ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة ، وربما سقاه خمرا حارا او حلوا ! فهل من الاصحاء من يستطيع حمل ذلك ؟ او ليس ان هذا يمرض من ليس بمريض ! نعم ، قد يكون العرق به الشفاء ، ولكن حين تكون الامراض قد صدرت عند انجاسه ، أو بعد تقليل هذه أو ازالتها بكثرة تعاطي الشوربات . وعلى كل حال فلابد من ادخال الهواء اللين في موضع المريض ، لما أن حاجة الانسان الى الهواء كحاجة السمك الى الماء . والشوربات الحارة تزيد الحرارةالتي تهلك المريض وتحرقه وتيبسه ، والخمر هو سم حقيقي في الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من الشوربات الرطبة الباردة ، فإنها تذيب الاخلاط المنفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة وتنظف المعدة . وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذي العي فيعطيه المرق . فيضاعف المه ، مع ان من الحقيقة المقررة عند أكابر الاطباء ان المريض الذي به خميرة المعدة كلما أعطوه من الاغذية زاد ضعفه ، وهذه الاغذية اذا تفسدت بالاخلاط المعفونة التي تختلط معها في الجوف تنقلب مرضا جديدا ، فما يتعين في شفاء المريض هو ما يضعف المرض ، ففي كل عشرين مريضا يموتون في الارياف فأكثر من الثلثين يمكن انه كان يشفى بلا شيء لو كان في موضع مستور من مضار رياح ، وكان لا يشرب الا ماء مبردا ، ولكن لا مفر من القدر ، واغلب الامراض الحادة

والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر وقلة النشاط وعدم شهية الاكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل عديم الراحة غير المصلح القوي ، بل وثقل الصدر والميل الى البرودةوتيسر العرق غير المعتاد وانقطاع العرق المعتاد ، وعند ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الامراض المضرة بأربعة .

الأول : ترك سائر الأشغال الشاقة والمداومة على الاشغال الهينة .

الثاني : تقليل اكل المغذيات أو اجتنابها ، لا سيا ترك اللحوم والمرق والبيض والنبيذ .

الثالث : اكثار الشرب ، يعني أن يشرب كل يوم قزازة فأكثر في كل نصف ساعة طاسة من الشوربة المذكورة في المادة السابقة او من الماء الفاتر المخلوط في كل قزازة اما بخمسة عشر او بعشرين حبة من الملح المعتاد او بفنجان خل او بملاعق من العسل .

الرابع : الاحتقان بماء فاتر ، او بهذا الدواء : وهو ان تأخذ قبضتين من الحشائش او من زهر الخبازي[7] وتغمرهما وترش عليهما نصف قزازة ماء مغلي وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما أوقية عسل .

(المادة الثالثة : في الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض)

اعلم انه ينبغي للمريض اذا تلبس بالبرودة او القيء او الالم انه يلزم الفراش ، أو الجلوس ، وان يتغطى زيادة عن عادته ،

وأن يشرب في كل ربع ساعة فنجانا من مسخن الشوربة السابقة . فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم الا الغطاء المعتاد .

ثم ان بعض اهالي القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب ، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين ، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة في بعض الاحيان الا في مدة الحر او اشتداد الحمى، فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش، وللغطاء ملاحف او أكيسه أقل خطرا من الريش ، فهذا هو ما يريح المريض .

وينبغي الحذر من تسخين هواء محل المريض ، ومن كثرة الناس ، واللغط ، ومن الكلام معه الا على قدر الحاجة .

ينبغي فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة في النهار وربع ساعة بالليل ، وينبغي مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ، ولكن لابعاد المريض عن جريان الاهوية فلتسحب عليه ستائر فرشه او ليحجب عن الهواء بكيفية اخرى ، وفي زمن الحر ينبغي ابقاء طاقة من الطيقان مفتوحة ، ويحسن ايضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة ، وينبغي ، في الهجير والمريض متعب بالهواء الحار ، ان يرش بلاط غرفته ، وان يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه تغمس في اناء ماء لتكون مسقية .

وليتجنب المريض تناول الاطعمة المغذية ، ولا يأكل الا يسيرا من خفيف لثريد المنضج او الارز المطبوخ مع يسير من الملح ، ولا بأس في الصيف بالاثمار المستوية وفي الشتاء بالتفاح المنضج او البرقوق والاجاص بعد تيبسها وطبخها ، فهذه الاثمار اذا اكلت ، بلا اكثار منها ، تروي وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهي الاغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب والمبرد الذي ذكرناه سابقا ، ولا بأس ايضا أن تضع في نحو قزازة الماء طاسة من عصير الفواكه التي ذكرناها قريبا ، وينبغي للمريض ان يشرب كل يوم قزازتين من ماء فأكثر ، وان يتناول في المرة يسيرا ، ففي كل ربع ساعة يشرب فنجانا ، مالم ينم ، واللائق ان يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففي اعتدال الزمن يكون في طراوة نسيم الغرفة . ولو امتنع المريض من حاجة الانسان جملة ايام ، او يبل بكثرة ، او خرج بوله احمر ، او خلط في كلامه ، او كانت حمته قوية ، او كان وجع رأسه او كليته شديدا ، او كانت بطنه متألمة ، او كان محتاجا كثيرا الى النوم ، فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره في « المادة الثانية» ، فالاحتقان شفاء المحموم ، الا اذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن .

واذا خف المرض فينبغي الخروج من الفراش في اليوم ساعة فأكثر كما يمكنه ، ولكنه لابد من نصف ساعة ، ولا ينبغي ترك فراشه وهو متلبس بالعرق ، ومن المستحسن تصليح فراشه كل

يوم ، وتغيير ما على بدنه كل يومين اذا تيسر ذلك ، ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك وظن انه يخاف على المريض من خروجه من فراشه فيتركه في ثيابه المتسخة وهذه الثياب لا تقتصر في أضرارها على ابقاء أصل المرض فقط بل تقويه ، حتى لو قيل ان المريض تعبان جدا ، وهذه حجة عاطلة ، ولو سلم ان استعمال ذلك يتعبه درجة فانه يزيد ما بقي من قوته ويسرع تخفيف المه .

(المادة الرابعة : في معالجة الناقة)

اعلم انه ما دام بالانسان قليل من الحمى فلا يتناول الا الاغذية الخفيفة التي بيناها ، فاذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها ، كقليل من اللحم الطري ، أو السمك ، او المرقة والبيض هين النضج . فهذه الاغذية تصلح القوى ، بشرط عدم الاكثار فيما يتناول منها والا فتبطيء الصحة ، لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة الا ليسير الهضم ، فلو اعطيتها فوق ما في قوتها فلا ينهضم سائر ما يدخل فيها ، بل ينفسد ، وقوام البدن انما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل اليها فقط ، فينبغي للناقة ان يكون كالمريض في تناوله قليلا في كل مرة ، ولكن في غالب الاوقات ، وأن لا يتعاطى في المرة الا جنسا واحدا من الأطعمة ، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل في مضغ ما يتناوله من الجوامد ، وأن لا يكثر من

الشرب ، وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الانبذة ، وليسر على قدر ما يستطيع ما شيئا او راكبا عربة او فرسا ، ومن العبث ترك ركوب الخيل في هذه الحالة لمن يملك الخيل ، كأغلب أهل الأرياف ، واذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبله فهو ربما يضر الهضم . وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام في المساء لأن النوم أريح وأصلح له من الاكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ، نعو ، اذا جاوز يومين من غير خروج شيء فليحتتن ثالث يوم أو قبله أن علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة او الانتفاخ او ضيق الصدر او وجع الرأس .

وينبغي لمن قام من مرضه جديدا أن لا يسرع في العودة الى شغله ، فان لم يصبر الى تمام عافيته طال ضعفه ، فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فان لم يتحفظ على نفسه أصابه مرض الذبول ، فينبغي حين ارادة الاخذ للمباديء مراقبة العواقب .

«المادة الخامسة : في وصايا عامة على الصحة»

اتخذ القناعة في الاكل فمن لم يقنع لا يشبع ، بل يهلك نفسه .

قيل من أرخى على الطعام طويل عنانه حفر مقبرته بحدة أسنانه !

لا تأكل دون مرتين في اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلو أربع مرات ، بل خمسة .

لا تنم عقب الاكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات ، أو سبعة ، وللضعيف والصغير اطول من ذلك . تضمحل القوة والعقل ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم .

النظافة نصف الصحة ، فلتكن في البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع .

لا تمضغ الدخان ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذي يكسبه للطبيعة مضعف على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم في الهضم ، وينتن النفس ، وتسود الاسنان وتنفسد . وقد شوهد ان كثيرا من الناس اعترته الحماقة بالاكثار من شرب الدخان او شم النشوق .

اياك والانهاك على تعاطي الخمور والمسكرات، سيما ايام الصوم، وقد توهم انها تشد القوى مع ان القوة المستفادة من تعاطيها تمر في أدنى زمن ويعقبها وهن، وذلك كما ان النار تذكو اذا كثرت من نفخها وترعى الوقود سريعا ولا تعطي الحرارة الا درجة .

واما الفلاحون الذين يشتغلون في وقت الصيف فعليهم تغطية رؤسهم وان يتداركوا أشغالهم .

«المادة السادسة : في معالجات لجملة علل وامراض»

الاول الزكام والنزلة : يقال هذا ليس بشيء ! ان هو الا

زكام او نـزلـة ! نعم ، نسلم ان الانسـان لا يمـوت بـذلـك ، لكن يتسبب عن ذلـك حرارة الصـدر المهلكـة لـه . ومن كـلام بعض الحكماء الاقدمين : يهلك بالنزلة والزكام أبلغ مما يهلـك بـالوبـاء ! وعلاج ذلـك استعمال الشوربـة المـذكـورة في «المـادة الاولى» ، او تعـاطي سلاتـه الخمـان التي ربعهـا أو ثلثهـا لبن ، وينبغي قبيـل النـوم وضـع الرجلين في المـاء الفـاتر . ولـو انحبست البطن تعين الاحتقـان . وينبغي الاقتصـار على تنـاول الاطعمـة الخفيفـة ، وتعاطي اليسير في المآكل ، ولا بأس بتعاطي بعض طـاسـات من خفيف مرقة الخشخاش الاحمر ، وقـد يوهم بعضهم أن هـذا الـداء يذهب بـالعرقي المحروق أو الخمر المعطر والحلو مع ان هـذا كالقـاء الحطب في النـار ، اذ هذه الا شربة أقرب في تثقيل هذا الداء من أزالتــه ، أو ليس أن هــذا الــداء حرارة ، وهي تــزداد بهــذه الاشربة ؟ !

الثـاني وجع الاسنـان : اذا كان الوجـع نـاشئـا عن فسـاد السن فخير علاجه ، كما قيل ، الكبتان ! فاللائق قلعه ، والا دام الـوجـع ، وفسـد غيره من الاسنـان ، وربمـا جر ذلـك الى فسـاد الحنك . ولكن لو اختير بقاء السن ، خوفا من قلعـه ، فلا بـأس ان تختبر بأن تلطخ على موضع الفساد قطنـه مبلولـة في قطرات من عصير القرنفل فان ذلك يصلحها زمنـا طويلا ، وربمـا كانت نهايته تفتتها وسقوطها ، ويمكن أيضـا اصلاحهـا بـان تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عـاقر قرحـا وتتمضمض بسليق

النبات المسمى حشيشة الفضة . واما اذا تحرك الوجع من غير ان تكون الاسنان مفسدة فأدم الغرغرة بالشعير أو بالماء واللبن ، وتضميد الصدغ بالمضاد المطري ، وأتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر ، ولا تشرب الانبذة المخدرة ، ولا تكثر من الاكل . واما اذا كان بالاسنان قرح فتنضيجه بأن تديم في فمك لبنا او تينا مطبوخا في لبن ، فاذا نضج فافتحه فانه سهل غير مؤلم .

الثالثة السكتة : اعلم ان داء السكتة يأتي الانسان فجأة فيعطل الحواس والحركات ما عدا النبض ، وبه يعسر التنفس ، وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة الى الطبيب . وفي مدة انتظار حضوره يجب :

أولا : كشف رأس المريض وتغطية ما عداه من البدن بشيء خفيف جدا ، وجلب الهواء الطري عنده ، وفتح طوقه بالكلية.

ثانيا : يقام حسبما يمكن رأسه الي أعلا ورجلاه الى أسفل.

ثالثا : يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش الطرية والملح.

رابعا : اسقه كثيرا من الماء حسب الامكان.

خامسا : ابعاده الاشربة المخدرة ، كالخمر ، وكذلك الماء المعطر ، شربا ، وضمادا ، وسعوطا.

سادسا : عدم مسه وتحريكه الا لضرورة .

سابعا : عصب الرجلين تحت الداغصة وهي العظم المدور والمتحرك في وسط الركبة حتى ينحجب الدم عن الصعود الى الرأس.

وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو في هذه الحالة قليلا جدا ، وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء ، وأن يتجنب الاشياء الغزيزة المائية ، وطيبات الروائح ، والحوامض ، والاشربة المقوية ، والقهوة ، وان يأكل قليلا من اللحم وكثيرا من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لا يكثر من السخونة في اوضته او حرارة الشمس ، وأن لا يتأخر في النوم او في القيام منه ، وان لا يلبث فوق ثمان ساعات في فراشه .

الرابع ضربة الشمس : هو مرض يصيب الانسان متى اعترض في حر الشمس زمنا طويلا عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحترار البشرة ، واحمرار العيون ، وجمود الدموع ، وضعف البصر عن الامتداد الى الضوء ، وقد يحصل للمريض به سهر ، وربما احس بالنوم وقلق شديد ، وفي الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمريض لا يزال شديدا حتى يأتي الطبيب سريعا . فينبغي في مدة انتظاره : ان تضع رجلي المريض في ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام أو حماما كاملا ، واحقنه بأعشاب مطرية ، واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء ،

أو اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل ، وانقع من ذلك مصل اللبن الصافي[8] المخلوط بيسير الخل ، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خرقة مطراة بماء بارد وخل معا .

الخامس نهش السميات : أولا : اخرج الزبان[9] اذا لصقت بالمحل الملدوغ . **ثانيا** : تعهده بالماء . **ثالثا** : الطخ عليه أما كزبرة أو كرفسا او زهر الخمان . **رابعا** : فأن عظم الحرقان فأسرع ما ينفع هو ان تبل خرقة صوف في سلاقة الخمان وتلطخها وهي هينة الحرارة . **خامسا** : ان تلصق على الوجع لبخة من سحيق بزر الكتان أو من لباب الخبز الممزوج باللبن او العسل .

السادس قاعدة يجب اتباعها في تعهد الصغار والاطفال : حق على الامهات اللاتي يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم ان يتركن عوائد البربر من لف الاطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم وتنقل ارجلهم او ايديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن انسان ان اللازم لصحتهن ان يحتبسن في أثوابهن وان يلصقن اذ رعتهن ببدنهن وان لا يتحركن كالمسلسل ، فلاي شيء يصنعن ذلك بأطفالهن ، وهم ضعاف ، فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن اطرافهم للهواء . من يتوهم ، من غير مستند ، أن أهل الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتها ربطهما وتكنيفهما على ذلك الوجه ! أو ليس ان حكم تربية الآدمي هي كغيره من باقي الحيوانات؟!.

السابع السم بالفطر:[10] وهي جنس ردي من الكمأة ، كثير من الناس من يهلك بميله الى الفطر ، وكان الاحسن في حقهم يقينهم ان يتجنبوه ، وقد شوهد غير مرة ان الام تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها ! وأعمال هذا النبات السمي لا تظهر الا بعد مضي ست ساعات الى اثنتي عشرة ، فأول ما تحس بها أطلب الطبيب ، وتناول مدة انتظار حضوره حبتين او ثلاث حبات من «الطرطرمقي» أي ملح طرطير المقيء بعد تذويبه في طاستي ماء.

الثامن السم بالزنجار: اعلم ان آنية النحاس التي تستعمل فيها المطبوخات هي خطرة بسبب زنجرتها سريعا ، والزنجار سم قوي ، فلتبيض اوانيك وقتا بعد وقت بالقسدير ، ولا تترك الاطعمة تبرد فيها ، خصوصا اذا كان بها الخل او الحماض او الحريفات او الدسمة ، فاذا اعتراك وانت محترز عن ذلك قولنج او قيء فامزج نحو خمسة عشرة من بياض البيض في قزازتي ماء واشرب منها طاسة في نحو دقيقتين لتتقايأ السم ، فان لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن ، فان عدمت اللبن فمن الماء المحلي او ماء الصمغ.

التاسع داء الكلب: وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة في الذئاب والثعالب والسنانير وخصوصا في الكلاب ، وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات ، وعلامة الكلب أنك

تراه اولا كئيبا ذابلا مدة ايام ، فيختفي ، ويسلك المحال المظلمة ، ولا ينبح ، بل يختفي ويترك المأكل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ويجري من جهة الى اخرى ، ويقف شعره ، ويبتل لسانه من اللعاب ويتدلى من فمه ، وينعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات ، ويهم ان يعض سائر الناس حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم او يومين بشدة مسارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها في عميق من الارض ، ومتى عض هذا الكلب الانسان فان الجرح من عادته ان يلتئم بالسهولة كانه غير متسمم وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهي ثلاثة أسابيع الى ثلاثة أشهر ، يحس بالجرح وجع مكتوم فينفتح أثره ويحمر وينتفخ ويقيح ، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة ، ويذوق المريض الكأبة والخدر والكسل والبرودة ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، ويضرب في نعاسه ، ويعطش عطشا مهلكا ، ويقاسي اذا شرب ، ويعش ثم يعتريه ارتعاد ، من الماء والمائع ، ويبح صوته ، ثم يجن ، ويموت . وليس من شأن من اصيب بهذا الداء ان يعض غيره دائما ، بل معظم المبتلين بهذا الداء اذا أحس هجومه عليه ينصح الحاضرين بأن يكونو منه على حذر ، وما يذوقه من الالم تقصر عنه العبارة ، فيتمنى ولو الموت !

ومعالجته هي ان أول ما يعضه الكلب تسرع بوضع الدواء فيه ، فان توانيت سرح السم الى الدم ، ولا يجدي التطبب

شيئا ، وذلك الدواء هو ان تستخرج الدم من الجرح ، بعد كشفه ، وتغسله بماء مملح ، وتكويه بحديدة بعد حرقها في النار حتى تبيض بعد الاحمرار ، وتغرزها في سائر اقطار الجرح ، فلو بقي جزء من الجرح غير محكم الكي كان الكي كلاشيء ، ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحروقة دهن الزاج فتدخله بين شفتي الجرح وتجريه في سائره ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقة مدهونة بالقيروطي ، أي المرهم ، أو بالزبدة الطرية .

واعلم انه يجب غسل الثياب المنقوبة بأسنان الكلب ، لما انها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه . وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة في هذا المرض الشديد ، فلا تتردد او تخف قليلا من الالم الذي يطرد غيره من الالم الشديد أو الهلاك المفزع . وأيضا لو طلبت الحكيم لا ثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفة ، ولا بأس ان تستعمل هذا الدواء في اي حيوان معضوض بكلب كلب . وأزل ما على الجرح من الشعر . ولو كان المعضوض أذنا او ذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع . وينبغي ان تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدي غيرها .

العاشر الاستعانة علي افاقة الغريق : لا تيأس من افاقة الغريق الا اذا أخذ بدنه في العفونة . فحينئذ – ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، او ذهبت حركته بالكلية ، او فقد امارات الحياة – فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات

الاخوة ، فقبل كل شيء : اطرد من اجتمع عليه من الخلق ، لانه يضيق الصدر ويحجب الهواء . **ثانيا** : رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه بحيث يكون وجهه الى أسفل ، وافتح شفتيه حتى يخرج بسهولة الماء الذي قد دخل من الفم او الانف ، **ثالثا** ، ارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف ان تيسرت ، وادرج باقي بدنه في نحو ملحفه ، وأنقله سريعا الى أقرب موضع . **رابعا** : بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن ، ولو بقطعها بآلات ان لزم **خامسا** : افرش له عند ذلك بعض طراحات ومخدات بها بعض صلابة ، واجعلها قريبا من نار متقدة ، وضع فوق الطراريح ملحفة من الصوف ، ورقد الغريق فوقها ، مرفوع الرأس ملفوف البدن . **سادسا** : ذلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقة صوف مدفئة يابسة ، ثم ذلك بالمائعات القوزية المستقرة على ظاهر بدنه ، خصوصا على السرة وما حولها ، والاولى ، خصوصا في الشتاء ، ان تسخن عاجلا ماء وتملأ منه مثانات على الثلثين من ماء هين الحرارة وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة . **سابعا** : مدة الدلك او عقب وضع المثانات ينبغي ان تدخل الهواء في صدره بأن تضع قصبة أو ريشة في فم المريض او في احدى طاقتي أنفه مع فتح الاخرى ، وانفخ في تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فان كان النفخ في الفم فاقبض الانف ، ولكن ارخ أصابعك مرة بعد اخرى ليخرج منه الهواء أحيانا . **ثامنا** : اشممه القلي البخاري ،

يعني الروح البخارية من ملح النشادر بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومة في صورة فتيلة وتشربها من قزازة قلي بخارى وتعرضها تحت أنف الغريق أو تدخلها في منخاره ، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق . **تاسعا** : العقه ، أن أمكن ، يسيرا من روح الانبذة المخلوط بالكافور ، وربما مكث هذا المائع في فمه يسيرا من الزمن ثم بلعه ، ولكن لا تملاء فمه منه حتى يتعسر بلعه . **عاشرا** : لو بلعها فاعطه أكثر منها ، فلو تحركت معدته من غير وجود قيء ، وذلك ما يتبعه ، فاعطه ثلاث حبوب من «الطرطرمقيء» مذوبة في ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فان تقايأ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاترا ، وان انزل من المخرج شيئا فقوه بتناوله شيئا من الانبذة ، **حادي عشر** : لو ابطأ عن الاحساس فاحقنه حقنة حريفة ، وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان قدر نصف اوقية ، ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلي ذلك في مقدار من الماء يعادله ، نحو ربع ساعة ، وتحقنه به ، ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل وربع رطل من الملح المعتاد . وهذه كيفية معالجة الافاقة للغريق ، وتدبيرها ممكن لكل انسان حتى يحضر الطبيب فيعينهم أيضا ، ولو كانت مفيدة ففائدتها لا تحصل الا بعد التدبير مدة ساعات على التوالي ، ففائدة ذلك بطيئة خفيفة ، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا ، فمن الغرقي من لا يفيق ألا بعد ست ساعات او سبعة من مبدء خروجه من الماء .

الحادي عشر غيبوبة الحياة : برائحة بيوت الاخلية والبالوعات والآبار والمجاري ونحوها ، **اولا** : اخرج سريعا من أصيب بهذا الداء وضعه تحت الهواء . **ثانيا** : جرده من الثياب ورش على بدنه ماء باردا او ماء مشوبا بخل ، وهو اولى ، واولى منه حامض الجير . **ثالثا** : العقه ماء بارد ممزوجا بقليل من الخل . **رابعا** : احقنه بحقنة ماء بارد ثلثها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب . **خامسا** : ادخل في أنفه طرف شعر ريشة وحركها بالرفق . **سادسا** : ادخل الهواء في صدره بواسطة قصبة وانفخها بمنفاخ كما سلف في الغريق عند العمل . السابع ، واسلك سبيل النشاط والاستعجال في هذه المعالجة فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من انتاجها ، ولما كان الموت لا ينكشف الا بعد مدة تحتم ادامة المعالجة حتى يتيقن .

الثاني عشر غيبوبة الحياة بالبرودة : اعلم ان شدة البرد قد تستحكم بأعمالها في الانسان فتجمد الاعضاء وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الانسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جدا ، وأن كان لا ألم به أبدا ، فمباديها هو الرعشة التي تكاد ان تكون مصرعة ، وصلابة الجسم ، وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهال الاحساس ، والتذاذ البدن بالنوم وانقياده اليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدريج ، وعاقبته خروج المبتلي به من حيز الاحياء الى حيز الاموات . وفي الحقيقة حركات الحياة ليست الا متوقفة ، فعليك ان تسرع في معالجته

بدواء سواء ذهبت امارات الحياة بالكلية او بقي منها شيء .

واعلم ان بعض الناس توهم ان معالجة افاقته بالحرارة ، وهذا وهم فاسد لاضرار الحرارة بكثير من الناس ، ولكن معالجته هي ان تلف **أولا** : بدنه في ملحفة من صوف وتحمله الى أقرب ما يرتاح فيه من الاماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه في فرش غير محمى **ثانيا** : اذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشيء من ذلك مارا من القلب الى المفاصل ، ثم بعد لحظات ادلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ، ورش على وجهه شيئا من هذه المياه **ثالثا** ، لو تعذر الثلج فضعه في حمام فيه ماء بئر بارد ، وبعد نحو ثلاثة دقائق افرغ عليه قليلا من الماء المسخن ، وهلم جرا ، فأفرغ عليه كل ثلاثة دقائق حتى تذهب برودة الماء على التدريج ويصير فاترا معتدلا ، وأعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فان استشعرت برجوع حركة نبض فلك ان تزيد حرارة الحمام حتى يصير في درجة سخونة الحمام المعتاد ، وما دام المريض في الحمام فرش على وجهه يسيرا في ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة . **رابعا** : المسه في أنفه بطرف ريشة أو بفتيلة ورق مسقية من القلي البخاري . **خامسا** : أدخل الهواء في صدره بواسطة أنبوبه أو منفاخ كما سبق في الغريق . **سادسا** : اعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد ، والعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة . **سابعا** : اذا بقي بالمريض الخدر فاسقه قليلا من ماء

ممزوج بخل ، وأن كان نومه به سبات فأحقنه بحقنة حادة ، وهي ما تقدمت في شأن الغريق . ومن سوء الخطأ توهم ان استعمال الخمور والمسكرات القوية يمكن أن يتدارك بها ابعاد هذا الداء ، مع أن الامر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الاشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثيرا من غيره بآفات البرودة .

الثالث عشر غيبوبة الحياة بدخان الفحم : كل من يمكث في غرفة مغلوقة موقود بها فحم فقد ألقى نفسه في مهلكة ، فمبدؤها يحصل للانسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعتريه تعسر النفس ، ثم يقع في ذبول كحالة الموتى ، فان عولج فذلك ، والا هلك ، ومعالجته هي ان تسرع الى تعريضه في الهواء ، وتجرده من أثوابه ، وتنيمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجا بخل ، وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها وتمسح وجهه ، ثم تعيد ذلك جملة مرات ، وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعل او غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه في باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرتين : الاولى ، بماء ممزوج بخل ، والثانية ، بماء ملح ، فان بقي بعد ذلك على حالته فذلك فقار ظهره بمسحة من عرف حيوان ، والطخ شيئا من معجون الخردل علي بطن رجليه ، وادخل الهواء في صدره بأن تدخل في احدى طاقتي أنفه فم منفاخ وتنفخ والحال ان الاخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على

ذلك ، وليس في الغالب يفوق المريض ، فأن ساعدتك المقادير على افاقته ، وظهر شيء من أمارات الحياة فضعه في فرش عظيم التسخين في غرفة بها الهواء ، والعقه شيئا من خير الاشربة.

الرابع عشر في معالجة الحرق : أول ما يحترق عضو الانسان فليغمس العضو في أبرد ما يمكن من الماء ، وأن تعذر غمسة في الماء فرشه دائما باسفنجة مملوءة منه ، وكلما تسخن الماء المستعمل في ذلك الغسل فجدده ، وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ما ينفتح من الدمامل بطرف ابرة ، واحذر ان تفشخها اوتسلخ البشرة ، ثم الطخ على ذلك العضو المرهم الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق . ومحل هذا كله مالم يمض نصف ساعة قبل غسل العضو المحروق في ماء بارد ، والا فهذا الدواء يكون مضرا ، بل في هذه الحالة لا بد أن تكتفي باستعمال المرهم الذي تنوب عنه الزبدة الطرية . ولو رأيت الحرق أمتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك.

الخامس عشر في الجدري ، والتخلص من مجيئه بتلقيح البقري : امر الجدري معلوم ، وكونه اما قاتلا او مشوها سيما بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما لا تنقضي الا بانقضاء الاجل ، وهناك طريقة لتداركه قبل أوانه ، مجربة ، فمن مرض بالجدري مع وجودها فهو من سوء تفريط والديه واهمالهم ، فعلى أب الانسان وأمه المبادرة لذلك ، فاذا بلغ سن المولود ستة أسابيع الى ثمانية وجب طلب

الحكيم ليخرج سم الجدري بالتلقيح ، ولا عذر لهما ان أهملا في ذلك ، لقدرتهما على مداواة ولدهما ، فلو تركاه حتى اصيب بالجذري فقد فات أوان استعمال تلقيح البقري ، فيندمان حيث لا ينفع الندم ، وفي بعض الممالك تلقيح البقري للاطفال معين على بيت المال ، فلا كلفة فيه ، خصوصا على الفقراء ، فعلى أهل هذه المملكة ان يقبلوا في الحال ولا يتأخروا الى غد ، فربما في اليوم القابل تحرك سم الجدري ، ولا يغتر بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئا ، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله ، ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدري فذلك لفقد شروط كون التلقيح كان غير محكم الوضع ، والحبات الذي أخذت كانت غير تامة ، فاذا استعملته في المولود فاطلع الحكيم على حبات البقري تتحقق اصابة استعماله وعدمها . واستعمال تلقيح البقري غير مؤلم ، فهو أخف من شكة أبرة ، ولا يمرض به الانسان، ويصح استعماله لاي عمر كان، والجدري داء متوقع مدة أجل الانسان حتى كأنه دين مآله الى القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة الى استعمال تلقيح البقري لمن يريد التخلص من اصابته.

الخاتمة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة . فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، اذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة ، فما ثمرة الاموال لعليل لا يتمتع منها بشفاء الغليل ؟ يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه ،

ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه . تقرع الامراض باب الخطير على نسق ما تقرع باب الحقير ، ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه . حكمة بالغة للحكم العدل ، ذي الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذي الطول ، فهو الممرض والشافي ، والمبتلي والمعافي . ها نحن الآن في حيز الحياة والثبات ، ولا ندري هل نعد غدا في زمرة الاموات ؟ فهذا سر خفي لا نصل الى فهمه ، كيف وقد استأثر الله به غامض علمه . فلا نثق بالمخايل الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فربما في أسرع من البرق اللامع تعترينا الامراض وتلزمنا المضاجع ، وقدرتنا على القبض على الاجل ، وحفظ الصحة من الخلل ، كاقتدارنا على عروج السماء ، واتخاذ الافلاك ملزما ، فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد ، العازم على الرحيل ، الجازم من الاقامة بالقليل ، قد كان بالامس نوبة الجار ، وستأتي غدا نوبة صاحب الدار ، ولا خوف علينا ولا حزن ، حيث كان خلاص ذمتنا حسن . هذه والحمد لله وحده ، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه وسلم.

(1) [Physiologie]

(2) وهو ما نسميه العلاج بالتنويم المغناطيسي.

(3) بكسر الهمـزة والكاف وسكـون الميم وضم البـــاء وسكـون الكاف وضم التـــاء. (الطهطاوي) . من الكلمة الفرنسية [L'acuponcture]

(4) بضم الهمـزة وسكـون الراء وضم التـاء وكسر البـاء وسكـون اليـاء وفتـح الـدال . (الطهطاوي) . من الكلمة الفرنسية : [L'orthopédie]

(5) اي اكاديمية الطب الملكية.

(6) من أمراض الامعاء.

(7) نبـات معروف من فصيلـة البقـول ، ورقـة مستـديرة ، وهـو لعـابي ذو لـزوجـة، ويستعمل في الطبخ كما يستعمل في التداوي.

(8) مصل اللبن هـو المـاء الـذي يقطر من اللبن عنـد وضعـه في الحصير كي يتحـول الى جبن ، وتسمي عادة «شرش اللبن».

(9) مفردها – الفصيح – زباني ، وجمعها : بانيـات ، وهو طرف الـذنب الـذي تضرب به العقرب وما يشبهها.

(10) مفردها فطرة ، بضم الفاء وسكون الطاء ، نبت له استدارة الزهرة.

الفصل العاشر

(في فعل الخير بمدينة باريس)

اعلم ان غالب الناس ببلاد الافرنج ، وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والنجامة فيها ، يعيشون من كسب أيديهم ، فاذا حصل للانسان منهم مانع كمرض او نحوه فقد معيشته ، وأضطر الى ان يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف الناس او نحو ذلك ، فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير ، حتى ان الانسان لا يسأل ما في أيدي الناس . وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت أهليها فاحتاجت الى مارستانات أكثر من غيرها .

ومعلوم ان مدينة باريس من أعمر المدن ، وأكثرها صناعة ونجامة ، فلذلك كثرت مارستاناتها ، ومواضعها المصنوعة لفعل الخير ، فكانت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم ، لما تقدم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم «حاتم طي» ولا ابنه «عدي» ، ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى ، الذي قال فيه الشاعر :

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكى المال من هو باذله

اذا حال حول لم تجد في دياره من المال الا ذكره وجمايله

تراه اذا مـــا جئتـــه متهلـــلا كأنـك تعطيـه الـذي أنت نـائلـه
هـو البحر من كل النـواحي أتيتـه ولجتـه المعروف والبر سـاحلـه
اذا مر بـالـوادي فتبكي تـلالـه عليـه وبـالنـادي فتبكي أراملـه
تعـود بسـط الكف حتى لـو أنـه أراد انقبـاضـا لم تطعـه أنـامله
ولـو كان مـا في كفـه غير روحـه لجـاد بهـا فليتـق الله سـائلـه

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ، ولو يسير ، مما يحكى عن بني عباس ، والبرامكـة ، أصلا . فـالملك المنصـور المشهـور بـالـدوانقي[1] أكرم الكرمـاء بـالنسبـة اليهم ! نعم ، ان البلاد المتحضرة يقل كرمها ، وأيضا يرون أن اعطاء القـادر على الشغل شيئا فيه اعانة له على عدم التكسب .

وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانـات ، وأهلـه خمسـة عشر نفسا للمشورة العامة ، وفي هـذا الـديوان خمسـة نظـارات : النظارة الاولى : لمباشرة المارستـان ، النظـارة الثـانيـة : لمبـاشرة مهمات المارستانات ، والخدمة للمرضى ، والعقاقير العامة ، النظارة الثالثة : مباشرة الاوقاف ، النظـارة الرابعـة : مبـاشرة الفقراء في بيوتهم ، واعانتهم ، النظارة الخامسة : مباشرة مصاريف المرستـان وتوابعها .

ولا يـدخـل الانسـان المـارستـان الا اذا ثبت مرضـه بقـول الحكماء ، ومن قـام من مرضـه في المـارستـان وأراد أن يخرج منـه قبل أن يتم شفـاؤه وترجع لـه قوتـه اخـذ من الـوقف بعض شيء يستعين به على قوته حتى يمكنه الرجوع الى أشغاله .

وأعظم مارستانات باريس المارستان المسمى «اوتيل ديو» ، يقرب ان يكون معناه «بيت الله» ، وهو موقوف على المرضى والجرحى ، ولا يدخل فيه الاطفال ولا أرباب الداء العضال ولا المجانين ولا النفساء ولا أرباب الامراض المزمنة ولا المبتلي بالافرنجي ، فان كل داء من هذه الاشياء له مارستان خاص .

ومن المارستانات الشهيرة في باريس مارستان يسمى «سنلويز» ، وهو معد لارباب الأمراض المزمنة ولارباب الدمامل والقوية والحكة الجرب ونحو ذلك .

وفي باريس مارستان للقطاء ، يعني الاطفال الذين يلتقطونهم من الطرق ، فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم ، كأولاد الزنا ونحو ذلك .

وفي باريس مارستان أيضا للأيتام ، وفيه يدخل الاولاد الفاقدون لاهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى ، فالذكور فيه في شقة والاناث في اخرى ، ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم : «أخوات الاحسان» ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ، ولهذا المارستان ديوان يديره ، فلا يوضع الصغير في هذا المارستان الا بأمر هذا الديوان ، واذا بلغ الانسان أحد عشر سنة في السن فانه يخرج باذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة ، ومصرفه يخرج من وقف المارستان ، ولمعلم الصنعة أن

يتبنى الصغير ، اي يأخذه وينزله منزلة ابنه ، ولكن بشرط ان يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله .

ومن جملة مارستانات باريس مارستان موقوف لتلقيح الجدري بوضع البقري . ومنها مارستانات يسميان مارستاني الشيخوخة والهرم ، فأحدهما للذكور والآخر للنساء . ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال موقوف على أربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسمائة وعشرين مريضة . ومنها مارستان العميان من أهل باريس أو غيرها من العمالات ، فلهم فيه الأكل والشرب وسائر ما يحتاجون اليه في تعليمهم ونحو ذلك . ومنها مارستان المجانين ، وفيه «قشلة»[2] عظيمة تسمى السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدي أو الأرجل أو نحو ذلك ، وهو من انظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيبا وجرايحيا ، وستة عقاقيرية لصناعة الادوية ، ويوجد في باريس زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى ديوان الاحسان ، والمقصود منه تكميل الخير الذي لا يمكن في المارستانات ، كما اذا حرقت تجارة تاجر أو انكسر فانه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة ، وفي كل خط بباريس ديوان احسان ، والاحسان فيه قسمان : احسان حالي واحسان حولي فالأول يعطي للفقير الذي وقف حاله او حدث له ما يعطله ، والثاني لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل .

ومن فعل الخير بمدينة باريس أنه يوجد بشاطىء نهرها

علب وحوائج بها روائح لتشميم الغريق لينهضوا لاسعاف من وقعت له حادثة عارضة ، ومن هذا كله يتبين ان فعل الخير بمدينة باريس أكثر منه في غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة لا لكل واحد على حدته ، فانه قد يشاهد في طرقها ان بعض الناس الذين يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع في وسط الطريق من الجوع وربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائبا زاعمين انه لا ينبغي السؤال أبدا ، لأنه اذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة له الى السؤال ، وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم اصحاب حيل في تحصيل الأحوال ، حتي أنهم يتشكلون في صورة المجاريح ونحوهم ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم .

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا ، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد الجنرال نحو مليونين من الفرنكات يعني ستة ملايين من قروش .

(1) نسبة الى «الدائق» ، عملة قيمتها سدس الدرهم .

(2) مستشفى .

الفصل الحادي عشر

(في كسب مدينة باريس ومهارتها)

اعلم ان من المركوز في اذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب ، والشغف به ، وصرف الهمة اليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم عندهم في الذم هي لفظة «الكسل والتنبلة» ، وسواء في محبة الاشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس ، فكأنهم فهموا قول الشاعر :

حب السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فأن جنحت اليه فاتخذ نفقا في الارض أو سلما في الجو واعتزل
ودع غمار العلى للمقدمين على ركوبها واقتنع منهن بالامل

الى ان قال :

فانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

ثم ان اعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة ، والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة ، أو الميري ، وصيارفة باريس . ووظيفة الدولة بالنسبة للتجارة ان تودع

الناس ما يريدون وضعه ، ويأخذون كل سنه ربحه المعين في قانونهم ، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا الا اذا زاد عما في القانون ، وللانسان ان يأخذ ما اودعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد ، ومثل ذلك صيارفة باريس . فانهم يأخذون ويعطون الاموال بالمرابحة ، وهم يعطون الربح مما تعطيه صيارفة بيت المال ، الذين هم صيارفة المملكة . ولكن المال المودع عند صيارفة المملكة آمن من المدع عن صيارفة المدينة ، وذلك لأن صيارفة المدينة قد يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فان ما يأخذونه يكون دينا على الدولة ، والدولة دائما موجودة . ومن امور المعاملات المهمة عند اهل باريس جمعية تسمى «الشركاء في الضمانة» فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية ، كما اذا انحرق بيته او حانوته او نحو ذلك ، فانها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته .

وفي مدينة باريس معامل سلطانية ، ومعامل غير سلطانية ، فمنها معامل المعادن ، كاشتغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منها ، ومنها معامل الصيني «والفرفوري»[1] ، ومعامل الشمع الاسكندراني ، ومعامل الصابون ، والقطن ، والجلود المدبوغة ، وشغل «السختيان»[2] ، ونحو ذلك . وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا ، حتى انهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رؤس الاشهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه .

وفي باريس عدة خانات عظمى توجد فيها سائر المبيعات ووكائل وحوانيت وبيوت للتجارة او الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته ، وبعض الاحيان قد يكتب اسم المتجر ، ولا يمكن ان يشرع الانسان في التجارة الا اذا دفع لبيت المال شيئا ولو هينا فيأخذ نشانا علامة علي الاذن له في التجارة ، فيحتاج ان يكون معه النشان وعلى تجارته ، وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الاشياء المبيعة ، ومعرفة الاثمان والقيم ، وفي هذا المكتب خمسة عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من أقاليم عديدة ، وبمقتضى قانون ذلك المكتب أنه يدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الامم .

ومن الامور التي تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التي تسير بالدخان ، ونصب القناطر ، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة ، والتيلغراف ، وهي الاشارة ، ونصب البريد بالساعي ، والبريد بالخيل ، وغير ذلك .

فانظر الى مدينة باريس فان حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر ، وفي نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشي بالنار سريعة السير ، وبمدينة باريس جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال ، فمنها عربات مدة لوسق الامتعة من باريس الى البلاد البرانية ،

وتسمى «رولاجة»[3] ، ومنها جنس معد لوسقة بالناس ليسافر فيه الناس ، ويسمى «الدلجنس» ، ومنها عربات صغيرة للسفر الى المحال القريبة من باريس تسمى «كوكو»[4] ويدفع فيها على كل رأس قدرا معلوما ، كالسفر في السفن ، وفي باريس عربات تستأجر الى أجل معلوم ، كيوم ، او شهر ، او سنة . والعربات العادية في باريس هي «الفياكره»[5] ، وهي ما فيها مقعد فيه سدلتان متقابلتان تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان يسحبانها ، «والكيريوله» وهي نصف «الفياكره» . فلها سدلة واحدة ، وركوب «الفياكره» او «الكيريولة» تكون اجرته بالساعة ، او يستأجره من محل آخر ، واجرة ذلك محدودة لا تزيد ولا تنقص ، ووجودها في سائر طرق باريس أكثر من وجود الحمير في طريق القاهرة ، وقد تحددت الان عربات كبيرة تسمى «الامنيبوسه»[6] ، معناها لكل الخلق ، وهي عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق ، مكتوب على بابها انها تمشي الى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدرا معينا ، وهي موجودة في أمهات خطوط باريس ، ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت ، ومنها عجلات البياعين ، ويوسقونها ويدورون بها في الطرق ليبيعوها ، وهذه العجلات قد يسحبها حصان وقد يسحبها حمار وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه ، وبها أجناس اخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك .

- -

وأما البريد المسمى عن الفرنسيين «البسطة» فانه من أهم المصالح النافعة في التجارات وغيرها ، يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكتبات التي تذهب عاجلا ، ويأتي ردها في أسرع ما يكون ، وتدبيرها بكيفيتها التي هي عليها من أعظم ما يمكن ، فان المكاتيب التي تبعث في البلد او العمالة تصل الى صاحبها من غير شك ، لأن سائر «نمرة» البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى «النمرة» ، فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذي تبعته لانسان تضعه في محل المكاتيب الموضوع في كل حارة ، فيأتي الساعي ويأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الاخرى ، ويأتي رده في يومه ، ثم ان الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان ، فلا يمكن لانسان ان يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه الحالة كثرت الرسائل بين الاحباب والاصحاب ، خصوصا بين العشاق ، لأمن الانسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل اليه المعنون باسمه ، وأعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة ، وبها أيضا يحصل الوعد بالمواصلة .

وفي باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعي أيضا من غير خوف أبدا . ومن الامور النافعة في التجارات «الجرنالات» ، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة او الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا في نظير ذلك ، وسيأتي الكلام عليها

ان شاء الله تعالى . وقد يطبخ التاجر الذي يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ويرسلها مع خدم في سائر البيوت ولسائر المارين بالطرق ويفرقها عليهم مجانا ، ففي هذه الاوراق يذكر اسمه واسم دكانه وما عنده من المبيع ويعين القيمة لسلعته . وبالجملة ، ففي مدينة باريس يباع سائر ما يوجد في الدنيا ، سواء كان خطيرا او حقيرا .

ومن أعظم الاشياء دكاكين العقاقيرية ، فيها توجد سائر الادوية مجهزة ، وسائر العقاقير التي على وجه الارض المعروفة الاسم والخاصية .

وسائر الخلق بباريس يحبون الكسب والتجارة ، سواء الغني والفقير ، حتى أن الصغير الذي لا يمكنه التكلم الا بالاشياء الصغيرة اذا أعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيده قائلا ما معناه بالعربية كسبت وقنيت ! ولولا ان كسبهم مشوب في الغالب بالربا لكانوا أطيب الامم كسبا . واذا كسدت تجارة أحدهم ، كما هو غالب في تلك البلاد ، فسد حاله وآل أمره الى تطلب ما في أيدي الناس ، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه يستحق الاعانة ، ويكثر وقوع مثل هذا الامر في هذه المدينة ، وان كثر أخذها وعطاؤها . وتداول الامطار والرياح لا يمنع الانسان منهم الخروج الى شغله ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع الى الشر ، والقلب الفارغ يسارع الى الاثم ! وأهل باريس اغنياء جدا حتى أن المتوسط منهم أغنى

من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرصون على الاموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد في الارزاق ، ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزاد في رزق حريص ولو ركب العواصف كي يزادا

وقد يوجد بها من أهالي الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه في أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير أشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار ، ولا شك انهم يأنس في قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ما عنده هاد ولا شفيع

رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

هذا لا يمنع من أنهم يدفعون الميري عن طيب خاطر ، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل انسان منهم ما هو عليه قادرا ، فمال الميري هو قوام صورة الممالك ، واحسان مصرفه في استحقاقه خير مما هنالك ، قال الشاعر :

والمال أس لقيام الصورة وخير منه صالح المشورة

ولما كانت رعيتهم رايعة[7] كانت الدولة عندهم لها ايراد

سنوي عظيم ، فان ايراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليون فرنك . ومن جملة أسباب غناء الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الامور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالاشياء المقتضية للمصاريف ، فان الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما ، واذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره ، فانه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجه ، وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى «الدوك درليان» ، وهو الآن السلطان الذي هو من أعظم الفرنسيس مقاما وأكثرهم غناء له من الاتباع سائر من في طرفه من العساكر ونحوها كالبستانجية والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير ، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه ، فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث أن العسكري بمصر له عدة خدم .

(1) الفرفوري : نوع من الصيني .

(2) السختيان : نوع من الجلد .

(3) من الكلمة الفرنسية : [Roulage] .

(4) بضم الكافين . ﴿الطهطاوي﴾ . من الكلمة الفرنسية : [Coucou]

(5) من الكلمة الفرنسية : [Fiacre]

(6) من الكلمة الفرنسية : [Omnibus]

(7) اي موسرة .

الفصل الثاني عشر

(في دين أهل باريس)

قد تقدم لنا في الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى القاثوليقية ، وقد بطل هذا الشرط بعد الفتنة[1] الاخيرة ، وهم يعترفون «للبابه» ، الذي هو ملك رومة ، بأنه عظيم النصارى وكبير ملتهم ، وكما ان الدين القاثوليقي هو دين الدولة الفرنساوية كذلك دين غالب الناس عندهم ، وقد يوجد بباريس الملة النصرانية المسماة البرتستانتية وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها ، وقد أسلفنا ان الفرنساوية على الاطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون في اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم او أوجبه أو نحو ذلك ، ففي أيام الصيام في باريس لا ينقطع أكل اللحم في سائر البيوت الا ما ندر كبعض القسس وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقي أهل المدينة فانهم يستهزؤن بذلك ولا يفعلونه أبدا ، ويقولون : ان سائر تعبدات الاديان التي لا تعرف حكمتها من البدع والاوهام . ولا تعظم القسس في هذه البلاد الا في الكنائس عند من يذهب اليهم ،

ولا يسأل عنهم أبدا ، فكأنهم ليسوا الا أعداء للانوار والمعارف ، ويقال ان غالب ممالك الافرنج مثل باريس في مادة الاديان .

ثم ان مسيو دساسي لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : «قولك : أن الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وأنهم ليسوا نصارى الا بالاسم ، فيه نظر ، نعم ، ان كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان باريس ليسوا نصارى الا بالاسم فقط ، لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم في أعمالهم لا يتبعون الى اهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون الا باكتساب الاموال بأي وجه كان ، واذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين أبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والادب ، غير انهم في ورعهم وتقاهم علي مراتب شتى ، منهم من يشارك عامة الناس في تصرفاتهم ، ويحضر معهم في محافل اللذات ، أعني «السبكتاكل» و «البال» ومجامع الاغاني ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الانفس ، وهؤلاء أقل عددا . وان دخلت كنائسنا أيام الاعياد المعظمة ظهر لك صحة قولي هذا . أنتهت عبارته .

والحامل له على ذلك كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر لا حكم له . ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس او

بلاد النصارى القاثوليقية ، عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاق مراتبهم ودرجاتهم ، فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم ، ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس في الكنيسة على كرسي يسمى كرسي الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه ذهب الى كرسي الاعتراف داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ثم يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له ، وقد عرف عندهم أن أكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والصغار ، وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق بها جآذرا وظباء !

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة ، فأولهم «الكردينال» ، وهو بعد «البابة» في الرتبة ، وذلك أن «البابة» قبل توليته يشترط أن يكون كردينالا ، ثم بعده «المطران» ثم بعده «الاسقف» ، ثم «الخوري» ، ثم «نائب الخوري» ، ثم «الشماس» .

وعند الفرنساوية أعياد دينية منتقلة ، يعني لا تقع في يوم معين كل سنة ، بل هي دورية ، ومرتبة في الغالب على وقوع عبد الفصح ، فمن أعيادهم الغريبة عيد الرفاع ، وقد تقدم ، ومنها عيد ظهور السيد المسيح ، ويسمى عند الفرنسيس عيد الملوك ، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة وتضع فيها حبة فول في عجينها ، ويقسمون الفطيرة على الندامى ، فكل من

جاءت حبة الفول في نصيبه فهو الملك ! ، فإن جاءت في نصيب رجل فانه يسمى باسم الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة فتخاطب أيضا بذلك الخطاب ، وان جاءت الفولة في نصيب امرأة فانها أيضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها وتطلق عليه أسم الملك ، فيكون سائر اكرام الليلة للملك والملكة برسوم خاصة وقوانين مألوفة ، وهذه الكيفية تصنع في سائر البيوت في مدينة باريس حتى بيت ملك الفرنسيس . ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون في عيد القربان موكبا ، ويلبسون فيه حللا مطرزة ، ويدورون المدينة بشيء يسمونه «البونديو» - وكلمة «البونديو» مركبة من كلمتين ، الاولى «بون» ومعناها طيب او عظيم ، والثانية «ديو» ، ومعناها الاله ، فكأنهم يقولون أن الاله حاضر في الجحفة[2] التي بين أيدي القسوس - والمراد عندهم «بالبونديو» عيس عليه السلام ، والفرنساوية يعرفون أن هذه الامور من باب الهوس الذي يدنس بلادهم ويذري بعقول أهلها ، غاية الامر ان العيلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الامور فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع ، وللقسيسين بدع لا تحصى ، وأهل باريس يعرفون بطلانها ويهزؤن بها . ولهم أعياد أخر لا يسعها هذا الكتاب . ثم ان لكل انسان من الفرنساوية عيد وهو يوم مولد القديس الموافق له في اسمه ، فاذا كان انسان اسمه «بولص» مثلا ، فان عيده يكون عيد

ماري بولص ، فترى كل انسان اسمه «بولص» يصنع وليمة ويشهر عيده ، وفي عيد الانسان يهادونه بأنواع الازهار .

(1) الفتنة هنا تعني الثورة ، انظر تطور معنى هذا المصطلح في العربية وأدبها السياسي والثوري ، في مقدمة كتابنا (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة 1972 م .
(2) الجحفة : بفتح الجيم وبضمها ، من معانيها : بقية الماء في جوانب الحوض .

الفصل الثالث عشر

(في ذكر تقدم أهل باريس في العلوم)
(والفنون والصنائع ، وذكر ترتيبهم ،
وأيضاح ما يتعلق بذلك)

الذي يظهر لمن تأمل في أحوال العلوم والفنون الادبية والصناعة ، في هذا العصر ، بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وانه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهي حكماء باريس ، بل ولا في الحكماء المتقدمين ، كما هو الظاهر أيضا . غير ان صاحب النقد السديد قد يقول : ان سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجاريب معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . وأما أغلب العلوم النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل بالنسبة لغيرهم من الامم ، غير أنهم يموهونها ويقوونها حتى يظهر للانسان صدقها وصحتها ، كما في علم الهيئة مثلا ، فانهم محققون فيه ، وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان والمخترعة له ، ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على

الصناعات ، غير ان لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية ومخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها ، وسيأتي لنا كثير من بدعهم وننبه عليها في محالها ، ان شاء الله تعالى . ولنقل هنا : ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجري فيها الحكم الثالث من الخلاف الذي ذكره صاحب (متن السلم) في الاشغال بعلم المنطق ،[1] فحينئذ يجب على من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب !

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها ، فأي انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها ان يطالع أي كتاب كان ، حيث انه لا التباس فيها أصلا ، فهي غير متشابهة ، واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ؛ فان الالفاظ مبينة بنفسها ، وبالجملة ، فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان يطالع كتابا من كتبها في علم من العلوم يحتاج ان

يطبقـه على سـائر آلات اللغـة ، ويـدقـق الالفـاظ مـا أمكن ، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها . وأمـا كتب الفرنسيس فلا شيء فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواشي الا نـادرا ، وأنما قـد يـذكرون بعض تعليقـات خفيفـة تكميـلا للعبـارة بتقييـد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلـة كافيـة في افهـام مـدلولها ، فاذا شرع الانسان في مطـالعـة كتـاب في أي علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير مماحكة الالفاظ ، فيصرف سائر همتــه في البحث عن مـوضـوع العلم وعن مجرد المنطـوق والمفهـوم وعن سائر ما يمكن انتاجـه منهـا ، وأمـا غير ذلـك فهو ضيـاع . مثلا اذا اراد انسان ان يطـالع علم الحسـاب فـانـه يفهم منـه مـا يخص الاعـداد من غير ان ينظر الى اعراب العبـارات واجراء مـا اشتملت عليـه من الاستعـارات ، والاعتراض بـان العبــارة كانت قابلة التجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كـذا ولو أخره كان اولى ، وأنـه عبر بـالفــاء في محـل الـواو ، والعكس أحسن ، ونحـو ذلــك . ثم ان الفرنسيس يميلـون بــالطبيعــة الى تحصيـل المعارف ، ويتشوقون الى معرفة سائر الاشيـاء ، فلـذلـك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة اجمـالا لسـائر الاشيـاء ، فليس غريبـا عنها ، حتى انك اذا خـاطبتـه تكلم معـك بكلام العلمـاء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنسـاويـة يبحثون ويتنـازعون في بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفـالهم فـانهم بـارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشـق المعـاني الغر وهـو مراهـق   وافتض أبكار الفنـون وليـدا

فانك قد تخاطب الصغير الذي خرج من سن الطفولية عن رأيه في كذا وكذا فيجيبك - بدلا عن قوله ، لا أعرف أصل هذا الشيء - ما معناه : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، ونحو ذلك ، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا في الفرنسيس على الاطلاق ، والعادة أنهم لا يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالبا في عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان في سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس او تعلم صنعته التي يريد تعلمها ، غير انه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن ، وهذا السن في الغالب يظهر به براعة الانسان وحسن طالعته ، كما قال الشاعر :

اذا مـا أول الخطى أخطـا   فما يرجى لآخره انتصـار
اذا حـاز الفتى عشرين عـاما   ومـا بلـغ المراد فـذلـك عـار

فكأن هذا السن عند سائر الامم سن انتهاء الناجب ، فانظر الى «الاخضري» فانه في سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسلة «السلم» وشرحها ، وكذلك العلامة «الامير» فانه في دون العشرين بيسير صنف مجموعة فتورك[2] على قول «الاخضري» :

ولبني احـدى وعشرين سنـة   معـذرة مقبـولـة مستحسنـة

بأنه وهو في دون السن ألف في أصعب من ذلك المقام . وما قلناه بالنسبة لارباب المعارف من الافرنج .

واما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيرا من الاشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فان هذه عندهم هي أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لا بد من كونه بتلك الاوصاف ، ولابد له من الدرجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقا لها .

ولا تتوهم ان علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس انما هم علماء في الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ، وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة في العلوم العقلية ، ومعرفة العلماء في فروع الشريعة النصرانية هينة جدا ، فاذا قيل في فرانسا هذا الانسان عالم ، لا يفهم منه أنه يعرف في دينه ، بل انه يعرف علما من العلوم الاخر ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها ، وان الجامع الازهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بني أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القيروبين بفاس ، ومدارس بخارى ، ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية .

والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهي دائما في الزيادة ، فانه لا تمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا ، فانهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسائط أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا ، ان شاء الله تعالى .

ومما يستغرب ان في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العرباء في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، ومزاجهم كالعرب في الاشعار الحربية بالغزل ، فقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى　　والنقع ليل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضه　　وأنا وأنت بظله نتنعم

وقول الآخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل　　مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها　　برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت　　برشقة من نبال الأعين النجل
ولا أهاب صفاح البيض تسعدني　　باللمح من خلل الأستار في الكلل
ولا أخل بغزلان تغازلني　　ولو دهتني أسود الغيل في الغيل

ولنذكر لك مجامع العلماء والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، ونحو ذلك ، لتعرف به مزية الأفرنج على غيرهم . فمن

خزائن الكتب الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب في أي علم كان ، بأي لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة الف مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التي يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ، ثم ان المصاحف التي عند الفرنساوية خزائنهم غير مهانة ، بل هي مصونة غاية الصون ، وان كان عدم أهانتها حاصلا غير مقصود ، غير ان الضرر في كونهم يسلمونها لمن يريد ان يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك ، وتوجد المصاحف للبيع في مدينة باريس ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التي أختارها للترجمة ثم ترجمها وضم اليها قواعد الاسلام وبعض شعبه ، وقال في كتابه : أنه يظهر له ان دين الاسلام هو أصفى الاديان ، وانه مشتمل على ما لا يوجد في غيره من الاديان .

ومن خزائن الكتب الخزانة المساة خزانة «مسيو» ، وتسمى خزانة «الارسنال» ،[3] «والارسنال» هي الترسخانة ، وهي أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتي الف مجلد مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار ، خصوصا الايطاليانية .

ومنها خزانة «مزارينة» ،[4] وفيها خمسة وتسعون الف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة .

ومنها خزانة «الانسطيطوت» ،[5] وفيها خمسون الف مجلد .

ومنها خزانة المدينة وهي نحو ستة عشر الف مجلد ، وهي دائما في الزيادة ، وكتبها آداب .

ومنها خزانة بستان النباتات ،[6] وفيها عشرة آلاف مجلد في العلوم الطبيعيات ومنها خزانة الرصد السلطاني ، وفيها كتب علم الهيئة .

ومنها خزانة مكتب الحكمة .

ومنها خزانة «أكدمة»[7] الفرنسيس ، وهي خمسة وثلاثون الف مجلد . وكل هذه خزائن موقوفة . وهناك خزائن مملوكة وهي كثيرة جدا ، فمنها ما يشتمل على خمسين الف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد منها ثلاثة آلاف مجلد ، وأكثرها في الغالب خمسون الف مجلد ، وقد تنوف عن ذلك ، ولا حاجة لتسميتها هنا ، ولكل انسان من العلماء او الطلبة او الاغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود انسان بباريس من غير ان يكون تحت ملكه شيء من الكتب ، لما ان سائر الناس تعرف القراءة والكتابة ، وسائر بيوت الاعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التي تتعلق بالفنون كالأحجار التي يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك .

ففي باريس كثير من الخزائن التي يقال لها خزائن المستغربات ، فيوجد بها ما تتشوق اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا

بـه على الغـوص في الطبيعيـات ، كالمعـادن ، والاحجـار ، والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثـة ، وسـائر المواليـد من الاحجار والنباتـات ، وسـائر الاشيـاء التي فيهـا آثـار القـدمـاء . وتعلق هذه الاشياء بالعلوم ان الانسان يدرس ما يراه في الكتب ويقابلـه ، فـان رأى في كتـاب تعريف حجر كـذا وحيوان كـذا وكان الحجر او الحيوان نصب عينه قابلـه مع الاوصـاف المـذكورة في الكتب ، وأنفع الاشياء بالنسبـة للطبيعيـات بمـدينـة بـاريس البستان السلطاني المسمى بستان النباتات ، وفيه سائر مـا تعرفـه البشر من الامور الخـارجـة من الارض الغريبـة ، يزرع بـأرضـه سائر النباتات الاهلية التي يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصنـاعـة والحكمـة ، فيطـالـع طلبـة علم العقـاقير والحشـائش دروسهم ، ويقابلون ما في الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعـا من كل صنف من الحشـائش يضعـونـه في نحـو ورقـة ويكتبـون أسمـه وخاصيته ، وفيه ايضا سائر مراتب الحيوانات الحيـة ، غريبـة أو أهليـة ، بريـة او وحشيـة ؛ فيـوجـد بهـا نحـو الـدب الابيض والاسـود ، والسبـع ، والضبـع ، والنمـورة ، والسنـانير الغريبـة ، والابل ، والجواميس ، وغنم بلاد التبت ، وزرافـة سنـار ، وفيلـة الهنـد ، وغـزلان البربر ،[8] وبقر الـوحش ، وأنـواع القردة ، والثعـالب ، وسـائر أنـواع الطيـور المعروفـة لهم . وسـائر هـذه الحيوانات التي تراها حية بهذا البستـان تراهـا ميتـة أيضـا محشوة بالتبن يراها الانسان على صورة الحية «كالبو» البقر الذي يصنعـه

الفلاحون بوادي مصر ، ويوجد في هذا البستان أورقة مملؤة بالمعادن النفيسة وسائر الاحجار سواء كانت عشية او طبيعية فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها ، ففيها كثير من الاشياء التي لا يمكن أن تجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكة او نباتها وأحجارها ، وكل هذه الاشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة او الانموذج من كل شيء ، ومكتوب على كل شيء أسمه باللغة الفرنساوية أو اللاطينية ، مثلا في القاعة التي فيها سبع مكتوب عليها أسم السبع باللغة الفرنساوية وهي «ليون» ، وهكذا . ومما في هذا البستان ما أشتهر ان بعض السباع قد مرض فدخل حارسه ومعه كلب فقرب الكلب من الاسد ولحس جرحه فبريء الجرح فحصلت الالفة بين الاسد والكلب ، ودخلت محبة الكلب في قلب الاسد ، فصار الكلب يتردد دائما على الأسد ويتملق اليه ويراه كأن من أصحابه ، فلما مات الكلب مرض الاسد لفرقته ، فوضعوا معه كلبا آخر أمتحانا لطبعه فتسلى به عن الميت ، ولا زال معه .

وفي بستان النبات رواق يسمى رواق التشريح ، وفيه جميع المـوامي ، أي الجثث المحنطة المصيرة ، ونحوها من الجثث ، ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبي الذي أستشهد بقتله للجنرال الفرنساوي «كليبر» وقتل الفرنساوية له في أيام تغلبهم على مصر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !

ومن محال العلوم الفلكية الرصد السلطاني ، بمدينة باريس ، وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا ، وذلك انه مبني من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد او الخشب في مادته ، وهو على شكل مسدس الاسطحة المتوازية القائمة الزوايا ، موجة الضلوع الاربعة الى الاربع جهات : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ، وفي طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتي الزوايا ، وفي طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة ، وهي باب الرصد ، وفيه رسم الفرنسيس في رواق في الدور الاول خط نصف نهارهم فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين ، فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول ، فينسبون اليه غيره من الاماكن المغايرة له في السمت ، وقد أسلفنا ذلك موضحا في (الفصل الاول) من (المقالة الثانية) ، وأرتفاعه وسطحه ثلاثة وثمانون قدما فوق الارض ، وهو منقسم الى عدة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك ، فمن هذه الاروقة ستة لها ممارق مفتوحة قطر كل ممرق[9] ثلاثة أقدام ، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على ما يحتاج الى رصده ، فترى منها النجوم وأنت في المخادع التي تحت الارض ، وفي هذه الاروقة امتحنوا ثقل الاجسام الطبيعية ، وميزان الهواء ، وفي هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قلته آلة تعديل الرياح المسماة – «الاتيمومتر» بها تقاس قوة الرياح ، وفيها طشت يسمى دن العيار يعدل به ماء المطر الذي ينزل كل سنة . ومخادع هذا

الرصد هي داخلة في الارض التي عمقها يساوي سمك حيطان الرصد ، والى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران والانعطاف كدرج المنارة ، وعدة درجها ثلثمائة وستون ، ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبايعية والكيماوية ان يصنعوا بها تجاريبهم بأن يجمدوا فيها المائعات ويبردوا بها الاجسام ليعرفوا مزاج الاهوية . وفيها رواق يسمى رواق المناجاة او رواق الاسرار ، وذلك ان فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للاذن اي وصوله بالهواء اليها ، وذلك ان بالرواق عمودا يقابله عمود آخر فاذا وضع الانسان فمه على العمود وأسر بكلام فانه يسمعه الانسان الذي بالعمود الاخر ، ولا يسمعه من يقرب منه ، وهذه الامور يفهمها من له المام بخاصية الصوت .

ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له «الكنسروتوار»[10] وفي هذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها ، خصوصا الآلات الهندسية كآلات الحيل وتحريك الاثقال ، ويزعم الفرنساوية أنه ليس في الدنيا نظير هذا المخزن ، وفي هذا المحل يرد الصدا صوت الشخص برد عجيب .

ثم انه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع ، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة ، يعني علم الطب ، ولهم فيها مدارس كثيرة .

ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول : ان العلماء في مدينة باريس لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة ، فمنها ما

يسمى «أكـدمـة» ، ومنهـا مـا يسمى «مجمعـا» أو «مجلسـا» ، «والانسطيطـوت» عنـدهم أسم عـام يشتمـل على جميـع اجتماع «الاكدمات» أي المجالس الخمس ، وهي «أكدمية اللغة الفرنساوية» «وأكدمة العلوم الأدبية ومعرفة الاخبار والآثار» «وأكدميـة العلوم الطبيعية والهندسيـة» «وأكـدميـة الصنـائع الظريفـة» «وأكـدميـة الفلسفة» . وقولنا : «أكدمية» أو «أكدمة» أو «أقـدمـة» ، هو لفـظ مـأخوذ من أسم مكان في مـدينـة أثينـا كان أفلاطون الحكيم يعلم فيـه تـلاميـذه ، ومنـه قيـل لطـائفـة من الفـلاسفـة القـدمـاء «الاكدميون» ، وكان يقال لهذا المكان «أكـدميـة» ، لأن صـاحبـه كان شخصا يونـانيـا أسمـه : «أكـدمس» ، وقـد جعل هـذا المكان وقفا لاهل مدينة أثينا ، وصيروه بستانا يتماشون فيـه ويتفرجون فيه ، فكان يدرس فيه أفلاطون ، ومنـه قيل لجمـاعـة أفلاطون : «أكـدميون» ، ويقـال لهم : أفلاطيون ، وهم مشهـورون أيضـا في كتب العربية «بالاشراقيين»[11] – بـالقـاف والفـاء – ويقـال لهم أيضـا «الاهيون» ، ويطلـق «أكـدميـون» الآن عنـد الفرنسـاويـة فيفهم منـه بمجرد أطلاقـه أهل «أكـدمـة الفرنسيس» ، وهم كبـار علماء الفرنساوية ، فاذا قيد فالمعنى ظـاهر ، كما اذا قيل «أكـدمـة مصر» فالمراد بها الجامع الازهر ، لأن المراد بـه ديوان أكابر علمـاء مصر . فأول علمـاء بـاريس ، بل وعلمـاء فرانسـا ، ديوان العلوم المسمى «أكدمة الفرنسيس» ، وأهلهـا أربعون عـالمـا ، كل واحـد من الاربعين يسمى عضـوا ، يعني ان هـذا الـديـوان بـأربـابـه

كالبدن ، وكل واحد كالعضو منه ، وفي الغالب أن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية ، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وأنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الادبية وكتب التاريخ ، وقد أتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية في العلوم وصلح لأن يكون من أرباب هذه «الاكدمة» بدل واحد من أربابها مات ، وكان هذا العالم كثير المجون فتوقفوا في قبوله في هذا الديوان ، فما كانت حيلته الا انه كان دائما يعرض بهجو أهلها ، فمن نوادر وقائعه انه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه فتذاكروا في فضل علماء «أكدمة» ، فقال : لا شك ان عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة ، يشير بذلك الى بعض الامثلة الفرنساوية من قولهم في مدح الانسان : ان له عقلا كعقل أربعة ، ومشيرا الى ان عقل كل عشرة منهم كعقل واحد ، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك ، ومن نوادره انه كتب قبل موته ،، كعادة الفرنساوية ، على رخامة قبره المهيء له بيت شعر باللسان الفرنساوي يقول فيه ما معناه بالعربية :

ها قبر من لم يك شيئا أيمه   كلا ولا من علماء أكدمه

ومعناه هذا قبر من لم يصل الى درجة أياما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة في الحقارة درجة هؤلاء العلماء !

وهناك «أكدمة» تسمى «أكدمة تقييد الفنون الادبية» ، وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا ، ووظيفتها الاشتغال بالألسن

النافعة ، وبآثار القدماء ، خصوصا بالمباني الغريبة ، وبالعلوم الادبية ، وبعوائد الامم وأخلاقها ، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت عنه مما هو في كتب علوم اللغات الغربية كاللاطينية والعربية والفارسية والهندية والصينية واليونانية والعبرانية والقبطية وغيرها .

ومن «الاكدمات» «الاكدمة» المسماة «أكدمة العلوم السلطانية» ، وأهلها منقسمون أثني عشرة قسما ، لكل قسم منهم فرع مخصوص ، فتكون فروعهم أثني عشر فرعا ، فأهل القسم الاول يشتغلون بالرياضيات ، كالهندسة والحساب ، وأهل القسم الثاني بعلوم الحيل ، كعلم جر الاثقال ، ونحوه ، والثالث بالعوم الفلكية ، والرابع بالعلوم الجغرافية والعلوم التجريبية ، والخامس بعلم الطبيعة العامة ، والسادس بالطبيعة ، والسابع بعلم المعادن والاحجار ، والثامن بعلم الحشائش ، والتاسع بتدبير مصاريف الارض ، والعاشر بتطبيب الدواب ، والحادي عشر بالتشريح ، والثاني عشر بفن الطب والجراحة .

ومنها «الاكدمة السلطانية» المسماة «أكدمة مستظرفات ..نون» ،(12) وهي خمسة فروع : الاول فن الرسم ، الثاني فن النحاتة ، والثالث فن العمارات ، الرابع فن النقاشة ، الخامس فن تركيب حروف الموسيقا .

ومنها «مكتب الفنون الظريفة» ، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه ، وفيه يتعلم الرسم والنقاشة والعمارة .

ومن مجالس العلوم جمعية تسمى «أثينة الفنون» ، وهي تعين على تقدم الفنون والصنائع ، وهي كالحكم الذي ينفذ الاشياء ويقضي فيها برأيه . ومنها «أثينة باريس السلطانية» ، وهي محل علوم وفنون ، ولا يكون فيها الانسان للتعلم الا اذا دفع شيئا يسيرا كل سنة ، والمدرسون فيها أرباب فضل . ومنها جمعية تسمى «الجمعية الفيلومانية» ،[13] ومعناه محبو العلوم ، والغرض من هذه الجمعية الاعانة على التقدم في علوم التولدات ، وهي مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن . ومنها جمعية تشتغل بعلوم الانشاء والبلاغات ، والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الادبية وحفظ غريبها حتى لا تفسد لغة الفرنسيس ، واذا أخترع الانسان معنى غريبا او أجاب عن سؤال غريب او قال شعرا مقبولا فانهم يعطونه جائزة ذلك . ومنها جمعية تسمى «حسن الدروس» ، ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليقية والدين القاثوليقي . ومنها جمعية تسمى «أكدمة أنبا أبولون» ، يعني الادباء ، وهي مجلس أرباب الفنون الادبية . ومنها جمعية تسمى «الجمعية الاسياتية»[14] تعني بلغات أهل آسيا ، او اللغات المشرقية ، وبتحصيل كتبها الغريبة وترجمتها الى الفرنساوية او طبعها لتشتهر . ومنها جمعية تسمى «الجمعية الجغرافية» ، وهي معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهي تقوي الناس على السفر الى البلاد المجهولة الاحوال ، فاذا سافر فيها انسان ورجع يطلبون منه سائر ما علقه عليها ، فتأخذ ما علقه وتقيده

وبدخله في كتب الجغرافيا ، ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ في الكمال . وبالجملة ، فهذه الجمعية هي التي تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا ، كطبع الخرطات ونحوها . ومنها «الجمعية الغرماتيقية» ، يعني المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية ، فان علم النحو يسمى في اللسان الفرنساوي : «الاغرمير» وباللاطينية والايطاليانية : «أغرماتيقا» ، ووظيفة هذه الجمعية الاشتغال بتصحيح اللغة ، وتجديد اصطلاحات او ابقاء الاصطلاحات القديمة ، لأن اللسان الفرنساوي لسان غير قار القواعد ، كتابه وقراءة . ومنها جمعية تسمى «جمعية المولعين بالكتب الخزائنية» ، ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة . ومنها جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون باجادة الخط .ومنها جمعية تسمى «جمعية المغناطيسية الحيوانية» ، وهي جماعة تقول بوجود سيال مغناطيسي في الحيوان . ومنها «جمعية حفظة آثار القدماء» ، وهي جمعية معدة لحفظ سائر ما يوجد من الآثار الباهرة عند القدماء ، كبعض مبانيهم ومومياهم ، والبحث عن ذلك ، وملبسهم ونحو ذلك ، ليتوصل به الى دراسة عوائدهم . ففي ذلك يوجد كثير من الامور النفسية المأخوذة من بلادهم مصر كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من «دندره[15]» ، فان الفرنساوية يتوصلون به الى معرفة الفلك ، على مذهب قدماء أهل مصر ، فان مثل ذلك يأخذونه بغير شيء ، الا أنهم يعرفون مقامه فيحفظونه

ويستخرجون منه نتائج شتى ومنافع عامة . ومنها مكتبة تسمى «مكتبة الاطوال» . وأهلها أثنا عشر ، ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغرافي ، فيشتغلون بعلم الهيئة وتأليف الرزنامات السنوية ، وتحرير الزيجات[16] وذكر أطوال البلاد ، ومنها «الجمعية السلطانية في علوم الفلاحة وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية» ، وأهل هذه علماء أغنياء وهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا ، ومنها جمعية لتحسين الاصواف ، ووظيفة أهلها مباشرة ما يتعلق بالغنم . ومنها جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة في الفنون والصنائع ، وهي تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ، فاذا أقترح انسان شيئا نافعا اخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة .

وفي باريس مدارس سلطانية تسمى «الكوليج[17]» ، وهي مدراس يتعلم فيها الانسان العلوم المهمة التي تكون وسائل في الامور المقصود منها ، وهي خمسة «كوليجات» يدرس فيها صناعة الانشاء والتأليف ، والالسن القديمة الغربية ، والعلوم الرياضيات ، وعلم التاريخ والجغرافيا ، والفلسفة وأصول الطبيعيات ، يعني كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم ، وعلم الخط ، وفيها مراتب للطلبة ، فان الانسان يسلك فيها في العادة مرتبة كل سنة ، ففي كل سنة من ستة سنين يخرج الانسان من مرتبة الى أعلا ، فهي بالترقي لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن

للانسان ان يتعدى أبدا ، وهناك «كوليجات» آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد في «الكوليجات» الخمسة السابقة ، وفيها «كوليج» آخر يسمى «كوليج الفرنساوية السلطاني» ، وهو أعظم جميعا ، فيتعلم فيه الرياضيات ، والطبيعة المخلوطة بالحساب ، والطبيعة العملية ، والهيئة ، والطب والتشريح العمليين ، وفيه يتعلم اللغات كالعربية والفارسية والتركية والعبرانية والسريانية ، والهندسة ، ولغة أهل الصين وعلومهم ، ولغة التتار ، والحكمة اليونانية التي هي فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة في اللسان اللاطيني ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية ، وهذا «الكوليج» يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب . ومن أشهر المدارس مدرسة «بوليتقنيقا»[18] يعني مدرسة كليات العلوم ، وفيه يدرس الرياضيات والطبيعيات لتربية مهندسين في علم الجغرافيا وفي العسكرية ، فمهندسوا الجغرافيا يهندسون القناطر والارصفة والطرق والجسور والخلجان وكل آلات الحيل ورفع الاثقال ، وأما مهندسوا العلوم العسكرية فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج والتوقي من ضرر الاعداء والاتخاذ العراضي وهندسة البارود ، وأرباب هذه المدرسة محققون لهم باع في سائر العلوم ، ويكفي في فضل الانسان ان يكون من تلاميذها . ومنها مكتب يسمى «مكتب الفروع الفقهية» ، فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها . ومنها مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ،

فيدرس فيه الذكور والاناث علم التصوير ، ومنها «مكتب الغناء السلطاني» ، فيتعلم فيه أيضا الذكور والاناث علم الالحان الصوتية والغناء الكنائسي . ومنها مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات لتكون وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب والهندسة والقياس ونحاتة الحجر والخشب وعلم المساحة وتصوير البهيمة والآدمي والازهار وأنواع الزينة ، ومنها «مكتب القناطر والجسور» ، وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والارصفة . ومنها مكتب سلطاني لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن وأستخراجها . ومنها «مدرسة الفنون والحرف» ، يتعلم فيها علمي الكيمياء والهندسة الداخلين في الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة الى هذا العصر ، ومنها مكتب يسمى «مكتب اللغات المشرقية المستعملة» ، وفيه يتعلم الفارسي والملاباري والعربية ، الاصلية والدارجة ، ولغة الترك والارمن والروم . ومنها مكتب يسمى «مكتب الارليغولوغي[19]» ، يعني تفسير الكلمات المكتوبة من قديم الزمان في اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة في الازمنة السالفة ، والاحجار المنقوشة ، وترجمة الهياكل القديمة المكتوبة . ومنها مكتب سلطاني يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ونحو ذلك . ومنها مكتب سلطاني للموسيقا والانشاء والخطابة ، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية من الذكور والاناث ، وأهل التعلم به أربعمائة نفس . ومنها «مدرسة

بستان السلطان» ، التي هي بستان النباتات ، وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا في جملة فروع ، كعلم الحشائش والطبيعيات والكيمياء والمعادن والتشريح والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمي والبهيمة . ومنها مكتب يسمى «مكتب البستنجية» وفيه يتعلم علم زراعة الشجر وحفظه من البرد ، وتطبيع النباتات الغريبة المنقولة على أقليم المحل الذي نقلت اليه . ومنها «مكتب تقليم الاشجار غير المثمرة لاخراج ثمرها» . ومنها «مكتب تعليم النباتات والمعادن» لمن يريد السفر في بلاد ليميز نباتها ومعدنها . ومنها مكتب يسمى «طب البهائم» ، وفيه يتعلم تطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المروضة ، وفيه مدرسة كيمياء ، ومدرسة لعلم الطبيعية ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ، ومكتب للفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها ، فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف آخر كحصان عربي على حجرة[20] أندلسية ليتولد منها صنف آخر . ومنها «مكتب الصم البكم» ، وهو موقوف على مائة نفس ،ويدخلون فيه من احدى عشرة الى ستة عشر ، فتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب واللسان والتاريخ والجغرافيا وصنعة من الصنائع ، وفي هذا المكتب ورشة يتعلم فيها علم الطباخة والنقاشة والنجارة والخراطة والخياطة والصرماتية ، ونحوها . ومنها «مكتب العميان السلطاني» ، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شيء مكتوب لهم

كتابة مخصوصة ، فيسونها باليد ، ويتعلمون أيضا علم الجغرافيا على خراطات مخصوصة أيضا ، ويتعلمون التاريخ والرياضيات والموسيقا بالصوت وبالآلة ، وغير ذلك من الحرف ، كشغل الجرابات ونحوه . وغير ما ذكرنا يوجد أيضا عدة مدارس . ويوجد في باريس أيضا مكاتب تسمى «البنسيونات» ، جمع «بنسيون»[21] وهي مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة وغيرها كالتاريخ والجغرافيا ، وهي نحو مائة وخمسين بنسيونا ، وفيها أكل الانسان مشربه ونومه وغسل حوائجه ، ونحو ذلك ، فيدفع أهالي الاولاد قدرا معلوما في السنة ، وغير «البنسيونات» المذكورة يوجد بيوت يكون صاحبها عالما فيأخذ عنده أولاد ليأكلوا معه ويشربوا معه ويعلمهم بنفسه ، او يحضر لهم معلمين عنده . وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لاولاده المعلم في البيت كل يوم ليعلمهم عنده .

ومن الاشياء التي يستفيد منها الانسان كثير من الفوائد الشاردة التذكر اليومية المسماة «الجرنالات» جمع «جرنال» ، وهو يجمع في اللغة الفرنساوية على «جرنو» ، وهي ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه في ذلك اليوم ، وتنتشر في المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوي ، وهذه «الجرنالات» مأذون فيها لسائر أهل فرانسا ان تقول ما يخطر لها ، وان تستحسن

وتستقبح ما نراه حسنا او قبيحا ، وان تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، مالم تضر في ذلك ، فانه يحكم عليها ، وتطلب قدام القاضي . « والجرنو» عصب ، فكل جماعة لها في مذهبها مذهب كل يوم يقويه ويحاميه ويؤيده ، ولا يوجد في الدنيا أكذب من «الجرنالات» أبدا ، خصوصا عند الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب الا من حيث كونه عيبا ، وبالجملة ، فكتاب «الجرنو» أسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم او محبتهم ! «والجرنالات» مختلفة الانواع والاصناف ، فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها ، ومنها من هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات ،وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره . «والجرنال» الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل «جرنال» تكثر نسخه على حسب رغبة الناس فيه ، وأرباب «الجرنو» يعرفون الاخبار الغريبة قبل غيرهم ، لان لهم مراسلات مع سائر البلاد .

ومن جملة علوم باريس الدفاتر السنوية ، والتقويمات الجديدة ، والزيجات المصححة ، ونحو ذلك ، فكل سنة يظهر فيها كثير من الروزنامات المشتملة زيادة على التواقير وعلى غرائب العلوم والفنون وعلى كثير من أمور الدولة وعلى تسمية أكابر الدنيا وتسمية أعيان فرانسا وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فاذا أحتاج الانسان الى أسم واحد والى بيته راجع في ذلك الكتاب . وفي باريس اوض القراءة ، او خلوات القراءة ،

فيذهب الانسان فيها ويدفع قدرا معلوما ، يقرأ سائر الجرنالات وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه .

ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب ، فانها من التجارات الرائجة ، مع كثرتها ، وكثرة المطابع ، وكثرة التآليف التي تنطبع كل سنة ، فانها يعسر حصرها، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع، ولا تمر سنة بمدينة باريس الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، وأعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغي ان يمدحوا به ، قال الشاعر :

اذا شئت أن تحظى من الكتب كلها بأطيب مروي وأحسن مسموع
فطالع مجاميع الدفاتر أنها تفرق من هم الفتى كل مجموع

وقال آخر :

أجعل جليسك دفترا في نشره ليريك من حكم الزمان نشورا
ومعيد آداب ومؤنس وحشه واذا أنفردت فصاحبا وسميرا

وبالجملة ، فلا يمكن وصف مدينة باريس ، مع تفصيل علومها وفنونها ، الا انه يمكن التعبير عن ذلك اجمالا ، كما ذكرناه .

(1) اي انه لا بأس من الاشتغال بهذا المعنى لمن لا تتأثر عقيدته به من العلماء الراسخين في الدين . اما الحكم الاول : فهو الوجوب المطلق ، والثاني هو التحريم المطلق .

(2) اي أعتمد عله .

(3) Arsenal Bibliotheque

(4) Mazarine

(5) La Bibliotheque de L'Institut

(6) La Bibliotheque du Jardin des Plantes

(7) Biblotheque de L'Academie Francaise

(8) الابل : حيوان أليف ذو ظلف ، لذكوره قرون متشعبة ومجوفة ، بعكس أنثاه التي لا قرون لها ، والجمع منه أبائل .

(9) المرق هو المخرج ، وهو يشبه الكوة تمرق منها الريح .

(10) بضم الكاف وسكون النون وكسر السين وسكون الراء وفتح الواو وسكون التاء ، كلمة فرنساوية ، معناها : المخزن ، او المحفظا ، ونحو ذلك . (الطهطاوي) .

(11) هم أتباع المدرسة الفلسفية الاشرافية ، التي تقيم المعرفة على «الحدس» الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية .. ويسمون هذه المعرفة بالعلم الحضوري ، الذي يحدث لهم بواسطة «سوانح نورية ، أي لوامع نورية عقلية» .. ومن أبرز فلاسفة هذه المدرسة في تاريخ الفلسفة الاسلامية شهاب الدين السهروردي المقتول . أنظر هذه المادة في (المعجم الفلسفي) .

(12) [Les Beaux Arts]

(13) La Société Philomatheque

(14) La Société Asiatique

(15) بلدة بصعيد مصر ، تقع غربي النيل ، بها الكثير من آثار الفراعنة القدماء .

(16) مفردها «زيج» ، كلمة فارسية معناها الجداول الفلكية القديمة .

(17) بضم الكاف وفتح اللام وسكون الياء . (الطهطاوي) .

(18) بضم الباء وكسر اللام وسكون الياء والقاف وكسر التاء والنون وسكون الياء . (الطهطاوي) L'Ecole Polytechnique

(19) بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر اللام وضم الغين واللام وكسر الغين الأخيرة . (الطهطاوي) L'Ecole de L'archeologie

(20) هي أنثى الخيل .

(21) بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة والتحتية وسكون الواو . (الطهطاوي) .

المقالة الرابعة

﴿فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض ولي النعم ، وفي تدبير اشغال الزمن في القراءة والكتابة وغيرهما ، وفي المصاريف الواسعة الخارجة من طرف صاحب السعادة ، وفي عدة مراسلات بيني وبين بعض خواص الافرنج تتعلق بالتعلم ، وفي ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة باريس . ومن هذه المقالة تفهم ان تعلم الفنون ليس سهلا ، وانه لابد لطالب المعارف من اقتحام الاخطار لبلوغ الاوطار في تلك الاقطار ، قال الشاعر :

دعيني أنل ما لا ينال من العلا فسهل العلا في الصعب والصعب في السهل
تريدين أدراك المعاني رخيصة ولا بد دون الشهد من أبر النحل

وقال آخر ، وهو من الكلام الجامع :

من كان يعلم أن الشهد راحته فلا يخاف الـذع النحل من ألم

وقال آخر ، أيضا :

ان الفضائل بالأخطار مولعة فابغ الفضائل وأبذل جهدك الثمنا
وان أراك الهوى منه الهوان فقل حكم المنية في حب الحبيب منى﴾

الفصل الأول

(فيما حصل لنا في أول الامر)
(من الترتيب في القراءة والكتابة وغيرهما)

من عادة أهل باريس أنهم في التعليم يبدؤن بتعليم الانسان القراءة في كتب عظيمة الحروف ، لترسم صورها في أذهانهم ، وفي هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ، ثم بعد عدة ألفاظ لغوية من الاسماء والأفعال ، فهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات ، وينطق بها كما ينبغي ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ، ثم بعدها تلقى في هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه في الكتاب الذي قرأناه : (هذه فرس لها أربع أرجل ، والطيور ليس لها الا رجلان ، لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فانه يسبح في الماء) ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا والارض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الوضع في قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع . ثم بعد ذلك يوجد في هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصا التي تتعلق بالصغار باللعب بها ، من العصافير والطيور

والسنانير ، ونحو ذلك ، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة في كيفية سلوك الصغار وطاعتهم للوالدين ، ونحو ذلك ، ثم نبذة في علم الحساب ، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدئون في قراءة كتاب أهم منه ، وفي كتاب النحو الفرنساوي ، وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الانسان ، فإن الانسان يتعلم في النهار عدة أمور مختلفة ، فيقرأ في الصباح مثلا التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنساوي ، ثم بعده درس تقويم البلدان ، ودرسا مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة ، الى آخره . وقد أسلفنا ذلك .

ولما كانت آمال ولي النعم متعلقة بتعلمنا عاجلا ، ورجوعنا الى أوطاننا ، ابتدأنا في مرسيليا ، قبل وصولنا الى باريس ، وتعلمنا في نحو ثلاثين يوما التهجي ، ثم لما ذهبنا الى باريس مكثنا جميعا في بيت واحد ، وابتدأنا في القراءة ، فكانت اشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو أنا كنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ، ساعتين ، ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوي ، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة .

وفي مبدأ الامر كنا نأخذ في الخط درسين ، يعني في معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ، ثم انتهى الامر الى أننا تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما

الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع .

وقد مكثنا جميعا في بيت واحد دون سنة نقرأ معا في اللغة الفرنساوية وفي هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية الا مجرد تعلم النحو الفرنساوي ، ثم بعد ذلك تفرقنا في مكاتب متعددة كل أثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل ، والشرب ، والسكنى ، والتعليم ، وتعهد أمورنا من غسل ، ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة في نظير ذلك ، ولا يلزمنا شيء من المأكل والمشرب .

ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة كان لكل واحد منا في كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفي بها ، وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشتري لنا من طرف «الميري» أيضا القمصان والسراويل وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات ، مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها ، ومما ينبغي ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء والاجزاجية في مداواة من كان يمرض منا ، فان الحكماء بباريس ، مع كثرتهم غاية الكثرة ، يأخذون في زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع ، على اختلاف مراتبهم في الشهرة وعدمها ، ويتعدد القدر بتعدد الزيارة ، وهذا إن لم ٢٠ للحكم سنوية معلومة . وقد أسلفنا ذلك في باب أعتناء

الفرنساوية بالطب وتعهدهم للصحة ، فأقل الحكماء يـأخـذ في كل زيـارة يمكث فيهـا نحـو نصف سـاعـة ثـلاث فرنكات ، والحكيم المتوسـط يـأخـذ في كل زيـارة خمسـة فرنكات ، والحكيم الجليـل القدر يأخذ في كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا ، وكلما تعـددت الزيارة في اليوم الواحد تعدد القدر ، وأما بالنسبة للمعدم فقد لا يأخـذون منـه شيئـا ، ونحن نعـد هنـاك من الموسرين ، بل من الاغنيـاء ، لتجملنـا بـالملبس الغريب عنـدهم ، ولنسبتنـا لـولي النعم . ولكثرة هـذه المصـاريف في تعليمنـا وغيره من سـائر مـا ذكرنا كان ناظر التعليم ، او الضابط علينا ، يذكرنا بـه في أغلب الأوقات لنجتهد ، وسترى بعض ذلك في مراسلات كتبها لي بعـد الامتحان العام .

الفصل الثاني

(في تدبيرنا في شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا في بيت الافندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا الا يوم الاحد ، الذي هو عيد الافرنج ، بورقة اذن للبواب من الضابط الذي نظره علينا ولي النعم ، ثم بعد تفرقنا في المكاتب المسماة «البنسيونات» كنا نخرج أيام البطالة ، وهي يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس وأيام أعياد الفرنساوية ، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء إن لم يكن له درس بعده . ولنذكر لك هنا «قانون نامة» الذي صنعه الأفندية بعد دخولنا في البنسيونات ، وعبارته :

«هذه صورة ترتيب الافندية في البنسيونات» :

المادة الاولى : إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم ان يخرجوا من البنسيونات في الساعة تسعة ، ويأتو الى البيت المركز من أول الأمر ، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم الى الأفندي النوبتجي في هذا الشهر لأجل أن يعلم ساعة دخولهم في البيت ، وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدة للفرجة ، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون الى البنسيونات في أيام

الصيف الساعة تسعة ، وفي أيام الشتاء الساعة ثمانية . وهذا الترتيب لازم ولابد ، فان رجع أحد الى البنسيون قبل ذلك وتعشى هناك فهو اولى وأحسن . من اللوازم أن لا يدور أحد في الازقة ليلا ، ومتى دخل في البنسيونات يعطي الورقة المذكورة للمعلم .

المدة الثانية : ان من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين .

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها في ورقة ، ولا تسمع الا اذا كانت من جهة التعليم او من جهة اخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها للنوبتجي في هذا الشهر .

المادة الرابعة : ان جميع الأفندية يمتحنون في آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم في هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات ، ويكتب في آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغي التفكر في هذا الخصوص لأجل تحصيل غرض حضرة ولي النعم .

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئا من الكتب والآلات في أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو «جومار» ، فان رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد

ما يخبر النوبتجي ، فان اشترى أجد شيئا من غير اجازة يلزمه ان يدفع ثمنه من عنده .

المادة السادسة : انه بعد الامتحان بما ذكرناه في «المادة الرابعة» ان استحق أحد من الأفندية الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة .[1]

المادة السابعة : في محل التفرج أو الطريق لا ينبغي لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروّتة ، وهذا الأمر هو أهم الجميع ، وممنوع أشد المنع .

المادة الثامنة : ان كل الأفندية الذين هم في البنسيونات لا يدخلون في البيت المركز الا كل خمسة عشر يوما مرة ، وهو يوم الأحد .

المادة التاسعة : ان يوم الأحد الذي لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين الى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغي رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، ان لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة .

المادة العاشرة : يتبعون قوانين البنسيون كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام في غير الأمور المتعلقة بالدين .

المادة الحادية عشر : اذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، واذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وان كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة وأطواره غير مرضية وجاءت

تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولي النعم أفندينا في القوانين التي أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة افندينا من اهالي هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشر : ان جميع الأفندية يكونون في البنسيونات في هذا الترتيب على حد سواء ، وان كان في البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والاخرى للتلامذة فأفندينا يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشر : ان الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز وبسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك .

المادة الرابعة عشر : كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا واذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل احد يلزمه ان يتبعه ، مع التنبه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ، ولي النعم فمن لم يمتثل أو تعلل بشيء يجري عليه ما هو مذكور في قانون حضرة أفندينا ولي النعم ، حفظه الله» .

(1) اي تقود .

الفصل الثالث

(في ترغيب ولي النعم لنا في الشغل والاجتهاد)

جرت عادته من مدة خروجنا من مصر بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرمانا كل عدة أشهر يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع ، فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى ، عند العثمانية : «احياء القلوب» ، مثل الفرمان الآتي ، ومنها ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا أو غير ذلك ، كفرمان آخر وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة ، ولنذكر لك هنا فرمانا من النوع الاول ، الذي هو «احياء القلوب» ، وان كان فيه شائبة توبيخ ، لتعلم كيف كان ، حفظه الله ، يحثنا على التعليم ، وهذه صورة ترجمته .

«قدوة الامائل الكرام ، الأفندية المقيمين في باريس ، لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم .. ينهي اليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم في مدينة باريس ، التي هي منبع العلوم والفنون فقياسا على قلة

شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا ، فيا أفندية ، ما هو مأمولنا منكم ! فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من اثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغي للانسان ان يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة ، وأن يجني ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم انفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين أمثالكم ، فان اردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم ، وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما تعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم في الاجتهاد والغيرة فأكتبوا لنا سببه ، وهو أما من عدم اعتنائكم او من تشويشكم ، وأي تشويش لكم هل هو طبيعي أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هي

عليه ، حتى نفهم ما عندكم ، وهـذا مطلوبنـا منكم ، فـاقرأوا هـذا الامر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة . قد كتب هذا الامر في ديـوان مصر ، في مجلسنـا في اسكنـدريـة ، بمنـه تعـالى ، فمتى وصلكم أمرنا هـذا فـاعلموا بموجبـه ، وتجنبوا وتحـاشوا عن خلافـه (خمسـة في ربيع الأول سنـة 1245)[1] خمسـة وأربعين بعـد الألف والماءتين من الهجرة» . انتهت صورة المكتوب .

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه ومـا تعلمنـاه في ذلـك الشهر ، ويكتب تحتـه المعلمـون أسماءهم ، ونبعثـه الى ولي النعم ، فلما تسـاهـل بعض منـا في ذلـك كتب مسيو «جومار» الينـا جميعـا مكاتيب ليـأمر من كان مواظبـا على كتابة هذا الاوراق في كل شهر أن يـدوم على مواظبتـه ، ويوبخ من تساهل ، وهـذه الصورة ترجمـة المكتوب الـذي أرسلـه الي في هذا المعنى ، ولنذكره كما هو .

«بـاريس 15 في شهر يـونيـه[2] 25 في شهر محرم سنـة 1246 .[3] الى محبنا العزيز الشيخ رفـاعـة ، لا يخفى عليكم الامر الـوارد من ولي النعم ، المتعلـق بـالاوراق الشهريـة المشتملـة على الـدروس التي قرأتموهـا ، قـدم على مـا أنت عليـه من المواظبـة ، وابعث هـذه الاوراق في يـوم الثـلاثين كل شهر لمسيـو المهردار أفندي ، واطلب منـه أوراقـا غير مكتوبـة لتكتبهـا بعـد ذلـك ، ومن المعلوم ان هـذه الورقـة الشهريـة لا تـأخـذ في كتـابتهـا الا نصف ساعة ، لأن الغرض منهـا مجرد ضبـط عـدد الـدروس التي

قرأتها ، ومعرفة نوعها ، وليكتب رئيس مدرستك في كل شهر في الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك ان تواظب على توفية الحقوق التي كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتي لك .

«جومار . أحد أرباب ديوان الانسطيطوت» .

(1) هجرية وتوافق 1829 م .

(2) سنة 1830 .

(3) هجرية .

الفصل الرابع

(في بعض مراسلات بيني وبين بعض)
(من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو «جومار»)

فمن كاتبني عدة مرات مسيو دساسي ، ولنذكر لك بعض مكاتيبه ، فمنها ما كتبه باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية . صورة مكتوب منه .

«من الفقير الى رحمة ربه ، سبحانه وتعالى ، الى المحب العزيز المكرم والاخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوي ، صانه الله ، عز وجل ، من كل مكروه وشر ، وجعله من ذي العافية وأصحاب السعادة والخير . أما بعد ، فان القطعة التي أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس وحوادث اقامتك في باريس رددتها اليك على يد غلامك ، ويصلك صحبتها حاشية مني على ما تقوله في باب الفعل في لغتنا الفرنساوية ، فاذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضي ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوربا كلها وفي ممالكها حتى يهتدى أهل مصر الى موارد تصانيفنا في فنون العلوم والصناعات ومسالكها ، فانه يعود لك في بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية

دائم الذكر ودمت سالما . كتبه المحب سلوستري دساساي» . انتهى .

صورة مكتوب آخر :

الى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوي ، حفظه الله وأبقاه ، أما بعد ، فانه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك ، وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا ، يروق الناظر فيه ، ويعجب من وقف عليه ، ولا بأس أن تعرض خط يدنا على مسيو «جومار» ، وأن شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا ، وينعم عليك بما أنت أهله ، ودمت على أحسن حال . محبك الداعي سلوستري دساسي الباريزي» .

وصحبة هذا المكتوب أرسل الى ورقة باللغة الفرنساوية لأطلع عليها مسيو «جومار» ، وهي بالتفريط أشبه ، وصورة ترجمتها :

«لما اراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره ، المؤلف باللغة العربية ، قرأت هذا التاريخ ، الا اليسير منه ، فحق لي أن أقول : انه يظهر لي أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وان منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام اسلامية ، ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم ، وبه يستدل على أن

المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير انه ربما حكم على سائر أهل فرانسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التي هو عليها ، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن . وقد حرص في بارب العلوم على ذكر المعلومات توطئه للتوصل الى المجهولات ، خصوصا في نبذته المتعلقة بعلم الحساب ، وبهيئة الدنيا . وعبارة هذا الكتاب في الغالب واضحة غير متكلف فيها التنميق كما يليق بمسائل هذا الكتاب ، وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعل سبب ذلك أنه أستعجل في تسديده ، وأنه سيصلحه عند تبييضه . وفي التكلم على علم الشعر ذكر ، استطرادا ، بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب ، على ما يظهر لي ، لكنه ربما أعجب ذلك اخوانه من أهل بلاده . وفي الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الاشكال ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى ، فينبغي له حذفها . وما ذكرت هذه الاشياء وبينتها هذا التبيين الا للاعلام بأني دققت النظر في قراءتي هذا الكتاب .

وبالجملة ، فقد بان لي ان مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة اقامته في فرانسا ، وانه أكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعا في بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندي منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة . البارون سلوستري دساسي . باريس في شهر فبريه سنة 1831 19 في شعبان سنة 1246».

وصورة ترجمة مكتوبة كتبه لي قبيل خروجي من مدينة باريس :

«بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعة . يحصل لي حظ عظيم اذا جاء عندي يوم الاثنين الآتي والساعة في 3 ان أمكنه ان يسرني برؤيتي له لحيظات لطيفة ، ويحصل لي ايضا غاية الانبساط اذا بعث لي أخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذ لم يتيسر لي رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا ازال أتذكر دائما آثاره وأستنشق أخباره ، مع انجذاب قلب وانشراح صدر .
البارون سلوستري دساسي» .

وصورة ما كتبه مسيو «كوسين دي برسوال» ، مدرس اللغة العربية المتداولة في المحاورات ، المشهورة باسم «الدارجة» عند العامة ، بدار كتب خانة السلطانية بباريس ، وكنت كتبت له أن يبعث لي رأيه في هذه الرحلة فكتب هذا الجواب وصورته :

حضرة المحب العزيز الاكرم ، الفصيح اللسان والقلم ، جناب الشيخ رفاعة المحترم ، حفظه الله ، آمين . بعد اهدائكم السلام ، ومزيد التحية والاكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل لكم طية تحرير يحتوي على رأينا في كتاب حوادث سفركم الذي تفضلتم علينا باطلاعنا عليه ، وبالحقيقة قلنا مثل ما هو اعتقادنا ، وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن ، واما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيئا ، وحيث انكم عازمون على السفر في آخر هذا الشهر

فالمأمول من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة الى بلادكم لا تخرجونا من خاطركم ، وتواصلونا بالاعلام بصحتكم ، ونترجاكم أيضا أنه اذا طبع كتابكم تبعثوا لنا منه نسخة ، وبذلك تصيروننا ممنونين ، ولافضالكم شاكرين . والله تعالى يحفظكم ، والسلام» .

«محبكم كوسين دي برسوال 24 شباط[1] سنة 1831»

والمراد بطية التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأيه فيه وصورة ترجمة هذه الطية التي كتبها لمسيو «جومار» باللغة الفرنساوية ليخبره برأيه في هذه الرحلة :

«قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعة الملقب : (بتخليص الابريز في تلخيص باريز) فوجدته يتضمن حكاية صغيرة في سفر المصريين المبعوثين الى فرانسا من طرف وزير مصر الحاج محمد علي باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات مؤخرة في جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة ، وقد ظهر لي أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح ، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالي بلد المؤلف ، فانه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرانسا وعوائدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا في العلوم البشرية والفنون البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الافرنجي ، والترقي في صنائع المعاش . وما

تكلم عليه من المباني السلطانية والتعليمات وغيرها أرادا أن يـذكر به لأهـالي بلـده أنـه ينبغي لهم تقليـد ذلـك . ومـا نظر فيـه في بعض العبـارات يـدل في الغـالب على سلامـة عقلـه ، وخلوه من التعسف والتحـامـل ، وعبـارة هـذا الكتـاب بسيطـة ، أي غير متكلف فيها التمنيق ، ومع ذلك فهي لطيفة ، وحين كانت نسخة هذا الكتـاب بيـدي كان الجزء الـذي يتعلق بـالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيـه منـه الا نبـذة في الريـاضيـات وعلم هيئـة الـدنيـا ومباديء أصول الهندسة والجغرافيـا الطبيعيـة ، فهـذه النبـذات ، وان كانت موجزة ، الا انهـا مشبعـة ، فيترجى أن المـؤلف يـدوم على تـأليف النبـذات البـاقيـة بهـذه المثـابـة ، واذا اجتمعت هـذه النبـذات في هـذا الكتـاب فـانهـا تكون كتـاب علـوم مستقـل ، مفتـاحـا لغيره من العلـوم ، نـافعـا لأهـل العربيـة ، واذا فرغ الكتاب بهذه الطريقـة فـانـه يستـدل بـه على رفعـه عقل مؤلفـه واتساع دائرة معرفته ، كوسين دي بوسوال» .

فاذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن مسيو دساسي ومسيـو كـوسين اتفقـا على حسن هـذا الكتـاب ، وعلى بسـاطـة عبارتـه ، أي عـدم التـأنق فيهـا ، وعلى نفعـه لأهل مصر . وانمـا مسيو دسـاسي أعـابـه بثلاثـة أشيـاء : **الاول** : أشتمالـه على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الاسلام ، **الثاني** : جعلنا مـا ينسب لمـدينـة بـاريس وغيرهـا من المـدن عـامـا لسـائر بلاد فرانسـا ، **الثالث** : ذكرنا بعض أشياء قليلـة الجـدوى عنـد تفضيل الشكل المدور على غيره من الاشكال .

أما مسيو كوسين فانه لم يتعرض لما جعله مسيو دساسي من باب الاوهام ، ولما تحدثت معه في شأنه أجابني بأن لم ير ذلك مضرا ، حيث أني كتبت على ما هو في أعتقادي ، والا لو تتبعت ما قاله الافرنج ووافقت آراءهم للحياة أو غيره لكان ذلك محض موالسة. وأما قوله كمسيو دساسي: أن عبارة هذا الكتاب بسيطة، فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة . يقال عند علماء الفرنساوية: عبارة بسيطة في مقابلة العبارة البليغة.

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بيني وبينه محبة أكيده ، وصورة اجتماعي بهذا الشخص أني دخلت مكتبة لقراءة «الكازيطات» ، أي الوقائع اليومية ، فتعرفت بهذا الشخص الذي هو «محاسبجي» في وزارة الخزينة المالية ، وأخوه مأمور «ديرطمانة» ، يعني اقليما من اقليم الفرنساوية ، وهو من بدنة عظيمة تسمى «السلادانية» نسبة الى «سلادان» ، يعني صلاح الدين ، يتوهمون أنهم ينتسبون الى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، قائلين انه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الافرنج تسرى بفرنساوية فحمله منه ثم أنطلقت الى بلادها فبقي الاسم في أولادها ، وذراريها الى الآن ! ثم أنى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ، ولا زلت معهم على الصحة الاكيدة مدة أقامتي في باريس ، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور في اقليم الترك في مدينة يقال لها البي ، فأرسل الي هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز :

«الى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة ، قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير ، وقد وكلني أخي بأن اخبرك بثنائه عليك على ما صنعته معه من الجميل في اعارتك له هذه الامانة ، وان اهنيك على بلوغك المأمول ، هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز ، فان شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الاقارب والاحباب ، وتجده بخير ، فقد بلغني أن سفرك قد قرب جدا حتى انني لا أظن أن أقابلك في مدينة باريس ، ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لأجتمعنا في مرسيليا وودعتك في آخر مدينة من مدن الفرنساوية تعبر فيها في سفرك ، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا في مدينةباريس التي كان بها أول أجتماعنا ، ولا أدري أن كان التلاقي مقدرا أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة خصوصا للافرنج ، فلا يمكنني أن أجزم بعدم الاجتماع . وبالجملة ، فلا شك أنك تركت في فرانسا صديقا يتذكرك ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضرر ، ويسر غاية المسرة اذا بلغه أنك تحظى في بلادك بثمرة فضلك وأوصافك ، وليت شعري ترجع الى بلادك بأي اعتقاد في طبيعة الفرنساوية ، فقد رأيت هذه الملة في وقت ينبغي أن يكون تاريخا من غرائب سيرها ، وأظن أنك تسئل في بلادك مرارا عديدة عن هذه الفتنة العظيمة ، ونصرة الفرنساوية في طلب الحرية ، فاذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فمأمولي أن

أراك في مـدينـة بـاريس ، والا فـأرجو منـك أن لا تسـافر حتى تودعني بلسان القلم بمحبتي لك غاية المحبة» . انتهت صورته .
«جول سلادان»

وهذه صورة مكتوب تفهم منـه أيضـا رغبـة الفرنسـاويـة في تحصيل الكتب الغربية ، وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين في ترجمـة الكتب وتأليفها ، وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

«الى مسيو الشيخ رفـاعـة . قـد حملني مسيو «دبنغ» ان أسـأل عن ترجمتـك لكتـاب العلـوم الصغير المشتمـل على أخـلاق الامم وعوائدهم وأدابهم ، لان مسيو «دبنغ» مؤلف هـذا الكتـاب ، فـاذا كانت ترجمتك تنطبع في مصر هل يتيسر لمؤلف الاصل ان يقيـد اسمـه لتحصيـل عـدة نسـخ من نسـخ هـذا الكتـاب بـالشراء ؟ ونعرفـك انـك تخبرنـا من أي محـل وصلت في الترجمـة من المجلـد الاول من جغرافيا ملطبرون ، فان هـذا الجزء الان يطبع طبعـا أخر مصححا مشتملا على زيـادات لا توجـد في الاول ، فلا بـأس أن نحيطك به علما ، فانه يكمل طبعه في أثناء هذا الشهر . ومني اليك مزيد التحية» .

محبك الصادق «رنو» بخزانة الكتب السلطانية ، بباريز» .

(1) اي : فبراير .

الفصل الخامس

(في ذكر ما قرأته من الكتب في مدينة باريس ، وفي كيفية الامتحانات ، وفيما كتبه لي مسيو «جومار» ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير في الوقائع العملية ، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب ،وان تكرر مع ما سبق :)

تعليم اصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة في السابع والعشرين من شهر شوال سنة 41 ،[1] وبعد أيام قليلة في مرسيليا ابتدأنا في التهجي والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجي ، ووصلنا باريس في شهر محرم فرجعنا ثانيا للابتداء في أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر ، ثم ابتدأنا جميعا في قراءة اجرومية «تومند»[2] في نحو اللغة الفرنساوية ، وكان المعلم يضيف اليها من اجرومية أخرى ما يحتاج اليه الحال ، فلما خرجت من بيت الأفندية قرأت مع مسيو «شواليه»[3] اجرومية اخرى ، ومع معلم آخر يسمى «لمونري»[4]اجرومتين ، وفي كل من البيتين ، يعني بيت الافندية وبيت المعلم ، كنت أشتغل بالاعراب النحوي والاعراب المنطقي ، يعني تطبيق الكلام على

قواعد النحو وقواعد المنطق والاملاء والانشاء والقراءة ، ولازلت على ذلك ثلاث سنوات .

(علم التاريخ)

ابتدأنا في بيت الأفندية حين كنا معا بكتاب (سير فلاسفة اليونان) فقرأناه وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده في كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدما المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود ، وفي آخره نبذة مختصرة في علم «الميثولوجيا»[5] ، يعني علم جاهلية اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند موسيو «شواليه» كتابا يسمى طائف التاريخ يتضمن قصصا وحكايات ونوادر ، ثم بعده قرأت كتابا يسمى (سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم) ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها ، ثم كتاب رحلة «انخرسيس»[6] الأصغر الى بلاد اليونان ، ثم قرأت كتاب «سيغور»[7] في التاريخ العام، ثم سيرة نابليون، ثم كتابا في علوم التواريخ والانساب، ثم كتابا يسمى «بانورما العالم»،[8] يعني مرآة الدنيا، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين في بلاد الدولة العثمانية، ثم رحلة في بلاد الجزائر.

(علم الحساب والهندسة)

قرأت في الحساب كتاب بزوت ،[9] وفي الهندسة الاربع مقالات الأول من كتاب «لو جندره»[10] .

علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع مسيو «شواليه» كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة اخرى في الجغرافية الطبيعية ، مقدمة لقاموس في الجغرافية ، يعني معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير مسيو «شواليه» وقرأت أيضا مع مسيو «شواليه» جملا عظيمة من جغرافية ملطبرون[11] ، ورسالة ألفها لتعليم بنته في هيئة الدنيا ، وقرأت وحدي مؤلفات عديدة في هذا الفن .

«فن الترجمة»

ترجمت مدة اقامتي في فرانسا اثني عشر كتابا أو شذرة يأتي ذكرها في آخر هذا الكتاب ، يعني اثني عشر مترجما ، بعضها كتب كاملة وبعضها نبذات صغيرة الحجم .

(كتب في فنون مختلفة)

قرأت كتابا في علم المنطق الفرنساوي مع مسيو «شواليه» ومسيو «المونري» ، وعدة مواضع من كتاب «ليبرترواياال»[12] من جملتها المقولات ، وكتابا آخر في المنطق يقال له كتاب (قندلياق) ،[13] غير فيه منطق أرسطو ، وقرأت مع مسيو «شواليه» كتابا صغيرا في المعادن ، وترجمته ، وقرأت كثيرا من كتب الادب ، فمنها (مجموع نوبل) ،[14] ومنها عدة مواضع من

ديوان «ولتير»، [15] وديوان «رسين»، [16] وديوان «رسو»، [17] خصوصا مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم، وهي أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية، وقرأت أيضا وحدي مراسلات انكليزية صنفها «القونت شستر فيلد» [18] لتربية ولده وتعليمه، وكثيرا من المقامات الفرنساوية. وبالجملة، فقد اطلعت في آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة، وقرأت في الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب «برلماكي»، وترجمته، وفهمته فهما جيدا، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين، يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم السياسية، المسماة عندهم شرعية. وقرأت أيضا مع مسيو «شواليه» جزئين من كتاب يسمى (روح الشرائع) مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له «منتسكيو»، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبني على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق، اي منتسكيو الاسلام، وقرأت أيضا في هذا المعنى كتابا يسمى (عقد التأنس والاجتماع الانساني) مؤلفه يقال له «روسو» وهو عظيم في معناه، وقرأت في الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم، وقرأت عدة محال نفسية في معجم الفلسفة للخواجة «ولتير»، وعدة محال في كتب فلسفة «قندلياق»، وقرأت في فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو

«شـواليـه» من غير تعرض للعمليـات ، وقرأت في فن العسكريـة من كتاب يسمى «عمليات كبار الضباط» مع مسيو «شواليه» مائة صفحة ، وترجمتها ، وقرأت كثيرا في «كازيطـات» العلوم اليوميـة والشهرية التي تذكر كل يوم ما يصل خبرة من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة «البوليتيقية» ، وكنت متولعا بها غـايـة التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية ، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية خصوصا وقت حرابة الدولـة العثمـانيـة مع الدولة الموسقوبية .

ولنذكر لـك هنـا ترجمتنـا رسـالـة فرضيـة[19] من فرنسـاوي متطوع بالخدمـة في معسكر الموسقو من مـدينـة شملا القريب الى بعض أمراء الالوية بمدينة بـاريس تـاريخهـا اثنـان وعشرون من يوليه الافرنجي سنة 1828 من الميلاد :

«اعلم يا محبنا أن هذا أول مرة التحم فيها صفنـا مع الصفوف الاسلاميـة منـذ وصولنـا الى العسـاكر الموسقـوبيـة ، ثم ان سـائر مارأيته ، مما يذهل العقول ويحير الألباب ، تقصر عنـه العبـارة ، كيف وهو أمر غريب بالنسبـة الى مثلي ، فلو كنت مثل جنـابكم من العسكر المتمرن على الحروب ، ســـافرت في غــزوة مصر ، ورأيت واقعة «أبي قير» ، وحصار مدينة «عكا» لما حـار لبي حين رأيت شيئـا جـديـدا لم أكن عـاينتـه قبـل ذلـك مما يكل عنـه الوصف ، ولكن تأمل يا أخي في أمري ، حيث اني قـد كنت في خفر ملكنـــا ، وخرجت من مكتب « سنسير» ، ولم أحضر من

الوقائع الا وقعة الأندلس ، فلم أشعر الا أن وجدت نفسي قدام جبل بلقان ، بعد أن جبت البراري والقفار ، وعاينت المشاق بتهديد اهلها لنا ، وتخلصهم منا ، وادهاشهم لجيوشنا . وأنظر في استعجابي ، وذهاب صوابي ، حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحرابة الاسلامية بأعلى «شملا» ، وقد وصل الى شريف علمكم من دفتر علم الموسقو تفصيل هذه الواقعة ، وشرح الجم الغفير من عساكرنا ، والخبر بأنها صارت ضائعة ، وقد شاهدت بعيني سوء ميتة الميرالاي «باردي» الموسقوي بحالة رديئة ، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية ، ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة ، وطول مدتها لا يعد من الغرابة ، وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة في الحروب ، فعساكر الاسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب ، وهذه المصادمة هي التي تستسهل الخطر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الاولى : أنها تبقى الحيرة في عقول الرجال ، والثانية : ان عاقبتها دائما تفرغ في قلوب الاعداء ، ولو كانو من الأبطال ، ولو شاهدت عيناك ما شهدته من أن الفرسان العثمانية ترعب الانسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الالحان الوحشية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوية ، لحكمت مثلي بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل ان يزول ، أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا

عظيمة بترتيب عجيب ، وهمة عليه بنظام غريب ، أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وان خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها في الاقدام والاحجام ، يبلغ عليها في الحرابة المقصود والمرام ، فياويح العساكر القرابة التي يلتحم صفها بصف هذه الخيول ، المركوبة لهؤلاء الفحول ، الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الاسلامية والوطنية ، وهذه مزية لا توجد يقينا في عساكر الموسقو . ثم ازدحام الخلائق في أوقات الحروب له تدبير صحيح ، ولكن في هذه الواقعة لا يجهل انسان ، ولو كان من القزاق ، ان الفخر لعساكر الاسلام ، وهذا الخبر ربما ظهر لك انه عجيب من مثلي ، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا في عسكر الموسقو ، لأشاركهم في اقتحام الأخطار ، واقتسم معهم الفخار ، ولكن لما وصلت الى هنا ظهر لي ان الظن قد خاب ، واني قد حدت عن الصواب ، ورأيت اعدائنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم اللبوث الضراغم ، ليس لهم شيئ من الدناءة ، بل هم أقرب الى قبول التأديب والظرافة من الافرنج .

واعلم يأخي أن غيرتي على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئا ، ولكن أقول : ليت شعري ! هل تلزم الغار على «اسلامبول» في خلاصهم ؟ أو ليس مما يتحسر عليه ان ماخسرناه في أخذ مدينة «ابرائل» من العساكر كان يكفي وحده في فك أسر الأروام ، وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر

الاسلام ، وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شابا بديع الصورة ، كثير الجروح ، فعفى عساكرنا عن قتله ، ولم يكن ذلك لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الايطاليانية ، ففهم مقالي ، واجاب سؤالي ، وأخبرني بأن اباه له من العمر الآن ثمانون سنة ، وله أخوان في خدمة حسين باشا ، ولا يشك في نصرة الدولة العثمانية ، بل يقول أن الترك يصلون الى موسقو !

واعلم يا أخي أن في «شملا» نحو مائتي ألف محارب ، ويتجدد عليها كل يوم ، وسلطانهم بطل عظيم عن يقين ، وها أنا الآن أطوي لك كتابي ، لأضع قدمي في ركابي ، فالآن عساكر الأعداء تحارب في طالعة جيشنا ، وأنا بين دوي الحان الترك وعجيج أصوات الروس غريق ، وهذه حرابة مهولة ان نظرت بعين التحقيق» .

(1) اي سنة 1241 هـ وتوافق سنة 1826 م .

(2) (Charles – Francois Ihomond)

(3) (Chevalier)

(4) (Lomonry)

(5) (Methiologie)

(6) (Anacharsis)

(7) (Segur)

(8) (Panorama du Monde)

(9) (Etienne Bezout)

(10) (Le Gendre)

(11) (Malte – Brun)

(12) (La Porte – Royal)

(13) (Condiliac)

(14) (Noël)

(15) (Voltaire)

(16) (Racin)

(17) (Rousseau)

(18) (Le Conte Chesterfield)

(19) رسالة فرضية ، اي متخيلة .

الفصل السادس

(في الامتحانات التي صنعت معي في مدينة باريس خصوصا في الامتحان الأخير الذي أعقبه رجوعي إلي مصر)

اعلم ان من عادة الفرنساوية ان لا يكتفوا في العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم او الاجتهاد ، او بمدح المعلم في المتعلم ، بل لابد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين في الامتحان قوة الانسان ، والفرق بينه وبين أمثاله . وهذا يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص ، بدعوة مثل دعوة الولائم عادة ، وهناك امتحانات خاصة ، وهي ان يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع او شهر ليعلم قوة زيادتهم في ذلك الاسبوع او الشهر ، وليكتب مفاد ذلك الى آبائهم ، فكنا في البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام ، بحضرة أعيان الفرنساوية .

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية ، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية أمتحان للبارعين في الجواب ، المتميزين عن غيرهم ، ففي أول أمتحان عام بعث لي مسيو «جومار» كتابا يسمى (رحلة أنخرسيس في بلاد اليونان) سبعة مجلدات ، جيدة التجليد ،

مموهة بالذهب ، يصحبها هذا المكتوب الذي صورته مترجما :

«أول يوم في شهر أغسطس 1827 من الميلاد .. قد استحقيت هدية اللغة الفرنساوية بالتقدم الذي حصلته فيها ، وبالثمرة التي نلتها في الامتحان العام الأخير ، ولقد حق لي أن أهنىء نفسي . أرسالي لك هذه الهدية من الأفندية النظار دليل على التفاتك في التعليم ، ولا شك ان ولي النعمة يسر متى أخبر أن أجتهادك وثمرة تعليمك يكافئان للمصاريف العظيمة التي يصرفها عليك في تربيتك وتعليمك ، وعليك مني السلام مصحوبا بالمودة» .

وقوله : «في الامتحان الاخير» ، المراد انه آخر بالنسبة لما قبله ، وهدية الامتحان تشبه أن تكون جائزة مثل جائزة الشعراء ، وفي الامتحان العام الثاني بعث لي هدية الامتحان كتاب (الانيس المفيد للطالب المستفيد) و(جامع الشذور من منظوم ومنثور) مؤلفه مسيو دساس وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجما :

«باريس 15 في شهر مارس سنة 1828 من الميلاد . قد أستحقيت هدية النحو الفرنساوي بالتقدم الذي حصلته في هذه اللغة ، وبالثمرة التي نلتها في الامتحان العام الأخير ، ولقد سرني أنك أستحقيت أن أبعث لك علامة السرور منك ، ليقوى قلبك ، وها أنا باعث جدول امتحانك لسعادة ولي النعم باجتهادك وفلاحك ، ولا شك انه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة ، وأنك أهل لرعايته لك وإعتنائه بتربيتك وتعليمك ، وعليك مني السلام» .

وفي هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحـان ، وأمـا صورة الامتحان الأخير الـذي بـه رجعت الى مصر ، أن مسيو «جومـار» جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمـات الموسقوبي ، رئيس الامتحان، وكان القصد بهذا المجلس معرفـة قوة الفقير في صناعة الترجمة التي اشتغلت بها مـدة مكثي في فرانسـا ، وصورة مـا تحصل من الامتحـان وكتبـه الفرنسـاويـة في وقـائـع العلوم ما نصه ، وصورة التلميذ رفاعة .

«انه قرىء في المجلس دفتران ، الدفتر الاول يشتمل على تعديد اثني عشر ترجمـة من اللغـة الفرنسـاويــة الى العربيــة ، ترجمهـا المذكور من منذ سنة ، وهذه أسماؤها : **الاول** : (نبذة في تاريخ أسكندر الاكبر) مأخوذة من تاريخ القدمـاء ، **الثـاني** : (كتـاب أصول المعادن) ، **الثالث** : (رزنامة سنـة 1244 من الهجرة) الفـه مسيـو جـومـار» لاستعمال مصر والشـام متضمنـا لشـذرات علميــة وتـدريبيــة ، **الرابـع** : (كتــاب دائرة العلـوم في أخـلاق الأمم وعوائدهم) ، **الخامس** : (مقـدم جغرافيـة طبيعيـة) مصححـة على مسيو «دهنبلض» ، **السـادس** : (قطعـه من كتـاب ملطبرون) في الجغرافية ، **السابع** : (ثلاث مقالات من كتاب «لجنـدرة» في علم الهندسـة) ، **الثـامن** : (نبـذة في علم هيـأة الـدنيـا) ، **التـاسع** : (قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية) ، **العـاشر** : (أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الافرنج) ، **الحـادي عشر** : (نبـذة في الميثولوجيا) يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم ، **الثـاني عشر** : نبذة في بلم سياسات الصحة) .

الدفتر الثاني يشتمل على رحلته وذكر سفره .

ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة في «بولاق» ، فترجم منها مواضع بسرعة ، ثم قرأ بالفرنساوي مواضع ، منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير ، في «كازيطة» مصر المطبوعة في «بولاق» ، ثم بحث معه في ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له فكان بعض الحاضرين بيده الاصل الفرنساوي ، والشيخ بيده الترجمة ، ثم انه يترجم العربية بالسرعة الى الفرنساوية قراءة لا كتابة ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الاصل .

وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير في معنى الاصل المترجم ، ولكن ربما أحوجه أصطلاح اللغة العربية ان يضع مجازا بدل مجاز آخر ، من غير خلل في المعنى المراد ، مثلا في تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله : علم العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر ! وقد اعترض عليه في الامتحان بأنه بعض الاحيان قد لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وانه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع في الخلط ، بل هو دائما محافظ على روح المعنى الاصلي .

وقد عرف الشيخ الآن انه اذا أراد ان يترجم كتب علوم فلابد له ان يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تعبيرا مناسبا للمقصود . وقد امتحن في كتاب آخر ، وهو (مقدمة

القاموس العـام) المتعلقـة بـالجغرافيـة الطبيعيـة ، وهـذا الكتـاب ترجمـه هـو الى العربيـة ، ولمـا كان وقت ترجمـة هـذا الكتـاب لم يصل الى درجته الآن في اللغة الفرنسـاويـة ، كانت ترجمتـه دون ترجمة الكتاب الذي بحث معه في قبله ، وكان عيبه انه لم يحافـظ على تأدية عبارة الاصل بجميع أطرافها ، وعلى كل حـال فلم يغير في المعنى شيئا ، بل طريقتـه في الترجمـة كانت منـاسبـة ، فتفرق أهل المجلس جـازمين بتقـدم التلميـذ المـذكـور ، ومجمعين على انـه يمكنه ان ينفع في دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتـاج اليهـا في نشر العلوم ، والمرغوب في تكثيرها في البلاد المتمدنة .

ولا شـك ان بعض هـذه الكتب قـد يحتـوي على أشكال[1] ، «والعطار» – من أهل بلاده – يشتغل بـالطبـاعـة على الاحجـار لأجل ذلـك ، وقـد كان حـاضرا في المجلس ، فقـدم لأهـل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابـة عربيـة وفرنسـاويـة ، وقـد ابتـدأ في معرفـة تسيير الشوكـة للنقش والقلم للكتـابـة وقلم الشعر لكتـابـة التصـوير ، وفي تصـويراتـه تـوجـد حيوانات وأمور عمارات وغير ذلك من الامور المصنوعة بالخطوط من غير ظـل ، ولكنـه جـاء في فرانسـا كبير السن فلم يمكنـه أن يصور تصويرا صحيحـا خـاليـا عن جميع العيوب ، ولكن يمكنـه ان يعرف معرفة تامة طريق الطباعـة على الحجر ، علمـا وعملا ، وينسخ عينات التصوير التي تعطى لـه ، ويطبعهـا بنفسـه عنـد الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل لفتح دار للطباعة ، وطبعهـا بيـده ،

وكانت نسخة منها موضوعة على «باش تختة»[2] مسيو «جومار» .

انتهى كلام «كازيطة» دائرة العلوم .

وكتب لي مكتوب تهنئة برجوعي الى مصر ، بعد تحصيل المرام ، غير أن هذا المكتوب قد ضاع مني ، وكان لابأس بذكره هنا ، وصورة ترجمة ما كتبه لي مسيو «شواليه» ، وهو أشبه باجازة ، وشهادة لي : «وزارة الحرب . يقول الواضع أسمه فيه «شواليه» ، تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة «بلوتكنيقا الضابط المهندس» ، المكتوب في وزارة الحرب ، الوكيل من طرف مسيو «جومار» والأفندية النظار ، بالارشاد الى تعليم مسيو الشيخ رفاعة :

أشهد أني مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التي مكثها التلميذ المذكور عندي لم أر منه الا أسباب الرضاء ، سواء في تعليمه أو في سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ، ولين عريكته . وقد قرأ معي في السنة الاولى اللغة الفرنساوية والقسمغرافيا . وأنتهي . وفيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك ، ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرسم ، مع ثمرة ، لم يشتغل به الا مرة في كل أسبوع لمجرد أمتثال أوامر ولي النعم ، ولكن صرف جهده مع غاية الغيرة في الترجمة ، التي هي صنعته المختارة له ، وأشغاله فيها مبينة في أعلاماتي الشهيرة ، خصوصا في الجرنالات الاولى التي أعطيتها لمسيو «جومار» ، وحسب هذا التلميذ ما في هذه الاعلامات

والجرنالات . وما ينبغي التنبيه عليه ان غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة في الليل تسبب عنه ضعف في عينه اليسار ، حتى أحتاج الى الحكيم الذي نهاه عن مطالعة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويض تقدمه ، ولما رأى أن الاحسن في اسراع تعليمه أن يشتري الكتب اللازمة له غير ما سمح به الميري ، وأن يأخذ معلما آخر غير معلم الميري أنفق جزءا عظيما من ماهيته المعدة في شراء كتب ، وفي معلم مكث معه اكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس في الحصة التي لا يقرأ معي فيها ، وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الاعلام الموافق لما في الواقع ونفس الامر ، وأن أضيف الى ذلك الافصاح عما في ضميري من كمال أعتقاد فضله ومحبته .

مسيو شواليه 28 في شهر فبريه سنة 1831 .

(1) اي صورة وجداول ورسومات .

المقالة الخامسة

﴿في ذكر ما وقع من الفتنة في فرانسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر . وانما ذكرنا هذه المقالة لانها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه .﴾

الفصل الاول

في ذكر مقدمة يتوقف عليها أدراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم

اعلم ان هذه الطائفـة في الرأي فرقتين أصليتين ، وهما : الملكية ، والحرية ، والمراد بالملكيـة أتبـاع الملـك القـائلون بـأنـه ينبغي تسليم الامر لولي الامر من غير أن يعارض فيـه من طرف الرعية بشيء ، والاخرى يميلون الى الحريـة ، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغي النظر الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفـذ للاحكام على طبق مـا في القوانين ، فكأنـه عبـارة عن آلـة . ولا شـك ان الرأيين متباينان ، فلـذلـك كان لا أتحـاد بين أهل فرنسـا ، لفقـد الاتفاق في الرأي .

والملكيـة أكثرهم من القسـوس وأتبـاعهم ، واكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية . فالفرقـة الاولى تحـاول اعانة الملك ، والاخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانيـة طائفة عظيمة تريد ان يكون الحكم بالكلية للرعيـة ، ولا حـاجـة الى ملـك ، ولكن لمـا كانت الرعيـة لا تصلـح ان تكـون حـاكـمـة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهـذا هو حكم الجمهورية ، ويقال للكبار مشايخ وجمهور ، وهـذا مثل مصر

في زمن حكم «الهامية» ،[1] فكانت امارة الصعيد جمهورية التزامية .

فعلم من هذا ان بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمل بما في القوانين ، وبعضهم يريد الجمهورية .

وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة 1790 وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية ، وأخرجوا العيلة السلطانية المسماة «البربون» من مدينة باريس ، وأشهروهم مثل الاعداء ، ولا زالت الفتنة باقية الاثر الى سنة 1810 ثم تسلطن ونابارته المسمى نابوليون ، وتلقب بسلطان سلاطين ، ثم لما كثرت حراباته وكثر أخذه للمالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الافرنج ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها ، مع محبة الفرنساوية له ، وأرجعوا «البربون» الى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية ، فكان أول من تسلطن منهم لويز الثامن عشر ، ولأجل ترغيب الناس في حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية ، بمشورتهم ورضائهم ، والزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه ، وهو الشرطة - وقد ذكرناها مترجمة في باب سياسة الفرنساوية - ولا شك ان وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية ، وانه لا يزاد ولا ينقض الا اذا أتفق عليه الملك وديوان البير وديوان وكلاءالرعية ، فلابد من الديوانين والملك ،

ويقال انه صنع ذلـك على غير مراد أهلـه وأقـاربـه ، وهم يحبون التصرف المطلـق في الرعيـة ، ويقـال أنهم تعصبـوا عليــه ، وكان رئيس العصبة أخاه شرل العاشر ، حتى انـه أطلع على مـا أخفـاه له فأبطله ، ويقال أن شرل العاشر أراد في كبر لويز الثامن عشر أن ينقض ذلك القـانون ويرجع الى طريق أطلاق التصرف ، فلم يمكنه ذلك ، ثم بعد موت أخيه أظهر شرل الحيلة وأبطل مـا كان نواه ، وأظهر انه لا يريد شيئا من ذلك ، وجوز لكل أنسـان أن يبدي في «الكازيطات» رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيـه قبل طبعه وأظهاره ، فصدق النـاس كلامـه ، واعتقـدوا انـه لا يخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتـدبيره ومشيـه على القوانين ، ثم انــــه انتهى أمره الى ان هتــــك القــوانين ، التي هي شرائــع الفرنساوية ، وخالفها ، وقبل هتكه للشريعة بانت منـه أمـارتهـا بمجرد تقليـده الوزارة للوزير «بولنيـاق» ،[2] وهو معلوم المـذهب والتـدبير ، يعني انـه يميل الى كـون الامر لا يكـون الا للملـك ، ويقال ان هذا الوزير هو أبن زنا ، زنت أمه بهذا الملك فولـدتـه منـه ، فهو في الحقيقـة أبوه ، وشهير بـالظلم والجـور ، ومن الحكم التي في غاية الشيوع : ان ظلم الاتبـاع مضـاف الى المتبوع ! وفي الحديث : «من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ، ولازمـه الهم» ، وقال الشاعر :

من أنصف النـــــاس ولم ينتصف بفضلـــــه منهم فـــــذاك الأمير
ومن يرد أنصــــافـــه مثلمـــا أنصف أضحى مــا لــه من نظير

ومن يرد أنصـــافـــه وهـــو لا ينصفهم فهـــو الــــــدني الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا «أيلجيـا» ببلاد الانكليز من طرف الفرنســاويــة ، يعني رســولا للمصــالــح بين الــدولتين ، كانت الفرنساوية تنسب اليه كلما خالف مذهب الحرية ، وكلمـا شـاع عنه أنه راجع الى فرانسا يظن جميع الناس أنه لا يأتي الا ليتقلـد منصب الوزارة ويغير القوانين ، فلذلك كان يبغضه سائر اربـاب الحريـة واغلب الرعيـة ، وقـد عرف الفرنســاويــة من قبـل ان أختياره للوزارة كان مقصودا لهم ، وقد حصل بعـد توليتـه بنحو سنة .

وقـد قلنــا فيا سبـق ان ديـوان رسـل العمالات ، الــذين هم وكلاء الرعين ، يجتمعون كل سنة للمشورة العموميـة ، فلمـا اجتمع هذا الـديوان عرضوا على الملـك ان يعزل هـذا الوزير ومن معـه من الوزراء الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا ، وقـد جرت العـادة ان ديوان المشورة يعمل فيه جميع الاشيـاء بمقـالـة أكثر أربـابـه ، وكان المجتمع في هـذا الـديوان للمشورة في قضيـة الوزراء أربعمائـة وثلاثون نفسا ، منها ثلاثمائـة لا يرضون بـابقـاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم ، فكان العدد الاكثر عليهم ، والعـدد الاقل لهم ، فتيقنوا عزلهم ، وكان الملـك يحب ابقـاءهم لاستعـانتـه بهم على تنفيذ ما اضمره في نفسه ، فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعـدة أوامر ملكية ، فكانت عاقبتهـا خروجهم واخراجهم لـه من بلادهم معزولا ، فهو كما قال الشاعر :

لم يــدر مــا يجني عليــه القــول ولا لمـــــــاذا أمره يـــــؤول
يلقي الكــلام كيف مــا ألقــاه لم يحسن الفكرة في عقبـــــــاه
وهكـــذا التهــوير في المقـــال وصحبـــة الاشرار والجهـــال
يخفضـك الجـاهـل اني رفعـك يرديـك وهـو زاعم أن ينفعـك

(1) ثورة قام بها شيخ العرب همام ، أحد كبار الملتزمين ، وتعـاون فيهـا الفلاحون مع القبائل العربية ، بقيـادة الهامية ، وكان ذلـك في عهـد علي بـك الكبير ، شيخ البلـد (1728 – 1772 م) .

(2) جول أرمـان ، بولينيـاك (1780 – 1847) تولى الوزارة سنـة 1829 حتى أحـداث الثورة سنـة 1830 م ، ولقـد خفف عنـه الحكم الـذي أصـدرتـه الثـورة بـالسجن مـدى الحياة ، خفف في سنة 1836 م ورحل بعدها الى انجلترا .

الفصـل الثـاني

(في ذكر التغييرات التي حصلت وما ترتب عليها من الفتنة)

قد سبقّ لنـا من القوانين السـالفـة في الكلام على حقوق الفرنساوية في «المـادة الثـامنـة» أنـه لا يمنع انسـان في فرانسـا أن يظهر رأيــه ويكتبــه ويطبعــه ، بشرط أن لا يضر مــا في القوانين ، فان أضر به ازيل . فما كان سنة 1830 واذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها : النهي عن أن يظهر الانسـان رأيـه وأن يكتبـه أو يطبعـه بشروط معينــة ، خصـوصـا «الكازيطـات» اليوميـة ، فـانـه لابـد في طبعهـا من أن يطلع عليهـا واحـد من طرف الـدولـة ، فلا يظهر منهـا الا مـا يريـد اظهـاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لا يمكنـه عملـه الا بقـانون ، والقـانون لا يوضع الا بـاجتماع أراء ثـلاثـة : رأي الملـك ، ورأي أهل المشورة ، يعني ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده ما لا ينقذ الا اذا كان صنعه مع غيره ، وغير ايضا في هذه الاوامر شيئـا في مجمـع اختيــار رسـل العمالات ، يعني في الــذين يختـارون رسـل العمالات ليبعثـوهـا في بــاريس ، وفتـح ديـوان العمالات قبل ان يجتمع ، مع أنه كان حقـه أن لا يفتحـه الا بعـد

اجتماعهم ، كما فعله في المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين .

ثم أن الملك لما اظهر هذه الاوامر ، كأنه أحس في نفسه بحصول مخالفة ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية التي هي مقصد رعية الفرنساوية ، وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة ، حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها ، وبمجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات : انه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب ، كما قال الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعيدان تذكو وأن الحرب أولها الكلام

ففي مساء اليوم الذي ظهرت فيه هذه الاوامر في «الكازيطات» أخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى «بالروايال» ، يعني السراية السلطانية ، التي تسكنها عيلة أقارب الملك المسماة عيلة «أرليان» ، التي الملك الآن منها ، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين في شهر يوليه .

وفي يوم السابع والعشرين لم تظهر غالب «الكازيطات» الحرية ، لعدم رضاءها بالشروط ، فلذلك بلغت الاوامر جميع الناس ، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور «الكازيطات» التي من عادتها أنها لا تفتر عن الظهور الا لمهم عظيم ، فأغلقت

الـورشـات والمعـامـل والفبريقـات والمـدارس ، فظهر بعض «كازيطات» الحرية آمرة بعصيان الملك ، والخروج من طـاعتـه ، ومعددة لمساويه ، وفرقت على الناس من غير مقابل .

وبهذه الديار ، بل وفي غيرها ، قـد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام ، خصوصا مادة الخطابات ، فانها قوية ، وخصوصا بلاغـة الانشاء ، فلها مدخلة عظيمـة ، كما قيل : ان نزل الوحي على قوم بعد الانبياء نزل على بلغاء الكتاب ! خصوصا اذا مـا كان يـذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ، ومقصودا عنـد الخـاصـة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، فـانهـا مـا فهمتـه العـامـة ، ورضيت به الخاصة .

فلما سمع بذلك ولاة الحسبة حضروا في المحال العامـة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه «الكازيطات» ، وحاصروا مطابعهـا ، وهموا بكسر آلات الطباعـة ، وكسروا بعضهـا ، وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، وبهدلوا كثيرا ممن أظهر شيئا مخالفا لترتيب الملـك من الرعية ، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنساويـة ، فكتب أربـاب هذه «الكازيطـات» يعني رؤسـاء الفرنسـاويـة الـذين هم يكتبون فيها آراءهم ورقة انكار ، وأشهروها ، وعـددوا نسخهـا ، ولصقوهـا بجدران المـدينـة ، وأمروا فيهـا الرعيـة بـالحرب ، وعينوا محلـه ، وكان الميعاد في درب سراية «باليروايل» ، فـازدحم فيـه كثير من الأمم وفيما حوله من الحارات ، فكانت العساكر السلطانية تحـاول تفريق هذه الزحمات ، فعظم دوي الرعيـة وكثرت أصواتهم وظهر

غضبهم في سائر الدروب والحارات ، فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولا بالاحجار والعساكر بالسيوف وألات الحرب ، فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين ، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب ، وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس ، فكأنما لسان حال الفرنساوية ، الذي هو أصدق من لسان مقالهم ، جعل يقول : ☆ ان بني عمك فيهم رماح ☆ فعظم القتال ، وكان أكثر المقتول من الرعية ، فاشتد غضبهم ، وعرضوا القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال ، واظهار عيوب العساكر ، وقامت أنفس الناس على ملكهم لاعتقادهم أنه أمر بالقتال ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! أدام الله الشرطة وأهلك شدة الملك ! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، واخذت الرعية الأسلحة من السيوفية ، بشراء أو غضب ، وأغلب العملة والصنائعية ، خصوصا الطباعين ، هجموا على «القرقولات» «وخانات» العساكر وأخذوا منها السلاح والبارود ، وقتلوا من فيها من العساكر ، وخلع الناس صورة علامة الملك من الحوانيت والمحال العامة – وعلامة ملك الفرنسيين هي صورة زهر الزنبق ، كما أن علامة ملك الاسلام صورة هلال ، وملك الموسقوبية صورة عقاب – وكسروا قناديل الحارات ، وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه في السكك المطروقة حتى يتعذر مشي الفرسان عليه ، ونهبوا «جبخانات» البارود السلطانية .

فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء الفرنساوية ، مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي ، فانه لو كان كذلك لأظهر امارات العفو والسماح ، فان أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء والرفق بالمذنب والأعضاء
ان لم تقل عثرة من يقال يوشك أن تصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم في اعطاء الحرية ، لفرقة بهذه الصفة حربة ، لما وقع في مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة ، سيا وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفو بها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفي اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة ، الذي هو محل شيخ مدينة باريس ، فعند ذلك ظهر الخفر الجنسي ،[1] وقد يعني «ورديان» الرعية ،

وهم عساكر كانت سابقا تخفر الأهالي ، كما أن للملك عساكر «ورديان» تخفره ، كان عزلهم الملك شرل العاشر ، فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن العرية ، فأشهروا أسلحتهم للقتال ، وطردوا سائر العساكر من محلهم ، وحرقوا كثيرا منها ، وفي هذه الأوقات ارتفعت المحاكم ، وصار الحاكم هو الرعية ، ولم يمكن للدولة عمل شيء ، فقد بذلت ما عندها من القوة لاخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ،.فكانت جميع القواصة متحركة والطبجية معينة لاثني عشر ألفا من الورديان السلطاني ، وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر الف نفس ، غير الطبجية والقواصة ، وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ، ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالاحجار أو يعين المتسلح .

وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا الى محل يقال له «لوفر» والى قصر «التوراي» ، وهو سراية الملك ، ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد ، وبينما هم في الحرابة بهذا المحل اذ انتشر البيرق المثلث الالوان ، الذي هو علامة الحرية ، على الكنائس والهياكل العامة ، ودقت النواقيس الكبيرة لاعلام سائر الناس داخل وخارج باريس ، ومن أهل المدينة أو غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر ، فلما رأت العساكر ان النصرة للرعية ، وان ضرب السلاح على أهل بلادهم

وأقاربهم عار عليهم ، امتنع أغلبهم ، وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه .

وفي اليوم التاسع والعشرين ، في الصباح ، ملكت أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا في أيديهم قصر «التولري» «واللوفر» ، فملكوها ، ونشروا عليها بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك «صاري عسكر» المأمور بأدخال أهل باريس في طاعة السلطان ، رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ، ومن هذا الوقت نصب حكم وقتي ، وديوان مؤقت لنظم البلاد ، حتى ينحط الرأي على توليه حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت «صاري عسكر» المسمى «لفييته»[2] ، وهو الذي قاتل في الفتنة الاولى للحرية أيضا ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ويحامي عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب أتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في «البوليتيقية» وليس صاحب قريحة مستخرجا للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا في العلوم العسكرية ، ولكن أعظم الناس مقاما ، لا قريحة وفهما ، وليس المراد القدح في معرفته ، بل في انتهاء الرياسة اليه ، ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائما على قدر المعرفة ، وأن كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ، ومن الغريب ان مثل هذا الامر يقع أيضا في البلاد الحسنة التمدن ، وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف

الـذي هـو : «ذكاء المرء محسـوب عليـه من رزقـه !» كما قـال الشاعر :

اذا أبصرت ذا فضـــــل فقيرا فـلا تعجب لفقر في يـــديـــه
فقـد قـال النبي مقـال صـدق ذكاء المرء محسـوب عليـــه

وما أحسن قول الشاعر :

ولـو أن السحـاب همي يعقـل لمـا أروي مـع النخـل القتـادا
ولـو أن السحـاب همي بعقـل سقى الهضبات واجتنب الوهـادا

(1) الاهلي والوطني ، وهي الملشيا الشعبية .

(2) لافـايت ، (La Fayette) مـاري جوزيف ، مـاركيز دي (1757 – 1834 م) من اعلام النضال الفرنسي في سبيل الحريـة ، شـارك ، متطوعـا في حرب الاستقلال الامريكيـة ضـد الاحتلال الانجليزي ، ومنحـه الكونجرس رتبـة «مـاجو» – أرفـع رتب الجيش الامريكي يومئذ ، وشارك في الثورة الفرنسية البورجوازية وعين قائـدا للحرس الـوطني في 15 يـوليـو سنـة 1789 م .. كما شـارك في ثـورة يـوليـو سنـة 1830 م التي يتحدث عنها الطهطاوي هنا .

الفصل الثالث

كيف كان يصنع الملك في هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح بعد فوات أوانه ، وفي خلعه المملكة على ابنه .

اعلم ان اوامر الملك برزت منه وهو في بلدة «سنكلو» على القرب من باريس ، فالفتنة حصلت في باريس والملك لم يكن بها ، ثم ان أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه ، وأن يسترد أوامره ويسترجعها ، يعني أن يكتب أمرا بأنه أرجع اليه ما كان أمر به ، فلم يرض بذلك ، وأرسلوا اليه في ذلك عدة وكلاء ليستعطفوه في ذلك ويترجوه ، فلم يفده كلامهم ، بل كان أضيع من دمع على طلل ! وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا ، وانه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك ، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل . فلما تحقق عنده ان دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبول للمصالحة أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه ، فأحابوه بأنه لم يبق محلا للصلح ، وأن أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر في العواقب ، ومن لم يتبصر في العواقب لقي النوائب ، وأنه لم يدقق النظر ، والا لما حصل له ذلك .

وفي يوم الثلاثين من شهر يوليه ، اتفق رأي أهل مشورة

رسل العمالات على ان يبعثوا يترجوا الدوق «درليان» ، قريب السلطان من بدنه ثانية ، بان يكون قائم مقام المملكة ، حتى تقع مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم ، وكان خارج باريس ، فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل الى باريس في الحادي والثلاثين ، ونزل في دار المدينة ، وأجاب برضائه بما صنعه أهل هذا الديوان ، وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة في السبب الحامل له على الرضاء بذلك ، وملخصها : انه قد حصل لي غاية التحسر على الامر الذي جعل باريس في هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين ، أو تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها ، ولقد أمتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ، ولابد أن ألبس معكم علامة الثلاثة الوان التي قد لبستها كثيرا في اول عمري . ثم ختم عبارته بقوله : «والشرطة تصير من هذا الوقت حقا .» يعني انه يعمل بقوانين المملكة ، وتصير متبعة ، لا يحاد عنها ، لكونها حقا . ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الامثال ، والفاظها بالفرنساوية في غاية الحماسة ، ثم ان شرل العاشر ظن انه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على أبنه ونزوله عنها ، ﴿شعر﴾ :

يود لو أن أيام الحمى رجعت   وقل أن رد شيء بعد ما ذهبا

فما كان ذات يوم في «سنكلو» الا وخرج أبنه «الدوفين»[1] في ساحة ، وجمع فيها العساكر واعلمهم بان أباه ولاه ملكا ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء ، ثم ان الملك لما ولى

أبنه سافر مع ديوانه وجلسائه في ليلة التاسع والعشرين في شهر يوليه ، بقي «الدوفين» وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع العساكر من معه من العساكر وسيرها قدامه ليرى كيفيتها ، فلما أعلم أنها لا ترضى بالمحاربة معه ، نوى السفر ، وخرج من «سنكلو» ، فبعد عدة ساعات من خروجه أنتشر على قصر «سنكلو» البيرق المثلث ، وهذا القصر هو سراية السلطان في هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه في «رنبوليا» أول شهر أغسطس ، وفي اليوم الثاني من هذا الشهر بعث شرل العاشر وأبنه «الدوفين» ورقة للدوق «درليان» قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق «دبردو» ، حفيد الملك ، وأبن أخ «الدوفين» وأنهما جعلا الدوق «درليان»[2] وكيله ووليه حتى يبلغ رشده ، وطلبا منه في هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ليؤمنوهما في خروجهما من فرانسا ، نعرض الذوق «درليان» ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة ، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ليؤمنوه في خروجه من فرانسا ، ثم انه جاء الخبر في باريس أن الملك لم يرض الخروج حالا ، فوجهوا اليه جملة من العساكر ليكرهوه حالا على الخروج ، فبمجرد سماعه بذلك أجاب بالخروج متوجها الى بلاد الانكليز ، ﴿شعر﴾ :

والدهر طورا بعز يقضي ، وطورا بهون !

وفي هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة بباريس ،

فكان الامر والنهي له ولدواوين المشورة ، فأول ما صنعه تقرير بقاء الثلاثة ألوان ، التي هي علامة على حرية الملة الفرنساوية ، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير ، وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك ويخطب على منبر بكلام فصيح يذكر فيه ما صنعه من التحسين في بلاده وما هو عازم على فعله في سنته ، ولما كان هذا الدوق قائما في هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاما وجيزا مضمونه أنه يتحصر على الخطر الذي حصل لمدينة باريس عقب هتك قوانين المملكة ، ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التي بعثها له شرل العاشر وأبنه «الدوفين» ، المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق «دبردو» ، وأنهما يسميانه «هنري الخامس» لأنه تقدم في فرانسا أربعة ملوك كل منهم يسمى «هنري» ، ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة ، وصار ديوان المشورة يفتح كل يوم للتدبير .

(1) (لقب لولي العهد) Le Dauphin

(2) [Le Ducdorléens]

الفصل الرابع

(فيما انحط عليه رأي أهل المشورة وفيما ترتب)
(على هذه الفتنة من تولية الدوق
«درليان» ملك الفرنساوية)

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرانسا المستقبلة ، وقد اسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة ، حتى أنهم في المشورة مختلفون في الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون في الجهة اليمنى ، والحريون في الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء في الجهة الوسطى ، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات ، ولازال هذا الأمر معمولا به الى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك ، فكان أصحاب الآراء فرقتين : فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية ، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق «دبردو» ، حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن نابليون الذي هو «بونا بارته» ، ومنهم من كان يريد تمليك الدوق «درليان» قائم مقام المملكة ، وعيلة «درليان» هي العيلة الثانية الوارثة للملكة بعد انقراض العيلة الاولى البكرية ، وهي عيلة «البربون» ، ثم انه ظهرت ورقة مطبوعة ولصقت في الحارات والمشارع العامة ، مضمونها : قد صح بالتجربة ان الجمهورية لا تناسب بلاد الفرنساوية ، وأه ا الدوق

«دبردو» فتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم البرنون فتقع الفرنساوية فيا فرت منه ، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين ، وهم أعداء الحرية ، فتعين الدوق «درليان» . وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأي :

«**المادة الأولى** : ان الكرسي فارغ حسا ومعنى ، ولا حق لأحد فيه ، فلا بد من شغله بأحد .

الثانية : من أغراض الفرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الدالة على الاستعلاء من الشرطة ، التي هي كتاب قوانين المملكة ، لأن بقاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنساوية ، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة ، وتبدل بغيرها ، حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة ، ثم بعد تمام ذلك يطلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سعادة الدوق «درليان لويز فليب» قائمقام المملكة لأن يكون ملكا ، وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور ، ثم بعده لأكبر أولاده ، وهكذا ، يعني أن الملك اذا مات انتقلت المملكة لأكبر أولاده ، فاذا مات وحصل له عذر كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط وبصيغة المبايعة التي يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب ملك الفرنساوية لا ملك فرانسا .»

والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس

الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملـك فرانسـا فـان معنـاه أن أرض فرانسا ما دامت باقية فهو سيدها وملكها ولا منازع له من أهل بلاده فيهـا ، وسبب ذلـك أن الملوك السـالفين كانوا يلقبون ملوك فرانسـا ، وكان اذا كتب الواحـد منهم يقول مـا صورتـه : انـا فلان ، بفضل الله تعـالى ، ملـك فرانسـا ونوار ، على كل من يرى هذه الاوامر الحاضرة سلام ، قد أمرنا ونأمر بما سيأتي لنـا . وقوله ملك فرنسـا ظـاهر وأمـا قولـه ملـك نوار فـان هـذا لقب اصطلاحي له لمجرد الشرف ، وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرانسا كانوا يحكمون على مملكـة نوار ثم انتقلت منهم الى ملـوك اسبـانيـا فصـارت حصـة منهـا ، وبقي اللقب لملـك فرانسـا . وامـا ملـك الفرنساوية فانه يقول في كتابته : أنا فلان ملك الفرنساويـة مني السلام على من حضر في الحـال والاستقبـال ، قـد أمرنـا ونـأمر . ففرق بين عبـارة الأول والثـاني ، فـان الأول جعـل نفسـه ملـك مجموع فرنسا ونوار ، بانعـام الله سبحـانـه وتعـالى عليـه ، والثـاني جعل نفسه ملك الفرنسيس ، ولم يقل بفضل الله ، ولقـدا تحـاشى عن أن يقول ذلك لارضاء الفرنساوية ، فـانهم يقولون أنـه ملـك الفرنسيس بارادة ملته وبتمليكهم له ، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عيلته من غير أن يكون لرعيته مدخليـة . فظهر من هذا أن قوله : بفضل الله ، معنـاه عنـدهم بـاستحقـاقـه لـذلـك بـولادتـه ونسبـه ، كما أن قـولـه : ملـك فرنسـا ، معنـاه صاحب الأرض والسلطنة عليهـا ، والا فلو كان عنـدنـا لاستوت

العبارتان ! فان كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافي كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والاحسان ، ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم !

ثم بعد تمام المشورة بعث اليه أهلها عدة رسل ، فقرأ عليه رئيس الرسل ما اتفق عليه أهل ديوان المشورة ، فأجاب حالا بقوله : «قد سمعت ، والقلب في اضطراب ، ما عرضتموه علي من خلاصة مجلس المشورة ، من انتخابي للمملكة ، ولقد صح عندي أن عبارتكم الصادرة عنكم هي أيضا عبارة لسان حال الرعية بتمامها ، وظهر لي أن ما صنعتموه في القوانين يناسب ما ذهبت اليه في السياسات التي مارستها مدة حياتي ، ولكن حصل لي من ذلك انفعال عظيم ، لأنني لست أنسى مدة حياتي ما قاسيته سابقا من الأهوال ، حتى أنني كنت عزمت على أن لا أطمع أبدا في قضية السلطنة ، ونويت على أن أعيش خاملا مرتاحا بين عيالي ، ولكن حبي لعمار بلادي غلب ذلك ، فهو جدير بأن أوثره عليه ، حيث قد أيقنت أن الضرورة دعت اليه .» ثم أنه عين اليوم الذي يتتوج فيه في ديوان رسل العمالات ، فلما جاء اليوم الموعود جاء في الساعة المتفق عليها بموكب عظيم ، من غير خفر سلطاني ، ومن غير جلساء ، وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب انما هي بذلك ، وكلما مشى خطوة حياة جميع الناس من الجوانب بقولهم : حفظ الله الدوق «درليان» ، حفظ الله الملك ، فلما دخل الديوان ركب مصطبة بقرب الكرسي ،

وسلم على أهل المجلس ثلاث مرات ، ثم جلس على دكة أمام الكرسي ابنه الاكبر عن يمينه والثاني عن يساره ، وخلفه أربع وزراء في العسكرية يلقبون بالمارشالات ، جمع مارشال ، وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنساوية ، وهو دائما مضاف الى فرنسا ، فيقال : مارشال فرنسا ، وبالفرنساوية : مارشال دفرانسا – والدال علامة على الاضافة بين المضاف والمضاف اليه ، مثل اللام المقدرة في الاضافة عندنا ، فعلامة الاضافة ظاهرة عند الفرنسيس – ثم بعد جلوسه عزم على أهل ديوان البير وديوان رسل العمالات بالجلوس ، ثم طلب من رئيس الديوان أن يقرأ عليه الخلاصة التي عزم عليه أهل الديوانين فيها بالمملكة ، فلما فرغ الرئيس من قراءتها ، أجاب الدوق المذكور : «يا ساداتنا ، قد سمعت ، مع التأمل ، خلاصة الديوانين ، وقد وزنت عبارتها ، وامعنت فيها النظر ، وأقول : رضيت من غير شروط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة في الخلاصة ، وبتلقيبي ملك الفرنسيس الذي اعطيتموه لي ، وها أنا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على أني أحفظ ذلك» . ثم قام الملك مكشوف الرأس ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة الآتية بترتيب وترتيل ، وبصوت ثابت من غير لجلجة ، وهذه الصيغة مترجمة: «اشهد الله، سبحانه وتعالى، على اني أحفظ، مع الامانة، الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة، مع ما اشتملت عليه من التصليح الجديد المذكور في الخلاصة، وعلى اني لا أحكم الا

بالقوانين المسطورة ، وعلى طريقها ، وأن أعطي كل ذي حق حقه بما هو ثابت في القوانين ، وأن أعمل دائما على حسب ما تقضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها» . ثم صعد على كرسي المملكة وشرع يقول : «يا ساداتنا ، قد حلفت في هذا الوقت يمينا عظيما ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به علي ، مع عظمها واتساعها ، لما ان نفسي تحدثني أنني أوفي بها ، وما قبلت المبايعة الا عن رضى ، وقد كنت عزمت على أن لا اركب أبدا الكرسي الذي أعطته لي الملة الفرنساوية ، ولكن لما رأيت أن فرانسا قد جرحت حريتها ، وتكدرت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد ، وجب نصب القوانين ، وكان ذلك من وظيفة ديوان البير وديوان رسل العمالات ، وقد وفيتهم بذلك ، فما صنعناه من اصلاح الشرطة يستلزم الأمن في المستقبل فما امل أن فرانسا تصير مرتاحة في داخلها ومحترمة في خارجها ، والصلح في بلاد أوروبا يزيد ثباتا» . فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات : حفظ الله الملك لويز فليب الأول . ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ومشى ، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره ، وربما عانق كثيرا من الناس ، وكان موكبه مولعا من أهل البلد ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلي ، ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه 7 في شهر اغسطس سنة 1830 من الميلاد .

الفصل الخامس

(فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الاوامر السلطانية التي كانت السبب في زوال مملكة الملك الاول الذي فعل فعلته ، وفي العواقب لم ينظر ، وطمع بما لم يظفر ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر)

اعلم ان الفرنساوية ، بعد هذه الفتنة ، أهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانو السبب في ذلك ، وأيضا فانه بمقتضى القوانين : ان الوزراء يضمنون ما يقع في المملكة من الخلل ، فهم المحاسبون ، دون الملك ، وليس على الملك شيء أصلا ، فحملهم ثقيل ، ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر في كل ما يحدث ، قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم وأريد حظهمو فلا أستطيع
واكلف العبء الثقيل وأنما تبلي به الاتباع لا المتبوع
فعليهم الاثقال يرمى حملها وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الاوامر في جميع طرق البلاد ان يوقفوهم(1) اذا مروا عليهم ، وقد قلنا ان رئيس الوزراء كان «بولنياق» ، فمسك من الوزراء أربعة ، منهم هذا الامير المذكور ، وصورة القبض عليه :

انهم وجدوه خارجا من بلاد فرانسا في صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه وأوقفوه ، وخفره الخفر الموجود في الطريق خوفا من الرعية ، ثم اعلموا بذلك الديوان في باريس ، فكتب هو مكتوبا الى ديوان مشورة البير ، وقد كان من رجال المشورة ، يقول فيه : انه لا معنى للقبض عليه حيث انه من اهل هذا الديوان ، واحتج «بالمادة الرابعة والثلاثين» من الشرطة : «لا يمكن أن يحبس أحد من أهل ديوان البير الا بأمر أهل ذلك الديوان ، ولا يمكن ان يحكم عليه غيرهم في مواد الجنايات» . فما كان جوابهم الا انهم اجتمعوا وقرؤا مكتوبه ، ثم تشاوروا ، فكانت خلاصة المشورة الاذن بالقبض عليه وحبسه حتى يحكموا عليه ، فجيء به الى بلدة «ونسينه» بقرب باريس ، وحبس في قلعتها ، ثم قبض على الثلاثة الآخرين وحبسوا معا من غير أن يحصل لاحد منهم شيء من الترذيل أبدا مدة حبسهم ، ثم انه مدة حبسهم بنوا لهم محلا عظيما في ديوان مشورة البير لتسمع دعواهم فيه ، وجعلوه بناء متينا وثيقا على صورة عظيمة ، حتى لا يمكن للرعية الهجوم عليه لاذيتهم ، ولا لاحبابهم ان يخلصوهم من الحبس . وكلفوا ذلك أموالا لها وقع عظيم ، ثم جاؤا بهم الى هذا المكان ، وحبسوهم في محل منه ، وصاروا يأتون بهم كل يوم ، وكانت دعوتهم من أعظم ما يتعلق غرض الانسان بسماعه ، ومن أجل ما يدل دلالة فعلية على تمدن الفرنساوية وعدل دولتها ، ولنذكر لك بعض شيء منها فنقول :

اعلم ان ملك الفرنسيس الجديد لما تولى تعلقت ارادته بعزل سبعين رجلا من أهل مشورة البير الذين كان ولاهم شرل العاشر الملك السابق ، ثم سمى منهم تسمية جديدة من كان على غرضه ، فلو كان هؤلاء السبعون فضلوا من أهل الديوان لكانوا يحابون عن الوزراء ، فكان أغلب أهل ديوان مشورة البير اعداء لهم ، الا ان التمسك بالقوانين وطيب نفوسهم في الجملة ، وعدم ميلهم بالطبيعة الى الظلم ، كان سببا في نجاة الوزراء المذكورين . ومما يتعجب منه ان الوزير «بوليناق» حين القبض عليه أراد ان يختار واحدا عنه من العارفين بالاحكام فلم يختر الا «مرتنياق» احد الوزراء المعزولين قبله ، ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة ! وأعجب من ذلك ان الآخر الذي هو «مرتنياق» وفى ببذلك مع غاية الامانة التامة ، وبذل ما عنده من المعارف لدفع الايرادات[2] عن موكله ، وكذلك كل واحد من الوزراء المقبوض عليهم وكل محاميا له .

ثم لما فتحوا الدعوى أرسلوا لكل واحد من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه مع غاية الرفق واللين ، وكيفية أول ما يسأل به : ما اسمك ؟ ما وصفك ؟ ما منصبك ؟ ما رتبتك ؟ فيجيب بأجوبة هذه الاسئلة ، ولو كانوا يعرفون ما ذكر ، ثم قالوا لكل واحد منهم : اتقر بأنك وضعت خط يدك تحت أوامر الملك ؟ قال : نعم ، ولاي شيء فعلت ذلك ؟ فيجيب بأن الملك أراده ، ولاي شيء أراد الملك فعل ذلك ؟ وهل عزم عليه من

قديم الزمان ؟ أو الآن فقط ؟ وقد كان كل منهم يجيب في مثل هذه الاسئلة بقوله : لا أفشي سر ديوان حضرة الملك أصلا ! مع غاية التعظيم في المجلس لملكهم المعزول ! ، ولم يتفوه أحد منهم بشيء من أسرار الديوان أبدا ، ولم يكرههم أحد على ذلك .

ثم بعد سؤالهم وانتهائه ، وكتب خلاصته ، جاء المحامون عنهم ومكثوا أيضا عدة أيام ليظهروا ان الوزراء بريئون من الذنوب ، وان مقصدهم كان حسنا ، وهكذا .

فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى ، ثم قضت بما هذه صورته : «من حيث ان الوزراء وضعوا أيديهم تحت الاوامر المخالفة لقوانين المملكة ، ومن حيث انهم هتكوا حرمة القوانين تقريبا ، ومخالفتها ، حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم ، وتجريدهم من أوصاف الشرف والقابه ، حكمت على «بولنياق» زيادة على ذلك بالموت الحكمي» - وهو نظير مسألة من انقطع خبره وحكم بموته القاضي باجتهاده بعد مضي مدة لا يعيش فوقها غالبا - والموت الحكمي عند الفرنساوية ، ويقال له : الموت المدني ، هو ان يكون حكم الحي كحكم الميت في كثير من الاحوال ، وهو ان المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته ، مثل ما اذا مات حقيقة ، ولا يصح ان يرث غيره بعد ذلك ولا ان يورث غيره الاموال التي ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه ان يتصرف في أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز اهداؤه ولا الوصية له الا بالقوت ، ولا يجوز

ان يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا في شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ، ولا ينعقد نكاحه بل ينفسخ نكاحه الاول بالنظر للاحكام المترتبة عليه ، ولزوجته وأولاده أن يصنعوا في أمواله أو في أنفسهم كما لو مات هو حقيقة . وبالجملة ، فهو حي ملحق بالموتى ! ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريته حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى في العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عيلته تعتقد ان هذا من باب التعدي المحض ، وانه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصلا لاعتقادها انها في عصمته باطنا ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولد أورثه الاخوة معهم ، وان كان هذا خلاف الاحكام المترتبة على الموت الحكمي .

ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لابد من الحكم عليهم بالموت الحقيقي ، فأخبرهم أهل الدولة ان هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والانصاف ، وان كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء اذا حصلت منهم خيانة ، وانما حكمت المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لامثالهم .

ويصلح في حقهم قول الشاعر :

فهم من المجـــد في حضيض ... وهم من الجـــد في الروابي
وهم اذا فتشـــوا وعــــدوا ... أعــز من عــودة الشبـــاب !

ثم ليلة ان حكم عليهم بذلك ، قبل أن يطلعوهم على خلاصة المشورة ، أخرجوهم من هذا الحبس الذي كان بني لاجلهم ،

وخفروهم الى قلعة «ونسينة» فحبسوهم بها ، ومنها نقلوهم الى قلعة أخرى . وهم محبوسون بها الى الآن ، والحكم عليهم بهذا الكيفية مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنساوية .

(1) اي يعتقلوهم .

(2) اي التهم الواردة عليه .

الفصل السادس

(فيما كان بعد الفتنة في سخرية الفرنساوية على شرل العاشر ، وفي عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك .)

اعلم أنه جاء الى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر في أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وان أظهروا الفرح والسرور به ، فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء «بولنياق» أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور ، ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيه أحزان لأجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث أن مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية في زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصارالناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة ، على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه ! وللزمان صروف تدول ، وأحوال تجول ، وكأن هذا هو عاقبته على غارته

على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضي ذلك ، بل بمجرد ارضاء هوى النفس ، واذا نصر الهوى بطل الرأي !

ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله ، سبحانه وتعالى ، على ذلك ، جاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه ، ما معناه : أنه يحمد الله ، سبحانه وتعالى ، على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ، ولا زالت كذلك . انتهى . مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالي الجزائر انما هي مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ، ومعاملات ومشاجرات ومجادلات ، منشأها التكبر والتعاظم ! ومن الأمثال الحكمية لو كانت المشاجرة شجرا لم تثمر الا ضجرا ! فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران ، بعد هروبه ، وخربوه وأفسدوا جميع ما فيه ، حتى أنه اختفى ولم يعلم له أثر ، ثم ظهر واختفى ثانية ، وهجم على بيته ثانيا ، ولا زال مذموما مخذولا .

قال الشاعر :

لاتعجبن رويدا انها دول   دنيا تنقل من قوم الى قوم

ثم ان الفرنساوية لما رأوا أن شرل العاشر أخرج باشا الجزائر من مملكته أيضا صاروا يهزؤن بشرل العاشر ، ويصورونه هو وباشا الجزائر في الطرق ، ويكتبون في وقائع النوادر تلميحات

غريبة ونكات ظريفة ، فمن جملة ذلـك أنهم صوروه هو والبـاشـا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر :

«وأنت أيضا جاءت نوبتـك» ؟! كأن البـاشـا يقول للملـك ، استفهاما ، لهزؤا به : وأنت أيضا عزلت كما عزلتني ! ﴿شعر﴾ :

فقـل للشـامتين بنـا رويـدا   أمـامكم المصـائب والخطـوب

وقال آخر :

الـدهر يفترس الرجـال فـلا تكن   ممن تطيشـه المنـاصب والرتب
كم نعمـة زالت بـأدنى زلـة   ولكل شيء في تقلبـه سبب

وكتبوا أيضـا في وقـائع النوادر مـا نصـه : «البـاشـا المـذكور يقول لشرل العاشر : «قم بنا نلعب لعب كذا ، على قـدر معلوم ، وان لم يكن معك شيء جمعنا لـك شيئـا على سبيل الصـدقـة من النـاس» ! يشيرون بـذلـك الى أن بـاشـا الجزائر خرج من بـلاده غنيا ، وشرل العاشر خرج من بلاده فقيرا .

وصوروا أيضا الملك المذكور في صورة أعمى يتكفف الناس ، ويقول في سؤاله : أعطوا بعض شيء للفقير الأعمى ! يشيرون الى أنه لم يتبصر في عواقب الأمور .

وصوروه أيضا هو ووزيره بولنيـاق خـارجين من كنيسـة ، اشـارة الى أنهما لا يفلحـان الا في هـذه العبـادة البـاطلـة ، وأنهما قسوس لا أمراء ، وكانـوا يـزعـمـون أن الملـك كان يلبس في بعض الأحيان لبس القسيسين ويقـدس بـالنـاس كالقسيس في كنيستـه

التي في سرايته ، وكانوا يصيحون في البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة فيها عشق هذا الملك وفساده في صغر سنه ، وفسق المطران الكبير ، وهكذا ، وبأن ابن ابنه ليس هو ابن حقيقي ، وانما هو ابن مزور ، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها في ساحة بيت الملك الجديد ، الذي هو من أقارب الملك ، وأعجب من ذلك أنهم يكتبون في هذه الورقة أن الملك الجديد هو الذي كتب ذلك سابقا في جرنالات الانكليز بعد ولادة حفيد الملك القديم ، ويصيحون بذلك ولا أحد ينكر عليهم ، لما أن حرية الرأي قولا وكتابة تقضي بذلك .

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من ذلك ، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم وتولية حفيد الملك السابق . ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار الى الآن ، وربما تعدت آثارها الى غيرها من البلاد ، فمن ذلك الفتنة التي ترتب عليها انعزال اقليم البلجيك من مملكة الفلمنك ، وقد كان جزءا منها ، ومن آثارها أيضا طلب بلاد الحرية والخروج من حكم الموسقوبية ، ومنها الفتن التي وقعت في بلاد ايطاليا .

الفصل السابع

(فيما كان من دول الافرنج بعد سماعهم بانعزال الملك الأول وتقليد المملكة للملك الثاني ، وفي رضائهم بذلك)

لا يخفى ان العيلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدول الافرنجية على السلطان نابليون واخراجه ونفيه الى جزيرة سنت هلينه ، وترجيع هذه العيلة الى البلاد بعد أن كانت في البلاد الغربية ، فتملك هذه العيلة أنما هو بمعاهدة ملوك الدول الافرنجية ، فهي في الحقيقة مملكة على فرانسا رغما عن أنف غالب الفرنساوية ، فلما وقعت الفتنة خشي الفرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش الى بلادهم وينصبون كرسي هذه العيلة ، فتخلصوا من ذلك بتملك العيلة الأخرى التي هي عيلة «أرليان» ، ولكنهم لم يعلموا هل ترضى الملوك بذلك أو لا ، وعزموا على أنهم اذا لم يرضوا بذلك وجاؤا لمحاربتهم حاربوهم ، ولو حصل ما حصل ، وجهزوا ما يدل على ذلك ، ولنذكر لك هنا نسبة ملوك الافرنج بالنظر لهذه المادة ، فنقول :

اعلم أن ملك اسبانيا يوافق بسياسته وسلوكه سياسة ملك فرانسا القديم ، وهو أيضا من أقاربه ، لأن العيلة التي تحكم ببلاد أسبانيا من العيلة التي تحكم ببلاد فرنسا ، فهي تميل اليها ظاهرا

وباطنا ، ومثلها في ذلك الميل بلاد البرتوغال ، فهاتان المملكتان لا يحصل منهما شيء يخاف به على العيلة القديمة . وأما بلاد ايطاليا فان دولة نابلي ودولة رومة ودولة سردينا توافق أيضا في سياستها سياسة «البربون» ، يعني العيلة القديمة ، فحينئذ ملوك هذه الدول تأثرت باطنا بما وقع في بلاد الفرنساوية . وأما دولة المسقو ودولة النيمسا ودولة البروسه والانكليز فانها متعاهدة على تولية عيلة «البربون» القديمة المملكة ، فهي أيضا تأثرت بذلك نوع تأثر ، وخصوصا الدولة المسقوبية ، وأما الدول الصغيرة ببلاد الافرنج فانها تابعة للدول الكبيرة ، فلم يبق مع دولة الفرنساوية الجديدة الا بعض أقاليم صغيرة تريد الحرية ، غير أن أهل دولة الانكليز أظهرت الرضى مما وقع ، فلذلك ملكهم كان أول من اعترف بالمملكة لملك الفرنساوية الجديد ، وقد جرت العادة أن الملك اذا تولى لا بد من أن يعترف له الملوك بالتملك ، ويقروه على ذلك ، وهو من الرسوم غالبا ، يقال أن حضرة مولانا السلطان الأعظم لما سمع بذلك ، وأخبره «الايلجي» أجاب بأنه لايصنع شيئا حتى يرى ما تصنعه ملوك الافرنج ، فان أقروه على ذلك اقره أيضا ، ومدخلية الدولة العلية في ميدان دوائر الدول الافرنجية قليل . وممن توقف في الاقرار مدة طويلة ملك الموسقو ، ثم بعد ذلك أقره بشرط أن لا يتغير شيء في ميزان بلاد الافرنج ، يعني أن بلاد الافرنج تبقى على ما هي عليه من غير أن يحصل بها راجحية أو مرجوحية في

السياسة ، بمعنى أن مملكة فرانسا مثلا لا تزيد عما كانت عليه قبل الفتنة ، والظاهر أن أكثر الملوك التي أقرت ملك الفرنساوية الجديد انما أقرته على ذلك ورضيت بما وقع رضاء وقتيا ، حتى أن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به كأنها لا تثق بذلك الصلح الذي تراه كأنه هدنة وتعليق ، ولما خرجت من فرانسا كان جميع الناس يتوقع فيها اشهار الحرب وظهوره بين النمساوية والفرنساوية والموسقوبة أو الاسبانيول او البروسه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون . وللفرنساوية الآن التئام مع الانكليز لم يسبق مثله أبدا ، وأما الكلام على الرجوع فراجعه في خاتمة الرحلة .

المقالة السادسة

﴿ في ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرورة في الباب الثاني من المقدمة ، وهي تشتمل على عدة فصول ﴾ .

والبلاغـة ، وعلوم النحو والمنطق ، والشعر والرسم ، والنحـاتـة ، والموسيقى ، فان هذه فنون عقلية لانها تحتاج الى قواعد علميـة ، وأما الفنون العملية فهي الحرف .

هذا هو تقسيم حكمـاء هـذا الافرنج ، والا فعنـدنـا أن العلوم والفنون في الغالب شيء واحـد ، وانمـا يفرق بين كون الفن علمـا مستقلا بنفسه ، وآلة لغيره .

ثم ان العلـوم المطلـوبـة من عمـوم التـلامـذة هي الحســاب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتـاريخ ، والرسم ، ومعرفـة هـذه كلهـا تكون بعد معرفـة اللغـة الفرنسـاويـة ومـا يتعلق بهـا ، فلـذلـك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها .

الفصل الثاني

(في تقسيم اللغات من حيث هي ، وفي ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية)

اعلم ان اللغة لما كانت ضرورية في أفهام السامع معني يحسن سكوت المتكلم عليه ، وكانت لازمة في التفهيم والتفهم ، وفي المخاطبات والمحاورات ، وجب عند جميع الامم على المتعلم أن يبتدىء بها ، ويجعلها وسيلة لما عداها . واللغة من حيث هي الالفاظ المخصوصة الدالة على المعاني المخصوصة ، وطريقها الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الامم ، وهي قسمان : لغات مستعملة ، ولغات مهجورة ، فالاولى ما يتكلم بها الآن كلغة العرب والفرس والترك والهند والفرنسيس والطليانية والانكليز الاسبانيول والنيمسا والموسقو ، والثاني ما أنقرض أهله واندثر أربابه ولم يبق الا في الكتب مثل اللغة القبطية واللاطينية واليونانية القديمة المسماة بالاغريقية ، ومعرفة هذه اللغات المهجورة في المخاطبات نافعة لمن أراد الاطلاع على كتب المتقدمين ، وفي بلاد الافرنج توجد مدارس مخصوصة معدة لتعلم هذه الألسن ، لما يعلمون من نفعها ، وكل لغة من اللغات لا بد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة ، وتسمى هذه القواعد

انه اذا أفصح وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وان كانت عبارته مؤدية للمقصود من غير ركاكة فهي مناسبة ، وان كان بها بعض شيء يمجه السماع فهي ركيكة أو رديئة ، وعلى كل فالعبارة اما بها أطناب ، أو أختصار ، أو على الاصل ، ثم ان الكاتب اما ان يفصح عن مراده بنظم أو نثر ، وعلى كل فاما ان يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة في المحاورات المسماة الدراجة ، أو باللغة الموافقة ، فقواعد النثر هو الاصل في الكلام والتأليف ولا يحتاج الى وزن وتقفية الا في السجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك ، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما ، وأما لغة الفرنسيس فلا تنظم فيها كتب العلوم أصلا ، والنظم هو أن يفصح الانسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن الى رقة العبارات وقوة الاسباب الداعية لنظمه ، ويعجبني قول بعضهم موريا :

صوغ القريض على اختلاف رجاله ما بين حصبا لا تعد وجوهر
وأذا أردت بأن تفوز بدره نظما فخذه من صحاح الجوهري

ولبعضهم :

يا من يقول الشعر غير مهذب ويسومني التكليف في تهذيبه
لو كان كل الخلق فيك مساعدي لعجبت عن تهذيب ما تهذي به

وقال بعضهم في فقد الاسباب :

قـالـوا تركت الشعر قلت ضرورة   بـاب الـدواعي والبـواعث مغلـق
خلت الـديـار فـلا كريم يرتجى   منـه النـوال ولا مليـح يعشـق

وقال آخر :

الشعر لا يخفى عليكم حـالـه   قـد بـار وأسفـاه بعـد نفـاق
وارحمتـا لبني القريض فـإنهم   مـاتـوا وهم احيـا من الامـلاق

ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب ، فـان كل لغـة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرهـا ، نعم ، فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها في لغة العرب وحصره في البحور الخمسة عشر المستعملة هـو لخصوص اللغـة العربيـة ، وليس في اللغـة الفرنساويـة تقفيـة النثر[1] ، ومعرفـة في النظم لا تكفي في نظم الشعر ، بـل لا بـد أن يكـون الشـاعر بـه سجيـة النظم سليقـة وطبيعية ، والا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول .

الى العربي مـل في نظم شعر   فـذاك لسـان أربـاب الكمـال
فشعر الفرس أسكرنـا بجـام   وشعر الترك طرز بـالخيـال

ولنذكر هنا خلاصـة صغيرة من الاشعـار ملخصـة من أحسن القصـائـد والمقطعـات ، فنقـول : قـد اشتهر أن أرق بيت قـالتـه العرب في الغزال قول جرير :

ان العيـون التي في طرفهـا حـور   قتلتنـا ثم لم تحيين قتـلانـا
يسلبن ذا اللب حتى لا حراك بـه   وهن أضعف خلـق الله انسـانـا[2]

سل سيفا من لحظه ثم أرخى وفرة وفرت عليه الحيله
ان شكى الخصر طولها غير بدع لنحيل يشكو الليالي الطويله

ومما يفوق قول الواو الدمشقي او يساويه :

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها أما غدا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسي بيضاء العوارض أقبلت بوجه كأن الشرق من حسنه غرب
وبين الازار الملتوي حقف رملة وبين الوشاح الملتوي غصن رطب
وتحت لثام الخز أنفاسها لظي وفوق الرواء السكب أدمعها سكب
تبدت مع الاتراب تدعو على النوى وان لم يكن في الغانيات لها ترب
تسيل على الخد الأسيل دموعها وصب دموع العين يروي به الصب
وقد وكلت احدى يديها بقلبها مخافة أن يرفض من صدرها القلب
فلما أجزن الجسر قن وراءه كسرب من الغزلان ليس له سرب
وعضت بدر الثغر فضة معصم يكاد يثنيه من الذهب القلب
وكادت تحط الرحل لولا عزيمتي قسمي جفون العين أسهمها الهدب

ومما يعد من الاشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفر وجهي اذا تأمله طرفي فيحمر خده خجلا
حتى كان الذي بوجنته من دم جسمي اليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

وإذا نظرت الى محـــاسنهـــا فكل مـــوضـــع نظرة نبـــل
وتنـــال منـــك بحـــد مقتلهـــا مـــا لا ينـــال بحـــده النصـــل
شغلتـــــك وهي لكل ذي بصر لاقي محـــاسن وجههـــا شغـــل
فلقلبهـــا حلم يبـــاعـــدهـــا عن ذي الهـوى ولطرفهـــا جهـــل
ولـوجههـــا من وجههـــا قمر ولعينهـــا من عينهـــا كحـــل

ومن أرق ما قيل أيضا قول الشاعر :

لامـوا على صب الـــدمـــوع كأنهم لا يعرفـــون صبـــابتي وولـــوعي
فـأجتبتهم وعـد الخيـال بـزورة أفـلا أرش طريقـــة بـــدمـــوعي

ومما يعجب في الرثا قول أبي الطيب في أبي شجاع فاتك :

يـــا من يبـــدل كل يـــوم حلـــة أني رضيت بحلـــــــــة لا تنزع
مـا زلت تخلعها على من شـاءهـا حتى لبست اليـوم مـــا لا يخلـع
مـا زالت تـدفـع كل أمر فـادح حتى أتى الامر الـــذي لا يـــدفـع
فظللت تنظر لا رمـاحـــك شرع بين الأنـام ولا سيـوفـك قطـع
بـأبي الـوحيـد وجيشـــه متكاثر يبكي ومن شر السـلاح الأدمـــع
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رحت بـه وخـدك تقرع

الى ان قال :

من للمعـــاقـل والجحـــافـل والسرى فقـــدت بفقـــدك نيرا لا يطلـــع
ومن أتخـذت على الضيـوف خليفـة ضـاعـوا ومثلـك لا يكاد يضيـع

وقوله ايضا في فاتك المذكور :

أوليه اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها ، دلّ ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل ، وثبت نقيضه ، وهو المراد . وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الاعداد وكتابتها فقط ، فبرهنوا بهذا على اوفقية طريقتهم للطبع ، فمن باب أولى يقال أن الكتابة من أعلى لأسفل مخالفة لمقتضى الطبع ، ويقال أن العرب كانت تعرف الكتابة في زمن أيوب عليه السلام ، وقد وقع الاختلاف في أنها من أوضاع أي ملة ، فقال ، بعضهم : أنها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين ، واستظهر الأول ، فعليه تكون انتقلت من السريانيين الى اليونان ، بدليل أن الحروف اليونانية هي عين السريانية الا أنها انقلبت من الشمال الى اليمين ، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم . وجودة الخط تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل ، وقد تنازع الشعراء في التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الانشاء والحساب ، وأشار المتنبي الى تفضيل السيف في قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

وأشار السيوطي في (كتاب الاوائل) الى تفضيل القلم على السيف حيث قال :

الكتب عقل شوارد الكلم   والخط خيط فرايد الحكم
بالخط نظم كل منتثر   منها وفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه		فرض عليه عبادة القلم

وتمام رفع المنازعة في (تاريخ الدول) لابن الكرديوس في قوله : قوام الملك شيآن : السيف ، والقلم ، والثاني مقدم على الأول ، وبرهن على ذلك . والظاهر أن يقال في ذلك ما قيل في الكتابتين من أن صناعة الانشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع ، فيقال : ان السيف أرفع من القلم والقلم أنفع منه .

تتلظى ، فـان هـذا التشبيـه حسن في اللغـة العربيـة غير مقبول أصلا في اللغة الافرنجيـة ، وكـذلـك ما يقـال في الريق ونحوه ، مثل قول الشاعر :

خليلي ان قـالت بثينـة مـا لـه أتـانـا بلا وعـد فقـولا لهـا لهـا
سهـا وهو مشغـول بعظم الـذي بـه ومن بات طول الليل يرعى السها سها
بثينـه تزرى بـالغـزالـة في الضحى اذا برزت لم تبـق يـومـا بهـا بهـا
لهـا مقلـة نجلاء كحـلاء خلقـه كان أبـاهـا الظبي أو أمهـا مهـا
دهتني بـود قـاتلي وهـو متلفي وكم قتلت بـالـود من ودهـا دهـا
ومـاست بأعطـاف لطـاف تهزهـا فعاينت غصن البان من هزها زها
وقالت وقد سـارعت في السير دونهـا وقـاطعت طرقـا دونهـا ومهـا مهـا
سـلافـة ريقي عتقت ثم روقت فمن لم يمت بالسكر من صفوهـا وهي
وفي الشفـة اللعسـا دوا كل مـدنف فان كنت مشتـاقـا الى رشفهـا فهـا

فـاغلب التشبيهـات الموجـودة في هـذه الابيـات غير مقبـولـة عنـدهم ، لأنهم يقولون ان الطبع لا يؤلف الريق ، مثـلا لكـونـه آيـلا الى البصـاق ، واذا شبهت بضـع العـذراء قبـل افتضـاضهـا بالوردة التي لم تفتح ثم بعده بـالوردة المفتوحـة كان ذلـك عظيـا عنـد الفرنسيس ، فمبنى البـلاغـة عنـدهم على مـا يقبلـه الطبـع . ويقـال : نسبـة علم البـلاغـة للبـلاغـة كنسبـة العروض للشعر ، فحينئذ قد توجد البلاغة عنـد من لا يحسن علم البلاغـة ، كما انـه قـد يحسن علم البلاغـة غير البليغ ، وأغلب نفع البلاغـة يكون في الشعر والخطابـات ونحوهـا من كتب الآداب والتواريخ ، وأعظم

نفع ذلك العلم التوصل الى معرفة أسرار التنزيل واعجازه ، وذلك لأن النبي ﷺ بعث في زمن شعر ونظم وكهانة فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتو بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فظهر لأرباب العقول الصائبة انه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، فآمنوا به واتبعوه ؛ الا من حق عليه العذاب ، فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى ، واذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعاني والبيان والبديع .

بتحركه ، فالتصور لا يكون الا في المفردات ، كما ان التصديق لا يكون الا في القضايا .

والقضية هي حكم يحصل باثبات تصور الى آخر أو نفيه عنه ، فالتصور المسند اليه الاثبات أو النفي يسمى الموضوع ، والتصور المسند الى الموضوع مما تقدم يسمى المحمول ، والموضوع والمحمول يسميان جزئي القضية ، وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى : رابطة ، مثال ذلك ما اذا قلت : زيد فصيح ، فان زيدا هو الموضوع ، وفصيح هو المحمول ، والرابطة مقدرة ، والتقدير : زيد هو الفصيح ، أو : زيد يكون فصيحا ، وأما اذا قلت : زيد هو الفصيح ، فان الرابطة ظاهرة .

ثم ان القضية اما كلية ، يعني مستغرقة لسائر الافراد ، كما اذا قلت : كل انسان صنعة الله تعالى ، واما جزئية كما في قولك : بعض الحيوان انسان ، وكل من القضية الكلية والجزئية مسور ، وأما شخصية ، وأما مهملة ، فالاولي كزيد قائم ، والثانية كالانسان كاتب ، بقطع النظر عن الكلية والجزئية ، واما طبيعية كما في قولك : الظلم رديء .

والقضية أيضا أما بسيطة أو مركبة ، فالقضية البسيطة غير متعددة الموضوع والمحمول ، كما في قولك : الفضيلة حميدة ، والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة فهي ما تعدد فيها الموضوع فقط أو المحمول فقط او هما معا ، كما اذا قلت : الفضيلة والرذيلة ضدان ، او : الفضيلة محبوبة مطلوبة ، أو : الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ، ونحو ذلك .

واذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدة قضايا بسيطة فانها يكفى في كذبها كذب بعض أجزائها .

وأما التعريفات التي هي مقاصد التصورات ومصححات القضايا فانها تنقسم الى : تعريف بالحد ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظي ، فمثال التعريف بالحد قولك : الانسان حيوان ناطق ، ومثال التعريف بالرسم قولك : الانسان حيوان كاتب ، ومثال التعريف اللفظي قولك : الانسان هو الآدمي ، اذا فرضنا ان لفظ الآدمي من أشهر وأعرف من لفظ الانسان . ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الالفاظ المترجمة من لسان الى آخر ، مثال ذلك اذا قدرنا ان أعجميا لا يعرف معنى كلمة «الله» ، فانك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له «الله» هو «خداي» . وكل من الحد[2] والرسم[3] ينقسم الى تام ، والى ناقص ، على حسب كونه بالجنس[4] أو الفصل[5] القريب أو البعيد أو بالخاصة[6] او بالعرض[7] العام ، كل منها منفردا أو مجتمعا ، وهذا كله موضح في كتب المنطق .

واما القياس ، وهو المقصود الاصلي من علم المنطق ، فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر ، مثال ذلك ما اذا قلنا : ان الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتص من الظالم للمظلوم ، فانك تقول : هكذا الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فانه يقتص للمظلوم من الظالم ، فتكون النتيجة هكذا : الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم . فمتى سلمنا القضيتين الاولتين

(1) زينون الأيلي (490 – 430 ق . م) فيلسوف يوناني ، أعتبره أرسطوا أول من استخدم الطريقة الجدلية .
(2) يعرفه أبن سينا بأنه : ما تنحل اليه المقدمة من جهة ما هي مقدمة .. وينقسم الى : أصغر وأكبر وأوسط .. انظر (المعجم الفلسفي) .
(3) هو القول الذي يعرف الشيء تعريفا غير ذاتي ، ولكنه خاص . أو : قول مميز للشيء عما سواه لا بالذات . وينقسم الى : تام ، وناقص ، وخيالي .
(4) كلي مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ، ما هو ، من حيث هو كذلك .
(5) جزء من الماهية يميز النوع ، كالناطق بالنسبة للانسان ، وينقسم الى : قريب ، وبعيد ، وأيضا الى : عددي ، ونوعي .
(6) يعرفها أبن سينا بأنها : من الالفاظ الكلية الخمسة ، فهي الكلي الدال على نوع واحد في جواب : أي شيء هو لا بالذات ، بل بالعرض . ولها عند أرسطو أكثر من معنى ، فهي أحيانا ليست داخلة في ماهية الشيء ، ومع ذلك تميزه عن غيره .. وأحيانا تطلق على ما يلازم الشيء على الدوام .. أو على ما يلازم الشيء ولكن ليس من حيث هو بالذات ولكن من حيث نسبته الى شيء آخر .. الخ .. الخ . أنظر في ذلك (المعجم الفلسفي) .
(7) العرض : ما قام بغيره ، ويقابل الجوهر ، وهو قار الذات ، وغير قار الذاب ، ولازم ، ومفارق ، وخاص ، وعام .. الخ .. أنظر (المعجم الفلسفي) .

الفصل السادس

(في المقولات العشرة المنسوبة الى أرسطو)

من المعلوم أن أرسطاطا ليس حصر الاشياء المتعلقة في عشر مراتب تسمى : مقولات ، فجعل المواد داخلة تحت الأولى ، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة الاخرى .

المقولة الأولى : مقولة الجوهر ، وهو جسماني وروحاني .

الثانية : الكم ، وهو اما منفصل ، اذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل اذا كانت الأجزاء مجتمعة ، وهو اما متتابع ، مثل حركة الفلك ، أو وقار ، وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم من الطول والعرض والعمق ، فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ، ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنها مع العمق يحصل الجسم التعليمي .

الثالثة : الكيف وقسمه أرسطو الى أربعة أقسام : فالأول : هو الاستعدادات ، يعني تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة ، مثل العلوم والفضائل والرذائل والقدرة على الكتابة والرسم والرقص ، والثاني : القوى الطبيعية ، مثل قوة النفس والبدن كالادراك والارادة وقوة الحفظ والحواس الخمسة

الفصل السابع

(في علم الحساب المسمى باللغة الافرنجية الارتياطيقي)

أعلم أن «الأرتياطيقي» هو أحد العلوم الرياضية الخالصة ، وذلك لأن حكماء الافرنج قسموا الرياضيات الى خالصة وإلى غير خالصة ، أو مختلطة ، فالرياضيات الخالصة : هي علم الحساب الغباري والهواءي ، وعلم الجبر والمقابلة ، وعلم الهندسة ، ونحو ذلك ، وأما الرياضيات المختلطة فهي : علوم الحبل ، وفن تحريك الأثقال ، ونحوها . والرياضيات الخالصة هي ما تبحث عن الكميات والأشياء القابلة للزيادة والنقصان ، والرياضيات المختلطة هي ما يدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعية وغيره . والحساب أهم العلوم الرياضية ، وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل بر الشام ، يعني الصور يين ، وقدماء أهل مصر ، يعني أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ونظامها في عقد الترتيب ، حتى أن فيثاغورس[1] الحكيم رحل من بلاد اليونان الى مصر فتلقى فيها هذا العلم ، ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصوريين ، ويقال أنهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر ،

والظاهر أن الأصابع هي أول الطرق التي استعملها الانسان في الحساب ، وأن ذلك هو السبب في كون أول عقد في العدد هو عقد العشرات ، والثاني عقد عشرات العشرات التي هي المائة ، والعقد الثالث عقد عشرات الميئات أو الألوف ، وهكذا ، لأن الأصابع عشرة ،.فكأن الانتقال من عقد الى آخر ، من عشرة الى عشرة ، ولما كانت الأصابع لا تكفي الا في تمييز عشرة عشرة احتاج الأمر الى طريقة أخرى وعلامات اخر ، فأخذوا صغار الحصى ، وحبوب الرمل ، والقمح ، ونحوها ، واستعملوها لضبط المعدودات ، كما هو الأن عند بعض همل أمريكة وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى أن بعض قدماء الامم الماضين لا يوجد في لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات ، فانهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلا بقولهم سبعة وعشرتان وعشرة عشرات ، وذلك لأن الأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدون بالأحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات ، وهكذا . كما قال بعضهم أنه يوجد في كتب العبرانيين واليونانيين ما يدل على ذلك ، وهو أيضا أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة ، وأما الأن فقد تبحرت الأمم في علم الحساب وتنوعوا وتفننوا فيه حتى وصلوا الى كماله .

وحد علم الحساب أنه : علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعتريها من الأعمال ، والعدد اجتماع الآحاد ، وهو قسمان : صحيح ، وكسر ، وزاد بعضهم ثالثا وهو : ما تركب منهما ،

وسماه عددا مشتملا على الكسور : ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هي الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، وهي معلومة في كتب هذا الفن .

وأما علم الهندسة فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة ، التي هي : الطول ، والعرض ، والعمق ، كما أشرنا اليه في منظومتنا في علم الهندسة بقولنا :

موضوعه قياس الامتداد فسره بالثلاثة الابعاد
والطول والعرض كذا والعمق وشرح هذي غير مستحق

وأما الجغرافيا فقد تقدم منها نبذة في مقدمة الكتاب ، وانما ينبغي لنا هنا أن نذكر أقسامها ، فنقول : أنه تارة ينظر الى الأرض من جهة شكلها ، وسكونها أو تحركها ، ونسبتها لما عداها من الاجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا ، وتارة نلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها ، مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافيا الطبيعية ، أي المتعلقة بطبيعة الأرض ، وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها في الدين والملة فتسمى بالجغرافية الدينية ، وتارة ينظر اليها من جهة أختلاف اهلها في التدبير والسياسة والرسوم والقوانين فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية ، وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الازمان المختلفة في الأرض وفي أجزائها بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية ، وهذه

هي الأصول ، والا فالقسمة غير حاصرة ، ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة (التعريبات الشافية بمريد الجغرافية) فانه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغي لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية ، التي هي علم الهيئة ، فنقول :

الافرنج قسموا الكواكب الفلكية الى : ثوابت ، والى سيارة ، والى سيارة السيارة ، والى ذوات الذنب ، وعدوا الشمس من الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أي التابعة في السير للكواكب السيارة ، وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب «كبرنيق»[2] النيمساوي ، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون لفقد الالات عندهم ووجودها لهؤلاء الافرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم احد عشر ، غير الشمس والقمر ، فان الأولى من الثوابت على رأيهم ، والثاني من سيارة السيارة ، ولنذكرها لك هنا على حسب قربها من الشمس ، فنقول : هي عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، ووسته[3] ، اي الجرة السيارة ، ويونون[4] ، وتسمى زوجة المشتري ، ويقال لها بنت زحل ، وسيريس[5] ، ويقال لها قريس ، اي السنبلة السيارة ، وبلاس[6] ،ومعناه أبو الفلق ، والمشتري ، وزحل ، واورانوس[7] ، ومعناه الفلك الاعلى . وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دوراتها على نفسها الا بصعوبة ، لصغر بعضها في رأي العين ، وبعد البعض

الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا أورانوس الا بالنظارات الفلكية ، ولهذا سميت عند الافرنج بالسيارات النظارية ، ويؤمل الافرنج كشف غيرها من السيارات .

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغي للانسان الاطلاع عليه ، لا سيما أرباب الدول ؛ ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الافرنج فنقول :

للتاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الامم أن يفوز بالتعلم ، وهو أيضا تجريبيات حوادث الاعصر التي تساعد الحال الراهنة ، ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة بعين المرء على التفكر في ظاهر الآتي ، فمنه يعتبر من إعتبر من جميع الناس أيا ما كان مقامهم ، لما أنه يظهر على رؤوس الاشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم ، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة ، مثل الحلم والعدل ، ومن التاريخ يفهم الملوك أنه في زمن سلطنة ملك حسن التدبير ينبغي أن تكون شوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية .

قال «بسوه» : لو فرض أن التاريخ لا ينفع غير الأمراء فانه يجب قراءته للأمراء ، ولكن انما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ليفهم منها خفياته ورموزه ، فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الانسان الباطلة ، ثم ينتقل من ذلك الى مادة اهم من ذلك ، فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التي تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم ، أوليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم

يطلع الانسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول ، وأزمان كل ؟ فانظر الى هذا المحفل العظيم المحتوي على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت ، ومن محال خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكان كل شيء يؤل الى القبور ، وهي التي تعلو وجدها على ميدان الأرض ، فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة اذا نظر الانسان من سماء التاريخ ، وكم يظهر أن الجمعية التي في زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالي القرون والأعصار ، شتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس ، وملوك تلك الازمة التي يظهر للاعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الاعصر السالفة ، وانظر ما تكون حروبنا الوقتية وحبنا للعدو والشرف المؤقتين بجانب منازعة السلف من مبدء العالم على مكان من الأمكنة أو على شبر من أرض ، فمن نظر حق النظر في عجائب التاريخ فانه يكتسي بثياب الجد ، ويتجرد عن ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر ، فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانيهم من غير دقة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهي أمرها الى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب ، ولا تجد من المراسي ما ترسى عليه غير قرضات القدم ، فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع حطام الدنيا الفانية ، والمدح الباطل ، المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلا

شيء ، أو ليس أن للدهر نكبات وتغيرات في جميع ما وهبه وأعطاه ؟ فأي مملكة أمنا على كرسيها من السقوط ؟ وأي دولة آيسنا على تحتها من الارتفاع ؟ او ما رأينا أن الهيكل الواحد يتداول على محرابه عدة أديان متباينة ؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة ؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرها الى أن أعقبها الفقر والحقارة ؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة بينها ؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التي كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم ، يا مدن «نينوى» ، يونس ، و «بابل» ، السحرة ، و«واصطخر» ، فارس ، و«تدمر» ، سليمان ، كيف صارت الآن محالك خرابا وقد كانت كراسي دول العلوم ، فلم يبق لك من فخارك القديم وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر .

ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة مثل ما حل بمصر المباركة ، المصابة بالشقاء ، التي كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك في الركض في ميادين الفخار والعلم والحكمة ، فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة أما نعيم الأنعام أو عذاب الانتقام ، مع أنه لم يكن من الامم مثل قدماء مصر في كونهم بذلوا جهدهم في الجلوس على مباني هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤيدين ، فبادوا جميعا وانقرضوا ، حتى أن أهل مصر الموجودين

الأن ليسوا جنسا من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون الى عدة جنوس مختلفة من بلاد آسيا وأفريقية ، فهم مثل خليط ، من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم لا تتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الانسان مصريا من سحنته ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت في تأهيل بر النيل . انتهى ، مترجما من مقدمة الخواجه «أكوب» في (تاريخ مصر) ، وفي آخرها يمدح ولي النعم ، محيي بلاد مصر من العدم ، وقد مدحه أيضا في قصيدة فرنساوية سماها (نظم العقود في كسر العود) ،وقد ترجمتها ، وذكرت بعضها منها في (الفصل الثاني) من (المقالة الثالثة) وعلم التاريخ واسع ، وان شاء الله تعالى ، بأنفاس ولي النعم ، يصير التاريخ ، على اختلافه ، منقولا من الفرنساوية الى لغتنا ، وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة ، بمشيئته تعالى ، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون ، حتى تعد دولته من الأزمنة التي تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجنددة في مصر مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد .

(1) ولد حوالي سنة 582 وتوفي حوالي سنة 507 ق . م فيلسوف يوناني ، كون جماعة دينية آمنت بتناسخ الأرواح ، وكان يرى أن العدد هو جوهر الأشياء ، أي أن الجانب الكمي هو لب الحقيقة .

(2) ويسمى : كوبرنيكوس ، نيقولا (1473 – 1543 م) فلكي بولندي ، على أساس

أبحاثه بني علم الفلك الحديث ، اذ هو الذي صاغ نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس .

(3) بكسر الواو وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة . (الطهطاوي) .

(4) بضم الباء والنون بعدها واو . (الطهطاوي) .

(5) بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة . (الطهطاوي) .

(6) بفتح الباء وتشديد اللام . (الطهطاوي) .

(7) بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة . (الطهطاوي) .

خــاتـمــة

(في رجوعنا من باريس الى مصر ، وفي عدة أمور مختلفة)

من المعلوم أن نفس القارىء لهذه الرحلة تتطلع الى معرفة نتيجة هذا السفر الذي صرف عليه ولي النعمة مصاريف لم تسبق لأحد من الملوك ، ولا سمع بها في التواريخ عند سائر الامم ، وأنما تسطيرها في تاريخ دولة الخديوي مما يدل على أن حضرته العلوية ، صاحبة الهمة العلية ، قد تبصرت في عواقب الامور ، وأصابت المرمى في جميع ما شرعت فيه مما يبقى به الذكر على ممر الدهور ، ولا شك أن ذلك تقصر عنه همة قيصر ، وتكل عن نيل ماله قوة اسكندر الاكبر ، ولا يمكن لمثل نابليون أن يفوق فيه نبالة ، ولا لمثل أفريدريقوس أن يوجه اليه باله ، أو يميل اليه آماله ، فكيف وأرسال ولي النعمة للأفندية الى باريس قد نجح غاية النجاح ، وأثمر ، حيث أن جلهم قد اكتسب رضاء صاحب السعادة ، وسارع في المطلوب ، وعن ساعد الجد والاجتهاد شمر ، فقد أرضع ، حفظه الله تعالى ، في تلك الديار بارتداء العلوم أطفالا ، حتى صاروا بكمال المعارف رجالا ، بل منهم من وصل الى رتبة أساطين الافرنج ، فهم ما

بين مدير للامور الملكية ، حائز كال الرتبة في السياسات المدنية ، كحضرة صاحب اليراعة واليراعة ، رب الطالع السعيد ، وذو النجابة والرأي السديد ، عبدي أفندي ، وما بين متمكن في معرفة ادارة الامور العسكرية ، راق فيها الى درجة علية ، وما بين رباني بسائر الامور البحرية ، أو خبير بالطلب أو بالكيمياء الصحيحة المرضية وبصير بالطبيعيات ، وماهر في علم الزراعة والنباتات ، ومنهم فائق الاقران في الفنون والصنائع ، وحري بفتح فبريقات تشتهر ببراعته بغير منازع ، ولولا خوف الاطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الافندية على حسب حوزه للمراتب العلية ، ولعمري لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية في الامتياز ، غير أنني أسلك في ذكرهم غاية الايجاز :

كيف لا أقول أن حضرة مصطفى مختار بيك أفندي قد بلغ درجة كبار الفرنساوية في علم ادراة المهات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم ، وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية ، وجامع لمعارف الديار الافرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف بممالك مصر والشام ، وجعله مقبولا لدى ولي النعم الاكبر وسرة عسكر نجله الضرغام ، وليس كل من أكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف ، قال الشاعر :

وعادة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل الا في يدي بطل

وأما حضرة حسن بيك أفندي ، والافندية البحريون ، ففضلهم وكمال علومهم ، ثابت بالبرهان ، يدل عليه أمتيازهم بين الاقران ، وشهرة أسطفان أفندي غنية أيضا عن البيان ، فقد حاز من العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فاز ، ولا ينكر فهم الطين أفندي في جميع أنواع العرفان ، ولا خليل أفندي محمود ، وتعلم أحمد أفندي يوسف مشهود غير مجحود . وبالجملة ، فالجل من الافندية حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الاسلام .

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير الى مصر ، ليتم غرض هذه الرحلة ، فنقول : خرجنا من باريس في شهر رمضان سنة 1246[1] ، وسرنا نقصد مرسيليا لتركب البحر ونرجع الى الاسكندرية ، فمررنا على مدينة «فنتنبلو» بقرب باريس ، بها قصر سلطاني ، وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرانسا وخلعها عنه سنة 1815 من الميلاد ، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبني من الحجارة ، والقصد منه أنه تبقى آثاره لتذكر رجوع «البربون» في فرانسا ، فتجد مرسوما عليه أسماؤهم وتاريخ ولادتهم وغير ذلك ، وفي هذه الفتنة الاخيرة محى الخلق هذه الاساس ، فلا يشاهد منها الا الاثار ، وهكذا عادة الزمان في تلونه بجميع الالوان ، وغدره وفتكه بقوم ، وأقباله على آخرين قبل تمام يوم ، قال الشاعر :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع   عدوا ولم أمهل على جيشه خلقا

وأخليت دارالملك بعد ملوكهم فشردتهم غربا وبددتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة وصارت رقاب القوم أجمع لي رقا
رماني الردا سهما فأخمد جمرتي فها أنا ذا في حفرتي عاطلا ملقى

وكتابع تلك الرسوم من عادة الافرنج ، تأسيا بالسلف من أهالي مصر وغيرهم ، فانظر الى بناء أهل مصر للبر أني وأهرام الجيزة ، فأنما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم اليها من رآها . ولنذكر لك آراء الافرنج فيها ، وما ظهر لهم بعد البحث التام ، حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الاوهام ، فنقول :

ملخص كلام الافرنج أن الذي بناها هم ملوك مصر ، وأنه اختلف في زمن بنائها ، فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة الاف سنة ، وأن الباني لها ملك يقال له «قوف»[2] ، وبعضهم قال أن الباني لها ملك يقال له «خميس» ، أو «خيوبس» ، والاظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة ، وقال بعضهم أن مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاثة وعشرين سنة ، وأن العملة الذين بنوها كانو ثلثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة ، حتى أن ما صرف على البصل والكراث للعملة يبلغ – على ما قاله بانياس – نحو عشرين مليونا من القروش المصرية ، ثم أن هذه الاهرام تنسب الى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعد الهرم الاكبر ليضم جثته ، والاخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو في الأول ، بل بقي هذا الهرم الآن مفتوحا ، وأما الهرمان الآخران فدفنت فيها بنته وزوجته وسدا

سدا محكما ، هذا ما حكاه الافرنج في شأن الاهرام ، ومما قيل في عظم بناء الهرمين العظيمين :

خليلي مـــا تحت السماء بنيـــة يشابه بنياهـا بنـا هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منـه وكل مـا على الارض يخشى دائما سطوة الدهر

وقـال بعضهم في الاهرام ، مضمنـا عجـز بيت في معلقـة طرفة :

لقـد بت بـالأهرام حـول أحبـة جفـوني بزرد يـــابس وتجلـــد
يقـول بهـا صحبي لبرد جليـدهـا وهجري لا تهلـــك أسى وتجلـــد

قـال السيوطي[3] في (منتهى العقول) : انـه يتعجب من قول العلمـاء أن أعجب مـا في مصر الاهرام ، مـع أن البرابي بـالصعيـد أعجب منها .

والبرابي هي المشهورة عند العامـة بـالمسلات ، ولغرابتهـا نقل منها الافرنج أثنتين الى بلادهم أحداهمـا نقلت الى رومـة في الزمن القديم ، والاخرى نقلت الى يـاريس في هـذا العهـد ، من فـائض معروف ولي النعم .

وأقول : حيث أن مصر أخذت الآن في أسباب التمـدن والتعلم على منوال بلاد أوروبا ، فهي أولى وأحق بما تركه لها سلفهـا من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبه عنهـا شيئـا بعـد شيء يعـد عنـد أربـاب العقـول من أختـلاس حلي الغير للتحلي بـه ، فهـو أشبـه بـالغصب ، وأثبـات هـذا لا يحتـاج الى برهـان ، لمـا أنـه واضـح

البيان . وقد صنع نابليون في باريس عمودا مفرغا من المدافع القسي سلبها من الموسقو والنمسا ، وقد حاول الموسقو أسقاطه حين حلولهم بباريس فما ظهر الا عجزهم عن ذلك .

ثم بعد جزنا «فنتنبلو» شاهدنا مدينة «تيمور» ، بعد سير أربع ساعات من «فنتنبلو» وهي على عشرين ساعة أيضا من باريس ، ثم بعدها مررنا على مدينة «كونة» ، على شط نهر «الوارة» ، وهي مدينة تصنع فيها «الهلاليب» للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة «مولن» ، وبها كثير من أولاد العرب الذي صحبوا الفرنساوية من مصر الى فرانسا ، ثم سرنا حتى وصلنا مدينة «روانة» وهي على سبعة وتسعين فرسخا فرانساويا على جنوب باريس ، قبل الوصول الى مدينة «ليون» بثلاثة عشر فرسخا ، وأهلها تسعة آلاف نفس ، وبها ديوان مشورة للفبريقات ، ومشورة للزراعة ، وكتبخانة ، ومخزن آلات طبيعية وهندسية ، وبها قنطرة ظريفة على نهر «لوار» ، ورصيف مشهور ، وهي ساحل المركز لتجارات «ليون» وغيرها من سائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع الرخام ، ونهر «لوارة» يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة ، وهذه المدينة غير مدينة «روان» البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا ، والتي يمر بها نهر السين ، والتي هي من أقليم «نومنديا» ، ثم وصلنا الى مدينة «ليون» ، وقد تقدم الكلام عليها ، ثم وصلنا الى مدينة «أورغون» ، التي على جنوب باريس بمائة وثمانية وسبعين فرسخا

فرانساويا ، وهي في سفح جبل ، شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى خوفا من أهلها ، ولا زلنا نمر ببلاد حتى وصلنا الى «مرسيليا» ، وقد تقدم الكلام عليها مستوفي ، ومنها نزلنا في سفينة تجارية ، وسرنا قاصدين اسكندرية ، ولا حاجة أيضا الى ذكر ما شهدناه لأنه عين ما سبق في (المقصد) ، غاية ما نقول : ان كل من يعرفني من الفرنساوية طلب مني أنني بمجرد دخولي اسكندرية أذكر ما يقرع فكرتي مما أستغربه لبعد عهدي من مصر ولرؤيتي خلافه في بلاد الافرنج وتعودي على مشاهدة غيره يظهر لي غرابة ما أراه أول وهلة حين وصولي ، فوعدت ووفيت .

هذا حاصل ما كان ، لخصته حسب الامكان ، فلم يبق علينا حينئذ الا ذكر خلاصة هذه المرحلة ، وما دققت فيه النظر ، وأمعنت فيه الفكر ، فأقول :

ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الاجناس ، وأقوى مظنة العرب بأمور كالعرض ، والحرية ، والافتخار ، ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به بند المهمات ، واذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الانسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ، وتبرهن عليه آثارهم ، قال الشاعر :

وأني لحلو للصديق وأنني لمر لذي الاضغان أبدي له بغضي

وأني لاستغني أبطر الغنى وأبذل ميسورا لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحيانا فتنفد عسرتي وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وهتك العرض هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار، قال الشاعر :

تعيرنا انا قليل عدادنا فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وأنا لقوم مانري القتل سبة اذ ما رأته عامر وسلول
اذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
سلي أن جهلت الناس عنا وعنهمو فليس سواء عالم وجهول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم في ذلك، حيث أن العرض يظهر في هذا المعنى أكثر من غيره، لأنهم وأن فقدوا الغيرة لكنهم أن عملوا عليهن شيئا كانوا أشر الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم في نسائهم، غاية الامر أنهم يخطئون في تسليم القياد للنساء، وأن كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء، كما قال الشاعر :

اذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضي أياب البعل حين يؤوب

قال الزمخشري[4] عند قوله تعالى : حكاية عن قول العزيز : (واستغفري لذنبك أنك كنت من الخاطئين)[5] ما كان العزيز إلا حليما، وقيل أنه كان قليل الغيرة، قال الشيخ أثير الدين أبو

حيان[6] في تفسير هذه الآية الكريمة ، وتربة مصر اقتضت هذا . يعني قلة الغيرة ! وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا . وهو أنه كان مع ندمائه الخصيصين به في مجلس أنس ، وجارية تغني وراء الستارة ، فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية ، وكانت قد غنت بهما ، فما لبثت أن جيء برأس الجارية مقطوعا في طشت وقال له الملك : أستعد البيتين من هذا الرأس ! فسقط مغشيا عليه ، ومرض مدة حياة ذلك الملك ! أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصوري على محبوبته حيث قال :

تعلقته سكران من خمرة الصبا　　به غفلت من لوعتي ونحي
وشاركني في حبه كل ماجد　　يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تلزموني غيرة ما ألفتها　　فأن حبيبي من أحب حبيبي

– انتهى «سكردان بن حجلة صاحب ديوان الصبابة –
وبالجملة ، فسائر الأمم تتشكى من النساء ، ولو العرب ، قال الشاعر :

لقد باليت مظعن أم أوفى　　ولكن أم أوفى لا تبالي

وقال آخر :

فان تسألوني بالنساء فانني　　بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله　　فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء حين علمنه　　وشرخ الشباب عندهن عجيب

وحيث ان كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك أيضا أن وقوع اللخطبة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسنة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة ، والالتئام بين الزوجين ، وقد جرب في بلاد فرانسا أن العفة تستولي على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الاعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهن الشبهة كثيرا ، ويتهمون في الغالب ، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية نساء العيلة الملكية المسماة «البربون» ، على أن مما يقوي كلامهم ما وقع لزوجة أبن ملك فرانسا المعزول ، التي هي أم الدوك «دوبردو» الذي خلع عليه جده المملكة بعد عزله ولم يقبله الفرنساوية ، وقالوا أن هذا الولد أبن زنا ، فان أمه ولدت ولدا آخر من الزنا وأعدت أنها تزوجت سرا فانكسر بذلك ناموسها ، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرانسا لابنها الاول ، وكانت آخذة في أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شيء في المملكة ، سقطت من الاعين ، وبعد أن وقعت في يد الفرنساوية ، وكان يظن هلاكها ، تركوا سبيلها قائلين أنها صارت مهملة ، ورجعت الى أهلها بولدها الاخير . ومن أغرب ما وقع ببلاد الافرنج في هذا الامر ان ملك الانكليز جرجس الرابع أتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار

العديدة ، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام ، لكونها كانت تسافر ببلاد الافرنج مع من تريد ، ولها في كل محل عشاق ، فلما رفع أمرها عند شرعهم ، وأقيمت الدعوى كما ينبغي ، وقصد باثبات زناها طلاقها ليتزوج بغيرها ، فلم تثبت أمور كافية في الطلاق ، فحكم القاضي بابقائها على عصمته قهرا عنه ، فبقيا متفرقين ، ولكن لم يتزوج غيرها ، وذاع أمرها وشاع ، ولكن في الحقيقة وان كان يعتقد فيها ذلك الا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة والا لانثلم عرضه .

فمادة العرض التي تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة ، وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال ، ويدخل في العرض أيضا العفاف ، فأنهم تقل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة في طباعهم الشريفة ، وان كانت الآن قد تلاشت فيهم وأضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقد بقي منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس على الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعني ونفسي والعفاف فانني أخذت عفافي في حياتي ديدني
وأصعب من قطع اليدين على الفتى صنيعة بر نالها من يدي دني

وأما الحرية التي تتطلبها الافرنج دائما فكانت أيضا من طباع العرب في قديم الزمان ، كما تنطق به المفاخرة التي وقعت بين النعمان بن المنذر ملك العرب وكسرى ملك الفرس ،

وصورتها : أنه قدم النعمان على كسرى ، وكان عنده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم ، ولم يستثن فارسا ولا غيرها ، فقال كسرى ، وقد أخذته الغيرة : يا نعمان ، لقد فكرت في العرب وفي غيرهم من الامم ، ونظرت في حال من يقدم علي من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع الفتها ، وعظيم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها ، ورأيت الهند شهيرة الحكماء طيبة الثرا ، كثيرة الانهار والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مرونقة الحسان ، معمورة بالأهل ، وكذلك الصين عجيبة في اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ، وهمتها في الحروب ، وصنعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ، وكذلك الترك ، مع ما هم عليه من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، فان لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم ، وتدبر أمورهم ، ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير ، في أمر دين ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوة ولا عقد ، ولا حكمة ، مع ما يدل على تدانيها وذلها وضعف همتها بحالهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الأبل التي تعافها كثير من الطيور والسباع لثقلها وسوء طعمها

وخوف دائها ، وأن أقرى أحد ضيفا أعتدها مكرمة ، وأن أطعم لقمة أعتدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التنوخية التي أسس جدي أجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، ليجري له ذلك الى يومنا هذا ، فان لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه أموال بعض الناس ، لكني أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون ، وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

فقال النعمان : أصلح الله الملك ، صدقت ان هذه الامة تسمو بفضلها ويعظم خطبها وعلو درجتها ، ألا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك ، من غير رده عليه ، ولا تكذيب له ، فان أمنتني من الغضب مما أتكلم به فعلت ! قال كسرى : وأنت آمن ! فقال النعمان : أما أمتك فلا تنازع في الفضل ، لموضعها التي هي به من عقولها وأخلاقها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما كرمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك ، وأما الامم التي ذكرت فما من أمة الا فضلتها العرب بفضلها ! قال كسرى : لماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وذمتها ، وبأسها ورئاستها ، وسخائها ، وحكمة السنتها ، وشدة عقولها ، ووفائها ، فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين فتحوا البلاد ووطئوا العباد ، وأقاموا الملك وقادوا الجيوش ، ولم يطمع فيهم طامع ،

ولم يـزالـوا عنـدهم محترمين ، ولا نـال احـدا منهم نـائـل ، بـل حصـونهم ظهـور خيـولهم ، ومهـادهم الارض ، وسقـوفهم السماء ، والى جـانبهم السيـوف وعـدتهم السقف ، اذا غيرهـا من الامم انما عزها بالحجارة والطين والجزائر والقلاع والحصون .

وأما حسن وجوههـا وألوانهـا فقـد يعرف بـذلـك فضلهم على الهنـد المحترقـة والصين المتجمشـة والترك المشـوهـة والروم المقترة الوجوه .

وأمـا أنسـابهـا وأحسـابهـا فليس أمـة من الامم الا وقـد جهل آباؤها وأصولهـا كثير من أولهـا وآخرهـا ، حتى أن أحـدهم ليسـأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ولا يعرفه ، وليس أحـد من العرب الا ويسمى أباه أبا فأبا ، أحـاطوا بـذلـك أحسـابهم وحفظ [illegible] أنسـابهم ، فلا يـدخـل رجـل في غير قـومـه ، ولا ينسب الى غير نسبة ، ولا يدعى الى غير أبيه .

وأما شجاعتها وسخاؤها فان أدناهم رجلا يكون عنـده البكرة والناب ، عليها بلغته وحمولته وشبعـه وريـه ، فيطرقـه الطـارق الذي يقتدي بالقادة ويجتري بالشربة ، فيعقرها لـه ، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكتسبه من حسن الاحـدوثـة وطيب الذكر والثناء .

وأما حكـمة السنتهـا فـان الله تعـالى أعطـاهم أشعـارا ورونقـا كاملا ، وحسن وزنه وقوافيـه ، مع معرفتهم بـالاشـارة ، وضربهم الامثال ، وبلاغتهم في الصفات ما ليس من السنة الاجناس .

ثم ان خيـولهم أفضـل الخيـول ، ونسـاءهم أعف النسـاء ، ولبـاسهم أحسن اللبـاس ، ومعـادنهم الـذهب والفضـة ، وأحجـار جبـالهم الجزع ، ومطـايـاهم التي لا يبلـغ الا على مثلهـا سفر ولا يقطع الا بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون به أعظم تمسـك ، وأن لهم أشهرا حرمـا ، وبلـدا محرمـا ، وبيتـا محجوجا ، ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيه وأخيه وهو قادر على أخذ ثأره منه وأدراك رغمه فيه فيحجزه كرمه ويمنعه دينـه عن تنـاول أيـاه ، أحترامـا لذلك البيت وتشريفا له .

وأما وفاؤهم فان أحدهم يلحظ اللحظـة فهي عقـد لاهلهـا لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وأن أحدهم يرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته خوفـا من الله تعالى ، وان أحدهم يبلغـه ان أحـدا أستجـار بـه ، وعسى أن يكون نائبا عن داره ، فيمنع عنه عـدوه ، ويحميـه منـه ، ولو تفنى قبيلته أو تهلك القبيلة التي أستجار عليها ، وذلـك لمـا اخفر من جـواره ، وان أحـدهم ليلجـأ اليـه المحروم والمحـدث عنـه بغير معرفـة ولاقرابـة فينزلـونـه عنـدهم وتكـون أنفسهم وأمـوالهم دون ماله .

وأمـا قولـك أيهـا الملـك ، حفضـك الله ، أنهم يقتلون أولادهم من الحاجة ، فانما يفعله من فعله منهم رغم أنفه حذرا من العار ، وخيفة وغيره من الازواج ، وأما قولك ، أيهـا الملـك ، ان أفضل

طعام ظفروا به لحوم الابل ، على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها الا احتقارا له ، فعمدوا الى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، مع انها أكثر البهائم لحوما ، وأطيبها شحوما ، وأرقها البانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللحوم يفاخر لحمها الا استبان فضلها عليه .

وأما محاربتهم وأكلهم بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد الى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فانما يفعل ذلك من الامم من علمت الضعف من أنفسها ، وتخوفت من نهوض عدوها علنيها ، فانهم يحتاجون الى ملك يدبر أمرهم ، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرا ، ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم ، فينقادون اليه بأزمتهم ، وينقادون الى أمره ، وأما العرب ، أيها الملك ، فان كثيرا فيهم لعظم كرمهم ووفائهم ودينهم وحكمة السنتهم وسخاء نفوسهم يقولون أنهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ، فلا ينقاد أحد الى الآخر ، فانهم أشراف .

وأما اليمن التي وصفها الملك فان آباءك وأجدادك أعلم بصاحبها ، لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف ناقة وتغلب على ملكه ، وجاء الى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه ، ولولا ما وتر به من بلية العرب لمال الى نقص ولم يرجع الى محله ، ولولا انه وجد من يجبد معه الطعان بقتل الاحرار وتبدد شمل الكفار وذبح العبيد الاشرار لم يرجع الى اليمن .

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ، ثم قال له : أنك لاهل لموضعك من الرياسة لاهلك ولاهل أقليمك ، ولما هو أفضل منه ، ثم كساه وأنعم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ، ثم سيره الى موضعه من الحيرة ، ثم بعد ذلك سير اليه وقتله !

والتنوخية فرقة من اليمن ، قال المتنبي على لسان بعضهم :

قضاعة تعلم أني الفتى الـذي ادخرت لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يمان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء انا ابن الضراب انا أبن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي أنا ابن السروج انا ابن الرعان[7]
طويل النجاد طويل العماد طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفي منايا العباد اليهم كأنهم في رهان
يرى حده غامضات القلوب اذا كنت في هبوة لا أراني
سأجعله حكماً في النفوس ولو ناب عنه لساني كفاني

وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : حضر رجل من أهالي مصر الى عمر بن الخطاب ، وجعل يشكو من عمر بن العاص ، فقال : ياأمير المؤمنين ، أن هذا مقام العائذ ! فقال عمر : لقد عذت ، فما شأنك ؟ قال : تسابقت بفرسي أنا وابن عمرو بن العاص ، فسبقته ، فحمل علي بسوط في يده ، وجعل يقنعني[7] بالسوط ، ويقول لي : أنا ابن الاكرمين ! وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشي أن آتيك لاشتكي ولده ، وحبسني ،

فتفلت من الحبس ، وها أنا قد أتيتك ؟ قال : فكتب كتابا : «من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، أنه اذا أتاك كتابي هذا أحضر الموسم - ﴿يعني الحج﴾ - أنت وأبنك» ثم التفت الى المصري وقال له : قم حتى يأتي غريمك ، فلما حضر عمرو بن العاص وأبنه الحج ، وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين يديه ، وشكى المصري كما شكى أول مرة ، فأومى عمر بن الخطاب ، وقال له : خذ الدرة وأنزل بها عليه ، قال : فدنى المصري من ابن عمرو بن العاص ونزل عليه بها !

وعن أنس ، قال : والله لقد ضربه ونحن نشتهي أن نضربه ، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة ما يضربه ، وعمر رضي الله عنه يقول : أضرب ابن الاكرمين ! قال عمرو بن العاص : قد شفيت يا أمير المؤمنين ! قال عمر ابن الخطاب للمصري : أنزع عمامته وضع الدرة على صلعة عمرو ، فخاف المصري من ذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربني ، فمالي أضرب من لم يضربني ؟ فقال عمر رضي الله عنه : والله لو فعلت ما منعك أحد ، ثم التفت رضي الله عنه وقال لعمرو بن العاص : متى أستعبدت الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان .

هذا ولا ينبغي لنا ان نختم هذه الرحلة من غير ان نشكر محاسن من ساعد ولي النعم في نجاح مقصوده من ترتيب أمور

التلامدة بمدينـة بـاريس ، محب البلاد المصريـة وأهلهـا الخواجـة جومار ، فانه يسعى بهمته ورغبته في تنفيد مقصد أفنـدينـا ولي النعم ، ويسـارع في المصلحـة بـلا أنكار ، فكأنـه من أبنـاء مصر البـارين بهـا ، فهـو جـدير بـأن ينظم في سلـك المحبين للـذات الخـديـويـة ، ومما يـدل على ذلـك غـايـة الـدلالـة مـا ذكره في «روزنامتـه» التي ألفهـا لاستعمال مصر والشـام سنـة الف ومـائتين وأربعة وأربعين من الهجرة ،[1] فانه ذكر فيها انه ان صدرت لـه ارادة سنية وأمر خديوية ليؤلفن كل عام روزنامة» بهـذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الايالات المصرية . فمن جملـة مـا قـالـه في مقدمته انه يذكر في هذه «الروزنامة» عدة أمور :

الامر الأول : الدلالة على تقـدم الحرف والصنـائع اللازمـة لمصر من أولها لآخرها .

الثاني : تجارة أهالي أوروبا وآسيـا وأفريقيـة ، كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز ، ومقابلة الاقيسـة والمكاييل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة فيها .

الثـالث : ذكر امور الزراعـة ، فـانهـا كانت سيـا في سـالف الاعصر في غنـاء اهل مصر ، فلهـذا ينبغي ان تكون أول مـا تهتم به الدولة في مملكة مصر الطيبـة التربـة ، والزراعـة كثيرة الفروع المهمة ، فمن ذلك علم توفير المصـاريف الخلائيـة ، ويتشعب عنـه اصلاح المزارع ، والمروج المستحدثة المـدبرة ، وتتميم زراعـة القطن والتيلـة والعنب والزيتـون والتـوت ، واستخراج دقيـق النيلـة

واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت ، ومعرفة تربية النحل ودود القز ودود الصباغة ، وتعهد الحيوانات الاهلية ، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل والمعز ، وحيوانات الاصواف ، وجلب البهائم البرانية ، ومعرفة طب البهائم ومعالجة امراضها كمرض السواف ، وحفظ الحبوب من السوسة ، وغرس الاشجار وترتيبها بحافات الطرق ، وخدمة البساتين ، وسائر الابنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة . وفي مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقي الاراضي وللاسفار ، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر في السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه ، فهذهِ كلها نذكر في الفلاحة .

الرابع : نتكلم على امور مختلفة من علم الطبيعة ، ومن علم المواليد الثلاثة ، ومن العلوم الرياضية ، وهناك نتكلم على المادة المغناطيسية التي تستعملها الاطباء في معالجة الشلل ونحوه ، وكذلك القوة الكهربائية ، والحرارة الكروية ، والحوادث السماوية ، والندا والمطر الذي يحدث بين المدارين ، وكذلك نتكلم على احجار الصواعق ، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية ، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان وميزان الحر وميزان الرطوبة ، ووقاية الرعد ، والنظارات الفلكية ، والنظارات المعظمة للاشياء الدقيقة التي لا يدركها النظر ، ونتكلم ايضا على علم المعادن واستخراجها ، وقطع الحجارة من مقاطعها ، وعلى علم الحشائش الطبية ، والنباتات المستعملة في الفنون والصنائع ،

وعلى البهائم النافعة ، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة .

الامر الخامس : يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف ، وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها وغناء اهلها ، وعلى احوال المعاش والمعاد ، وعلى ولادة الذكور والاناث في كل بلدة من البلاد ، وعلى الادارة الملكية ، وعلى الاصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الافرنج ، وهي الحقوق العقلية ، والحقوق القانونية ، والحقوق البشرية ، اي الحقوق التي للدول بعضها على بعض .

السادس : سياسة الصحة العمومية والخصوصية ، ففي ذلك نتكلم على تلقيح البقري للجدري ، وعلى الطاعون ومعالجاته ، وعلى الامراض والعوارض العامة ، وعلى بعض تشريح .

السابع : تذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم ، مثل علم الفصاحة ، وفيه نتكلم أيضا على المكاتب والمدارس في البلاد المختلفة ، ونبذات في تواريخ البلاد ، خصوصا مصر ، وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الافرنجية والمشرقية ، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق ، ونبين الوسائط المسهلة المعلمة بالايجاز للقراءة والكتابة والحساب ، وطرق تعليم هذه الأشياء في أقرب زمن لسائر العامة .

الثامن : نبحث فيه عن عدة أشياء متنوعة ، وفيه نذكر

أخبار التجارة والسفن البحرية ، واقامة العربات العامة، وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ، والاشارة المسماة تيلغراف ، يعني اشارة الأخبار ، وجميع الأشغال المتجددة عند الافرنج ، ونضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة ، وكذلك نرسم خرطات جغرافية ، وصور النباتات والحيوانات التي تنقل من البلاد الغربية وتربى في مصر ، ونذكر كثيرا من الأمور التي تتجدد على تداول الأزمان . وبالجملة ، فنذكر نبذات صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقاة ، سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئا من صعاب الكتب . انتهى ، كلامه .

ولم ينجز ما وعد به لانه علق ذلك على الارادة السنية ، ولم يصدر له أمر إلي الآن ، وبالجملة ، فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا ، ومن الراغبين في خدمة ولي النعم حبا له ولدولته .

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى في ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التي لا ينكر معارفها الا من لا انصاف عنده ولا معرفة له ، قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
والفضل كالشمس لا يخفى على أحد الا على اكمه عما يراه عمي

ولا ينبغي أن يمنع ذو الحق حقه ، كما قال الشاعر في هذه الأبيات المملوءة من الحكمة :

اذا كنت في حـــاجـــة مرسـلا   فـــأرسـل حكيـمـا ولا تـوصــه
وان نـاصـح منـك يـومـا دنى   فـلا تنـا عنـه ولا تقصــه
وان بـــاب أمر عليــك التـوى   فشـــاور لبيبـا ولا تـوصــه
وذو الحـــق لا تنتقص حقــه   فـــان القطيعـــة في نقصــه
ولا تـــذكر الـــدهر في مجلس   حـــديثـا اذا كنت لم تحصــه
وقص الحــــديث إلى أهلــــه   فـــان الـوثيقـــة في قصـــه
ولا تحـرصـن فـرب امـرء   حريص مضـــاع على حرصـــه
وكم من فتى ســـاقـــط عقلــه   وقـد يعجب النـاس من شخصـه
وآخر تحسبـــــــه انـــــوكا   ويـــأتيـك بـــالأمر من قصـه

ولا أحد يخلص من قال[10] الناس ، كما قال الشاعر :

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما   وللنـاس قـال بـالظنـون وقيـل

وحيث كان العمل بالنيـة ، والمـدار على حسن الطوبـة ، فلا معـول على من ام يكن نير السيـاسيـة ، سـاطـع الكيـاسـة ، ولا اكترث الا بمن رقي رتبـة عليـة في الرسـوم والقـوانين ، وتشبث بالشريعة وكان فيها ذا ريـاسـة ، ودري أن القصـد انمـا هو حث أهـل ديـارنـا على استجـلاب مـا يكسبهم القـوة والبـأس ، ومـا يؤهلهم لاملائهم الاحكام فتحن على هؤلاء النـاس ، وبـالجملـة كما كان في زمن الخلفاء ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبـح يبـدو قبـل أبيضـه   وأول الغيث قطر ثم ينهمــــل

ولبعض أقاربي :

يا من غدا معجبا مما اقترحت وقد أضحى يروم مقال العاذل اللاحي
أما رأيت اذا شمس الضحى غربت يلحى الحريص الى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يتسضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

وعلى كل حال ، فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفحه بجملته ، ليكون على بصيرة مما يقول ، فان المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ، ولا أقول الا كما قال الشاعر :

فاليك وشيا حاكه في الطرس ذو باع قصير
واستر اذا عيب بدا والله يعفو عن كثير

ولنختمها بالدعاء للدولة الخديوية ، حماها الله وذريتها ، وجعلها سامية القدر بين دور الممالك المشرقية والمغربية ، (شعر) :

فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الاولاد

متع الله مصر وايالاتها بما أفاضه عليها ولي النعم من حسن التمدن والعدل ، وأمد لها ايامه بجاه خاتم الرسل الذي على مولاه دل . وصلى الله على محمد عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه وأحزابه . آمين .

(1) هجرية ، وتوافق سنة 1830 م .
(2) لأي خوفو .

(3) جلال الدين عبد الرحمن (1445 - 1505 م) مؤلف مصري ، من أبرز مؤلفي الموسوعات وجامعي المواد العلمية المختلفة ، وكانت من حوله مجموعة من تلاميذه ومريدية يلخصون الكتب ويجمعون المواد العلمية في الفنون المختلفة ، كي تتحول الى كتب تنسب الى السيوطي .. ولذلك ترك السيوطي نحوا من ستمائة مصنف ، بعضها يعارض البعض الآخر ؟! .. وبالجملة ، فان عمله هذا قد أفاد المكتبة العربية والاسلامية الى حد كبير . كما أن ثقافته الموسوعية ، والمدرسة التي أحاطت به ، نموذج للمجامع العلمية والفكرية في عصرنا الوسيط .

(4) محمود بن عمر ، الزمخشري (1075 - 1144 م) لغوي ، ومفسر للقرآن ، ومتكلم على مذهب المعتزلة .

(5) يوسف : 29 .

(6) أبو حيان الغرناطي ، محمد بن يوسف (1256 - 1344 م) من علماء اللغة ، عاش بين الاندلس ومصر ، ومات بالقاهرة ، ومن آثاره في التفسير كتاب (البحر المحيط) .

(7) الرعان ، مفردها رعن : انف الجبل ، وتطلق أيضا على الجبل الطويل .

(8) أي يغشيني به .

(9) وتوافق سنة 1828 م .

فهرس

المقالة الثالثة 71

صدر في سلسلة الأنيس

هكذا خلقت : محمد حسين هيكل
زينب : محمد حسين هيكل
البخلاء : الجاحظ
الاسلام والنصرانية : محمد عبده
المدينة الفاضلة : الفارابي
ما هي النهضة : سلامة موسى
رحلة ابن جبير : ابن جبير
سيرة بني هلال (جزآن)
كليلة ودمنة : ابن المقفع
تحرير المرأة : قاسم أمين
ألف ليلة وليلة (4 أجزاء)
مقامات الهمذاني : الهمذاني
طبائع الاستبداد : الكواكبي
الاسلام وأصول الحكم : علي عبد الرازق
وثائق ثورة يوليو : جمال عبد الناصر
العبرات : المنفلوطي
النظرات (3 اجزاء) : المنفلوطي
الفضيلة : المنفلوطي
مقامات الحريري (جزآن) : الحريري
سيرة الملك الظاهر
الأجنحة المتكسرة : ج خ جبران
الجمهورية : أفلاطون
شرح الأصول الخمسة (جزآن) : المعتزلي
السياسة الشرعية : ابن تيمية
الأم : مكسيم غوركي
أوليفر تويست (جزآن) : ديكنز
الإمامة والسياسة (جزآن) : ابن قتيبة

غادة أم القرى : رضا حوحو
حي بن يقظان : ابن طفيل
الإمتاع والمؤانسة (3 اجزاء) : التوحيدي
رحلة ابن بطوطة (جزآن) : ابن بطوطة
نهج البلاغة (جزآن) : الإمام علي
روح الاجتماع : غوستاف لوبون
طوق الحمامة : ابن حزم الأندلسي
فيض الخاطر جزآن : أحمد أمين
تغريبة بني هلال
الخوف والرجاء : الغزالي
الشاعر + في سبيل التاج : المنفلوطي
مجمع البحرين : اليازجي
حديث عيسى بن هشام : المويلحي
رسالة الغفران : المعري
رسالة التوحيد : محمد عبده
فجر الإسلام : أحمد أمين
مروج الذهب (4أجزاء): المسعودي
ايفنهو : والتر سكوت
معذبو الأرض : فانون
لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم: أرسلان
قواعد المنهج في علم الاجتماع : دوركايم
شجرة الحضارة ج1ج2ج3: رالف لنتون
زعماء الإصلاح : أحمد أمين
الشيخ والبحر-ثلوج كليما نجارو: همنغواي
فصوص الحكم : ابن العربي
وحي القلم (3 اجزاء) : الرافعي

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

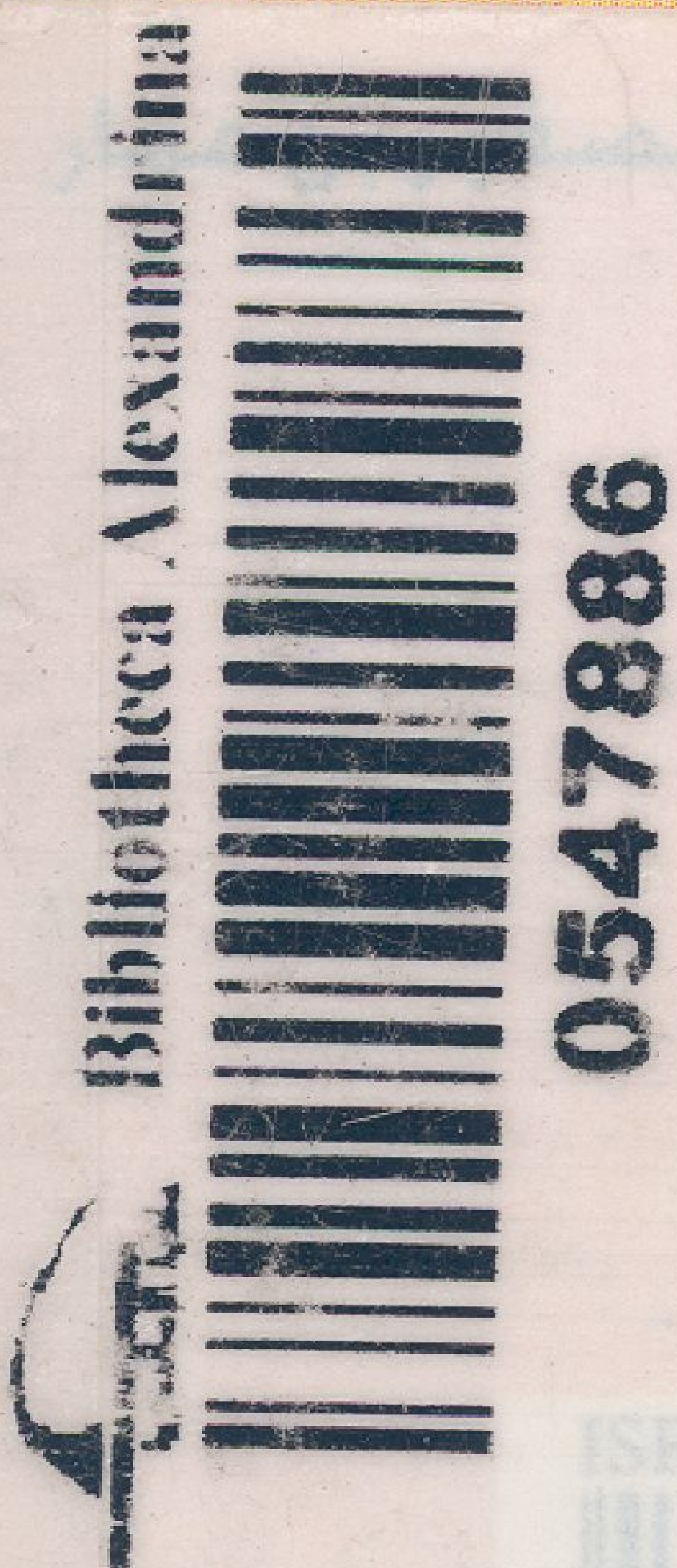
Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

عاصمة الثقافة العربية

تخليص الإبريز
في تلخيص باريز

إن الشيخ رفاعة يقدم في هذا الكتاب تحليله لمبادئ الدستور الفرنسي والتعديلات التي جرت عليه وهو بذلك يقدم للقارئ العربي نظام الحكم الفرنسي وأسباب ثورة 1830 ويبدو في ذلك شديد الحماس لهذه التغيرات وللحياة السياسية والثقافية التي عمت باريس وانتشرت أصداؤها على القارة الأوروبية، وقد أراد بذلك كشف الغطاء عن المبادئ الأساسية التي تحرك هذه الحياة وله غاية في ذلك إذ يقول: «لكي نكشف الغطاء عن تدبير الفرانسوية ونستوفي غالب أحكامهم وليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر...»







Designer : Med ZOUAOUI